

وزارة التربية والتعليم

الدولة الإسلامية

تاريخها وحضارتها

جزء
معين التاريخ
لأهل التاريخ

تأليف

عبد الحميد العبادي محمد مصطفى زيادة إبراهيم أحمد العدوي

طبع بالقاهرة

مطابع مصرى تحت المراقبة

١٩٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

اختارت وزارة التربية والتعليم لهذا الكتاب لجنة من المؤلفين أقل أن يجتمع مثلها لكتاب مثله ، أو أن يجيء بتشكيلها على نحو ما جاءت عليه من الصدفة الحميدة . فالأول من هذه اللجنة استاذ للثاني في المرحلة الثانوية من التعليم سنة ١٩١٤ م ؛ أي أوائل الحرب العالمية الاولى ، والثاني استاذ للثالث في مرحلة التعليم الجامعى ، سنة ١٩٢٥ م ، وأخيرا الحرب العالمية الثانية ، وبينهم صلة علمية متينة لطيفة للخيط ، وفهام فكرى وثيق العروة ، وهم جميعا مشغولون بتدريس التاريخ فى الجامعات المصرية ، مدة سنوات متفاوتة الطول والتجربة . ثم ترتب على توزيع العمل بين المؤلفين الثلاثة شئ من التنوع ، من حيث قزارة المادة ومستوى الاسلوب ، فى مختلف أجزاء الكتاب ، وهو مما لا بد منه فى انتاج مشترك بين ثلاثة اجيال من المشتغلين بدراسة التاريخ والتأليف فيه وتدريسه ، مع ما بينهم من تكامل وتوافق وفهم للتاريخ .

ومن أجل اعداد هذا الكتاب للمطبعة عينت وزارة التربية

والتعليم كاتب هذه السطور القليلة ، وذلك بموافقة زميليه في
التأليف ، للقيام على هذا العمل الذى تطلب بطبيعته بعضا من تعديل
المادة بالتبسيط والاختصار والحذف والإضافة ، وبعضها من
تقريب المستوى الأسلوبى كذلك ، حتى يتيسر للقارئ السير في
الكتاب كله على سجية واحدة . واستقام ذلك في سهولة باتباع
النغمة الوسطى في جميع أجزاء الكتاب ، وأرجو ألا أكون أسأت
تأدية هذه المهمة الدقيقة ، نيابة عن نفسى وزميلى في التأليف ،
وسوف يلحظ القارئ أن الدولة الإسلامية - موضوع هذا
الكتاب - وحدة تاريخية ، هى في ذاتها جزء من التاريخ العام ،
وليس التاريخ العام جزءا منها ، وبين هذا الجزء الإسلامى
وسائر أجزاء التاريخ في الشرق والغرب ، وفى السابق واللاحق
من العصور التاريخية ، تماس أحيانا ، وتداخل أحيانا أخرى ،
وتقاطع أحيانا ثالثة ، سواء في الخير أو الشر ، أو ما بينها من
نوازع بيولوجية حيوية .

ومع أن هذا الكتاب ليس تاريخا سياسيا للدولة الإسلامية ، أو
سجلا مفصلا لمراحل الفتح والنصر والتوسع والتطور ، فأساسه
أن التاريخ الإسلامى وحدة ، أقسامها الطبيعية عصر النبوة
والرسالة ، وعصر الخلافة الصحابية ، وعصر الخلافة الوراثية
السياسية منذ قيام الأمويين الى سقوط بغداد ، وعصر الدول
الإسلامية المستقلة في الشرق والغرب ، وهذا كله في العصور
الوسطى وفقا للتقسيم التقليدى للتاريخ . ثم يتلو ذلك عصر الدولة

العثمانية ، ثم عصر النهضة العربية الحديثة الذى يمتد الى الحاضر والمستقبل . ويبدو واضحاً أن هذه الاقسام أكثر انطباقاً على الواقع والمنظور التاريخى من غيرها من الاقسام الجارية فى تدريس التاريخ فى العالم الاسلامى .

ولذا اتجه المؤلفون الى الامعان فى شرح العوامل المختلفة التى دفعت المسلمين الاولين الى التوسع ، وانتشار الاسلام واللغة العربية ، وتطور الدولة الاسلامية وحكومتها المركزية والاقليمية . وأعقب ذلك فصل خاص بالحضارة الاسلامية فى ازهى عصورها ، مع بيان المؤثرات الاجنبية فيها ، ووصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية فى المجتمع الاسلامى ، وبيان المؤثرات الحضارية الاسلامية بدورها فى الحياة الفكرية والاحوال الاجتماعية والاقتصادية فى غرب أوروبا ، مما هو أجدى على الطالب من اخبار الحروب والمعارك والانتصارات فى ميادين القتال .

ثم طرأت على الدولة الاسلامية عوامل الاستقلال الاقليمى ، وتوزعت الحركة الذاتية بين المسلمين فى اشتات البلاد ، وتفرعت الحضارات والثقافات الاسلامية ، وهذا هو الفصل الثالث من الكتاب . وبينما تسرى الحركات الاستقلالية الانفصالية فى اقاليم الدولة الاسلامية ، وتؤدى الى قيام دول متعددة بين سنية وشيعية متنافرة ، ظهرت دولة السلاجقة التى أعادت وبعثت النشاط التوسعى الاسلامى على حساب الدولة البيزنطية المسيحية ، وأخافت الدول الاوربية جميعاً من جديد ، وذلك بحين بدأت هذه الدول الاوربية فى الاسنقرار والنهوض والطموح

الخارجى . ومن هنا جاءت الحروب الصليبية ، وهى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

والمعروف أن الجيوش الصليبية وجدت بلاد العالم الاسلامى فى تفكك صارخ ، والدول الاسلامية المستقلة فى الشرق الاوسط . فى انحلال بالغ سن اليأس ، بعد زوال شخصيات الدولة السلجوقية وعوامل استمساكها . غير أن هذه الحروب الصليبية بعينها خلقت روحا من المقاومة الاسلامية المتحدية للصليبيين ، وما لبثت هذه الروح أن أنجبت فكرة توحيد الجبهة الاسلامية ، كما أنجبت شخصية صلاح الدين الأيوبي واسلافه واخلافه فى شمال العراق والشام ، ثم فى مصر التى استطاعت ان تنهض بطرد الصليبيين نهائيا من بلاد المسلمين عامة . واستطاعت فئة الرجال الذين اقتلعوا الصليبيين من معاقلهم بالشرق أن يوقعوا الهزيمة كذلك بالمغول وجنودهم ، لأول مرة فى تاريخهم التخريبى ، وذلك برغم ما قام به أولئك المغول من ازالة الخلافة العباسية فى بغداد . ونتج عن ذلك كله ان صارت مصر مركز العالم الاسلامى ؛ ومقر الخلافة العباسية ، وقبله انظار المسلمين من مشارق الارض ومغاربها ، وأضحت القاهرة موئل العلماء وقادة الفكر من مختلف البلاد الاسلامية .

ويختتم هذا الكتاب بفصل فى تكوين الدولة العثمانية التى غدت محور الارتكاز فى العالم الاسلامى منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، بعد أن استولت على الشام ومصر والعراق واليمن

والحجاز ، ونقلت مقر الخلافة الى القسطنطينية على شاطئ
البوسفور في أوربا . غير ان هذه الدولة العثمانية الاسلامية
اعترها الفساد الداخلى ، فأخذت تنكمش رويدا رويدا ، على
حين أخذت الدول الاوربية المجاورة تزداد مساحتها على حساب
العثمانيين انفسهم ، ومع هذا لم يفقد الاسلام قوته الذاتية ،
بدليل انتشاره - في غير حرب أو سيف أو عنف - الى بلاد مترامية
الاطراف في أقصى الشرق الأقصى ، وجوف افريقيا ، وهو فصل
الختام في هذا الكتاب الذى ينتهى بخريطة توضيحية للعالم
الاسلامى في العصر الحاضر ، وهى واحدة من بضع خرائط
توضيحية في فصول الكتاب ، لمساعدة القارئ على تصور الدولة
بالاسلامية جغرافيا في عصورها المختلفة .

ورغبة في تيسير هذه المساحة التاريخية الواسعة على الطلاب ،
استأذنت زميلى في تأليف هذا الكتاب فى عرض أجزاء منه على
بعض تلاميذى المشتغلين بتدريس التاريخ فى مختلف مراحل
التعليم ، للتأكد من ملاءمة مادته ومستواه للغرض المنشود به .
وهؤلاء هم الباز العرينى المدرس المنتدب بقسم التاريخ بجامعة
القاهرة ، وعبد الشافى غنيم المدرس الاول بمدرسة مصطفى كامل
الثانوية ، ومحمد احمد الغنام المدرس بمعهد التربية للمعلمين
بجامعة عين شمس . وآخرهم هو الذى أعاننى كذلك على قراءة
الكتاب كله أكثر من مرة أثناء اعداده للطبعة ، وفى هذا التنويه
بمشاربته معى شكر منى اليه يفوق ما جرى العرف على تسجيله

اقرارا بجميل معونته ، نيابة عن المؤلفين . واود هنا — نيابة
عن المؤلفين الثلاثة كذلك — أن اشكر القائمين على شئون
مطابع المصرى تحت الحراسة ، من هيئة الادارة والعمال ،
عنايتهم باخراج هذا الكتاب فى اتقان ملحوظ وسرعة فائقة .

وبعد هذا يرجو المؤلفون الثلاثة أن يكون هذا الكتاب عند
المستوى اللائم للطالب والقارئ العام ، وأن يهديهم نقد الناقدین
الى ما فيه من مواضع الاضافة او الحذف او التعديل او التيسير،
وهو ما سوف يرحب به المؤلفون من القارئ الخاص والعام ،
املا فى الوصول بالكتاب الى ما يتطلبه الوعي الشرقى الجديد
والنهضة المصرية المتوثبة من غذاء تاريخى ناضج سليم .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة

نوفمبر سنة ١٩٥٤ م

ربيع الاول سنة ١٣٧٤ هـ

محتويات الكتاب

الفصل الاول

نمو الدولة الاسلامية

(ص ١٥ - ١١١)

العوامل التي دفعت المسلمين الى التوسع - انتشار الاسلام
واللغة العربية - تأسيس الدولة الاسلامية - تطورها - نظم الدولة
الاسلامية - الحكومة المركزية - حكومة الولايات .

الفصل الثاني

الحضارة الاسلامية في أزهى عصورها

(ص ١١٢ - ١٦٨)

أصولها : الاسلام - الثقافة العربية - المؤثرات الاجنبية في
الحضارة الاسلامية . الحياة الاجتماعية والاقتصادية : عناصر
المجتمع - اهل الذمة - الاسرة الاسلامية - الزراعة -
الصناعة - التجارة - النظم المالية . الحياة الفكرية : علوم اللغة
والدين - التاريخ والاجتماع وتقويم البلدان - الفلسفة وعلم
الكلام - العلوم الطبيعية والرياضية - الفنون والآثار - حركة
الترجمة - فضل العرب على الحضارة العالمية .

الفصل الثالث

الحركات الاستقلالية في الدولة الإسلامية

(ص ١٦٩ - ٢٣٨) .

نشأة الفرق الإسلامية اثرها السياسى والاجتماعى -
عوامل التفكك - قيام الدول المستقلة - الاندلس - الحضارة
الإسلامية الاندلسية - مصر - الحضارة الفاطمية والمملوكية ،
فارس والعراق ؛ بنويوه السلاجقة ؛ الحمدانيون فى الموصل
والشام - علاقتهم بالبيزنطيين ، الإسلام فى الهند - المغل .

الفصل الرابع

العالم الإسلامى بين الصليبيين والمغول

(ص ٢٣٩ - ٢٩١) .

أهمية العالم الإسلامى : الموقع - طرق التجارة - تنوع
الموارد - الأماكن المقدسة - الحروب الصليبية : الدعوة إليها
والعناصر المسيحية التى أسهمت فيها : الكنيسة - الاقطاع -
الإمارات البحرية الإيطالية - ضعف الدولة البيزنطية - تكوين
الإمارات اللاتينية فى الشرق - حركة الجهاد الإسلامى وأدوار
الكفاح - طرد الصليبيين من الشرق الإسلامى . أثر الحروب
الصليبية فى الحضارة الأوروبية . غارات المغول : موطنهم - أهم
فتوحهم شرقا وغربا - سقوط بغداد - جهود مصر فى صد
المغول - الدولة المغولية .

الفصل الخامس

الدولة العثمانية

(ص ٢٩٢ - ٣٤٦) .

الترك والاسلام - تأسيس الامارة العثمانية - اتساعها
وفتوحها في أوروبا - انضواء العالم العربى تحت الحكم العثمانى -
نظم الحكم فى الدولة والولايات - الحركات القومية قبل القرن
التاسع عشر الميلادى .

الفصل السادس

انتشار الاسلام فى العالم

(ص ٣٤٧ - ٣٧١) .

اثر التبادل التجارى والطرق الصوفية فى نشر الاسلام فى
أفريقية - السودان - الحبشة - الصحراء الكبرى اثر التبادل
التجارى فى نشر الاسلام فى جزائر الهند الشرقية والملايو والصين
فى الشرق الاقصى .

قائمة الخرائط التوضيحية

- ٦٥ ص - الدولة الإسلامية في القرن الاول الهجرى
- ١٨٥ - تفكك الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى
- ٢٣٠ - حروب سيف الدولة الحمدانى
- ٢٤٣ - طرق التجارة في الدولة الإسلامية
- ٢٥٨ - الامارات اللاتينية في الشام
- ٢٧٠ - الامارات اللاتينية بعد انتصارات صلاح الدين
- ٣٢١ - الامبراطورية العثمانية
- ٣٧١ - العالم الإسلامى في العصر الحاضر

الدُّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

الفصل الأول

نمو الدولة الإسلامية

العوامل التي دفعت المسلمين الى التوسع

يقوم تاريخ العصور الوسطى على ثلاث ظواهر تاريخية : فالظاهرة الاولى هى انتشار الديانة المسيحية من فلسطين الى غيرها من بلاد الدولة الرومانية الوثنية ، وذلك منذ اواخر العصور القديمة الى قبيل العصور الوسطى . والظاهرة الثانية هجرة القبائل التوتونية - اى الجرمانية - من مواطنها الى تلك البلاد الرومانية واستقرارها بالاقاليم الغربية منها مع اعتناقها المسيحية تدريجا منذ القرن الرابع الميلادى . اما الظاهرة الثالثة فهى قيام الدين الاسلامى فى شبه جزيرة العرب ، واعتناق العرب الاسلام ، والتوسع العربى الاسلامى الكبير منذ القرن السابع الميلادى .

وترتب على الظاهرتين الاولى والثانية معا نشأة التقسيمات التى نبتت منها الدول الأوروبية المسيحية المعروفة بغرب أوروبا حتى العصر الحاضر ، ومنها المانيا وفرنسا وانجلترا وبلجيكا واسبانيا . كما ترتب على الظاهرة الثالثة ان اتخذ الشرق طابعه

المميز له عن الغرب ، والذي لا يزال ملحوظا حتى اليوم ، ونعني به طابع الاسلام . وبذلك أخذ يتكون الغرب المسيحي والشرق الاسلامي .

والرأى السائد الى عهد قريب في تحليل التوسع العربي الاسلامي الكبير هو القائل بحرص المسلمين الاولين على نشر الاسلام بالقوة والسيف وحدهما . وهو رأى قال به رجال الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى وتبعه بعض كتاب التاريخ من المسلمين والمسيحيين المتأخرين . غير أن هذا الرأى العنيف لاسند له من الواقع او من التاريخ . والصحيح أن الفتوح العربية الاسلامية الكبرى انما حدثت استجابة لعوامل اولها ديني ، وثانيها اقتصادي ، وثالثها سياسي .

العامل الديني :

اما العامل الديني فأمره واضح وهو أن الرسول عليه السلام جاء بالدين الاسلامي لينشره بين الناس ، وأنه جعل من العرب كتلة واحدة استطاعت أن تحمل دعوة الدين الى مختلف البلاد القريبة والبعيدة في غير اكراه او ارهاق مع تخيير أهل البلاد المفتوحة بين الاسلام او الضريبة الشخصية المعروفة باسم الجزية .

العامل الاقتصادي :

والعامل الاقتصادي ملحوظ في الجغرافية الطبيعية لشسبه جزيرة العرب نفسها حيث أخذت الاحوال الجوية منذ الالف

الرابع قبل الميلاد تخضع لعوامل الجفاف وتقص الامطار وجذب التربة ، وترتب على ذلك أن اخذت القبائل العربية تهاجر من شبه الجزيرة على مراحل متباعدة الى الاقطار المجاورة الخصبة ، اى الى الشام والعراق حيث تكونت دول بابل وآشور وكلديا والعمالة والفينيقيين والعبرانيين . وليست هجرة القبائل العربية في صدر الاسلام الى هذه الاقطار وما وراءها الا من قبيل تلك الهجرات القديمة ، وان اختلفت عنها من حيث الزمن والطابع الدينى العام . وقد مهد للهجرة العربية الاسلامية هجرات حدثت على نطاق ضيق في القرون الثلاثة السابقة على الاسلام ، ومنها هجرة قبائل من البحرين الى ريف العراق وتكوينها مملكة الحيرة المشهورة ، وهجرة قبائل يمنية الى الحجاز ، ثم الى بادية الشام ، حيث تكونت مملكة الغساسنة المعروفة .

وبمجيء الدعوة الاسلامية وقيام الدولة الاسلامية في المدينة اكتسبت هذه الحركة العربية المتصلة قوة ونظاما تمكنت بهما مع أن تكتسح الدولة الساسانية الفارسية ، وأن تنتزع من الامبراطورية البيزنطية اغنى املاكها ، اى الشام ومصر . وذلك في مدة وجيزة لا تكاد تتجاوز عشر سنين .

العامل السياسى :

غير أن حركة التوسع العربى الكبير ما كانت لتأخذ مجراها المعروف فى التاريخ لو أن الدولتين الفارسية والبيزنطية كانتا قوتين منيعتين . والواقع أن من مصادفات التاريخ العجيبة أن تقترن

نهضة العرب واجتماعهم على دعوة واحدة ودولة واحدة ، بضعف واختلال بجميع مرافق الدولتين الفارسية والبيزنطية .

سوء حال الدولة الفارسية :

اعترى الدولة الفارسية منذ أواخر القرن الخامس الميلادى ضعف شامل برغم الجهود التى بذلها الاكاسرة بغية الاصلاح . وأهم مظاهر هذا الضعف فى الداخل تعدد النحل الغريبة والانقسامات الدينية ، فالزرادشتية وهى الدين الرسمى للدولة ، والماتوية وهو مذهب فلسفى ينزع بالناس الى الزهد المطلق وعدم الانتاج ، ثم المزدكية الشيعوية التى أثارت الفقراء على الاغنياء فى فارس ، ثم النصرانية بمذبيها المتقاربين النسطورى ، واليعقوبى ، ثم اليهودية والصابئة التى لم تعدم كل منها وجودا فى بعض المدن . وكانت الكنيسة الزرادشتية الرسمية تضطهد أتباع الملل الاخرى ، واضطهدت الحكومة الفارسية رعيتهما من النصارى كلما وقعت حرب بينها وبين الدولة البيزنطية .

ثم ان نظام الحكم فى الدولة الفارسية كان نظاما وراثيا استبداديا يقوم على فكرة أن كسرى يحكم بتفويض من الله ، وعاش الاكاسرة فى شبه عزلة واحتجاب عن رعيتهما ولهم نظام للجاسوسية يطلعهم على ما يجرى فى الاقاليم .

وظلت الدولة الفارسية منذ القرن الخامس الميلادى فى حروب متصلة مع الشعوب المجاورة لها ولاسيما القبائل التركية شرقا

والدولة البيزنطية غربا ، مما استنزف دماء ابنائها وافرغ خزانتها .

ومما يدل على تخطيط السياسة الفارسية وقتذاك أنها عفلت على القضاء على مملكة الحيرة العربية ، وهى درع لها من عادية القبائل العربية مما يلى ريف العراق . وبدهاب هذه المملكة الحاجزة تجرات القبائل العربية الريفية ، ولا سيما قبيلة بكر بن وائل على الدولة الفارسية وانتصرت بكر على الجيش الفارسى فى وقعة ذى قار (بين ٦٠٤ ، ٦١١ م) وهو اول نصر أحرزه العرب على العجم ، وأول نذير بالانتصارات الاسلامية الكبرى فى العراق وفارس نفسها .

وليس أدل على مبلغ اضطراب الدولة الفارسية فى السنوات العشر السابقة على شروع المسلمين فى غزوها من أنه تعاقب على عرشها فى تلك السنوات اثنا عشر ملكا بين رجل وامرأة وصبى صغير ومقتصب من غير بيت الملك .

سوء حال الدولة البيزنطية

لم تكن الدولة البيزنطية أوائل القرن السابع الميلادى أحسن حالا من دولة الفرس . فالمنازعات المذهبية صدمت وحدتها الروحية ، والمسيحية فى ذلك الزمن مذاهب يخاصم بعضها بعضا . وكان مدار الجدل والنزاع بين هذه المذاهب فى الغالب حول طبيعة السيد المسيح ، فالنساطرة يفلبون الجانب البشرى هلى الجانب الالهى فى ذاته عليه السلام ، واليعاقبة يفلبون الجانب

الالهى على الجانب البشرى . والملكاتية وهم أتباع المذهب
الرسمى للحكومة يقولون بالطبعيتين كما قالوا أخيرا بوحدة
الإرادة التى يصدر عنها السيد المسيح .

ولكن الحكومة البيزنطية عجزت عن أن تفرض مذهبها على
اتباع المذهبين الآخرين ، فلجأت الى اضطهادهما ، وتشرد أصحاب
المذهب النسطورى الى العراق وفارس وبلاد العرب ، وتطرق مذهبهم
الى الهند . وأما المذهب اليعقوبى فانتشر فى الشام ومصر ، وهما
من بلاد الدولة البيزنطية ، وتعرض أصحابه لاضطهاد الدولة لهم .

ثم ان الحروب الخارجية الكثيرة التى اضطرت الدولة الى
خوض غمارها وبخاصة مع الفرس والأبر (الأفار) استنزفت
موارد الدولة ، فلجأت الحكومة الى زيادة الضرائب والشدة فى
جمعها مما أثقل كاهل الطبقات الفقيرة خاصة . وتطرق الخل
الى الحكومة بسبب هذه الحروب ، فضلا عن الخلافات المذهبية،
فكثير تمرد الجند وتعددت ثوراتهم ، واجترعوا على الإباطرة ،
فكانوا يولونهم ويعزلونهم ويسجنونهم ويعذبونهم كيف شاءوا ،
وبذلك انحطت هبة الإباطرة وانحطت معها هبة مجلس السناتو
أى مجلس الشيوخ . ثم اضطرتها حالتها الاقتصادية الى
قطع العون المالى الذى كانت تؤديه للفسانسة وذلك فى أوائل
القرن السابع . فكان من وراء ذلك أن انقضت عليها القبائل
العربية النازلة فى بادية الشام وجنت بيزنطة من تلك السياسة
ما جنته فارس من القضاء على مملكة الحيرة .

سياسة حكومة المدينة :

لاشك أن أبا بكر الصديق ورجال حكومة المدينة كانوا على أثر الفراغ من حروب الردة وانفساح المجال امامهم لغزو الشام والعراق ، حريصين على انتهاز الفرصة السانحة ، فدفعوا القبائل العربية نحو الجبهتين الشرقية والغربية في وقت واحد يحدوهم الى ذلك أمران :

(١) عامل الرغبة في أن يشغلوا العرب عن العودة الى ردة جديدة .

(٢) وعامل الرغبة في أن يشبعوا نزعة العرب للحرب وميلهم الى كسب المغائم من طريق الغزو . وبذلك ينصرفون عما أراد الاسلام أن يصرفهم عنه ، وهو غزو بعضهم بعضا ، ونهب بعضهم أموال بعض من طريق الغارات القديمة . ونجحت هذه السياسة ايما نجاح اذ استجابت القبائل العربية لداعى الغزو الخارجى عن رضا وطواعية .

مجمال حال الأمة العربية :

ومما تقدم يتبين مبلغ الفرق بين حال الدولتين الفارسية والبيزنطية وحال الدولة الاسلامية والامة العربية . فالعرب في نهضة حقيقية واتحاد تام غداة الفراغ من حروب الردة ، والوعى القومى تنبه فيهم الى درجة بعيدة ، والاسلام امدهم بالقوة اللازمة للقيام بعظائم الأمور ، وبالنظام الكفيل بالنجاح ، فاذا عرفنا أن اساليب الحرب وانواع السلاح كانت في ذلك

الزمان في العالم كله واحدة تقريبا ، وأن العرب باتصالهم
بالفرس والبيزنطيين عن طريق الحيرة وامارة الغساسنة مرئوا على
حروب هاتين الدولتين ، اذا عرفنا كل ذلك اتضح لنا مدى
استعداد العرب الحربى وسر اقبالهم على محاربة الدولتين
الكبيرتين في وقت واحد .

التوسع العربى

حرب الردة وآثارها :

ظهرت في جزيرة العرب قبيل وفاة النبى حركة مقاومة
للاسلام لم تلبث أن اشتدت وعظمت بوفاته عليه السلام وبيعة
ابى بكر بالخلافة . ولكن ابا بكر صمم على القضاء على هذه
الحركة ، ورمى المرتدين في قلب شبه الجزيرة بخالد بن الوليد
كما أنفذ قادة آخرين الى أطراف الجزيرة لقمع الردة فيها .
وقضى خالد على ردة بنى أسد وتميم وحنيفة بعد قتال
عنيف ، وكذلك فعل القادة الآخرون في سائر أنحاء شبه
الجزيرة . ولم يكد يمضى على وفاة الرسول عام وبعض عام حتى
عادت شبه الجزيرة الى الاعتصام بحبل الدين الجديد والدولة
الاسلامية الجديدة . وذلك بفضل عزيمة ابى بكر وعبقريّة
خالد العسكرية .

وترتب على انتصارات خالد والقادة الآخرين في وقائع الردة
أن أخذت انظار القبائل العربية النازلة بأطراف العراق والشام

تتجه نحو الدولة العربية الاسلامية الجديدة التى قامت في المدينة واخذت تخصها باعجابها ولا سيما بعد أن انقطعت الصلة بينها - كما بينا من قبل - وبين الدولتين الفارسية والبيزنطية . بل لقد بلغ الأمر ببعض هذه القبائل أن طلبت الى أبى بكر أن يعينها على غزو العراق والشام . فكان هذا الطلب من القبائل المذكورة ، وقبول أبى بكر له عملا بسياسته التى تقدمت الإشارة إليها ، واستنفاره العرب عامة لغزو العراق والشام ، واستجابة العرب له للأسباب التى سبقت ، كل هذا يعطينا الأساس التاريخى لشرع العرب في غزو أملاك الدولتين الفارسية والبيزنطية .

غزو خالد بن الوليد العراق ١٢ - ١٣ هـ :

نزلت قبيلة بكر بن وائل جنوبى العراق واثارت الحرب بينها وبين الدولة الفارسية ، وانتصرت قبيلة بكر كما قدمنا على الجيش الفارسى في وقعة ذى قار . وأعجبت هذه القبيلة بانتصارات خالد على المرتدين في قلب شبه الجزيرة حتى ليقال أن وفدا من شيوخها على رأسه المثنى بن حارثة الشيبانى سار الى المدينة ولقى الخليفة وطلب اليه أن يأذن لخالد في غزو العراق على أن تنضم اليه قبيلة بكر ، فأذن أبو بكر في ذلك .

وعلى ذلك سار خالد بعد فراغه من ردة بنى حنيفة متجها نحو العراق على رأس كتيبة عدتها نحو ٥٠٠ مقاتل وانضم اليه متطوعون كثيرون رغبة منهم في شرف القتال تحت لوائه وأملا في

مغانم كثيرة يتوقعونها . وسار خالد متبعا الجانب الغربى الفرات متجنباً البطائح والمستنقعات ، ثم انضمت اليه بكر يقودها المثنى بن حارثة الشيباني ، فبلغت قوة الفريقين حوالى ٣.٠٠٠ مقاتل ، واتبع خالد فى هذه الغزوة طرق الحرب الخاطفة ، فكان يظهر ويختفى وينتقل من مكان الى مكان بسرعة عجيبة ، وأخيراً هاجم مدينة الحيرة الحصينة ، واضطرت حاميتها الى أن تفتدى نفسها بجزية تؤديها قدرها ٦.٠٠٠ درهم وذلك سنة ١٢ هـ . ثم أمر أبو بكر خالداً بأن ينتقل بكتيبته من العراق الى الشام حيث تخرجت أمور الغزاة المسلمين فى بعض البلاد الشامية ، فسار خالد بكتيبته من الحيرة الى تدمر ومنها الى الشام ولحق بجيوش المسلمين تحت أسوار دمشق . وقد عدت رحلة خالد هذه بكتيبته مخترقاً الصحراء الجرداء التى بين العراق والشام فى بضعة أيام من روائع الحركات العسكرية فى التاريخ .

فتح الشام

الحالة على حدود الشام :

سلكت قبائل لخم وجذام وقضاعة من الدولة البيزنطية - بعد قطعها العون المالى عن الفساسنة - مسلك قبيلة بكر من الدولة الفارسية بعد أن قضى الفرس على مملكة الحيرة . ولا شك أن لخم وجذام وقضاعة قد نبهتها غزوات مؤتة وتبوك ، فى عهد الرسول عليه السلام . والظاهر أنها طلبت الى أبى بكر أن تنضم

الى القوات الاسلامية في غزو الشام ، وأن الخليفة استجاب لهذا الطلب تمثيا مع سياسته التي عرفناها .

زحف المسلمين الى الشام :

وعلى ذلك سير أبو بكر في خريف سنة ٦٣٣ م (١٢ هـ) ثلاثة جيوش اولها بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، والثاني يقوده شرحبيل بن حسنة ، والثالث يقوده عمرو بن العاص . وكان يزيد بن أبي سفيان أول القادة الثلاثة اصطداما بالجيش البيزنطي ، اذ جرت بينه وبين سرجيوس بطريق قيصرية وقعة في وادي العربة جنوبى البحر الميت ، وانتهت هذه الوقعة بمقتل القائد البيزنطي والقضاء على جيشه (٤ فبراير سنة ٦٣٤ م) ، وبعد ذلك بقليل أقبل عمرو بن العاص بجيشه من أيلة - أى العقبة الحالية - وبث الغارة في كل الاجزاء الجنوبية من فلسطين حتى بلغ اقليم قيصرية .

وقعة أجنادين :

كان الامبراطور في ذلك الوقت مقيما في حمص ، فلما بلغته اخبار غزو العرب فلسطين ، حشد جيشا ، وعين لقيادته اخاه تيودور ، وأمره أن يسير به من جنوبى دمشق الى فلسطين . ومن حسن حظ العرب أن وصل خالد بن الوليد في كتيبته في ذلك الوقت قادما من العراق فبلغ دمشق فجأة في ٢٤ ابريل سنة ٦٣٤ م ، فلما رأى الجيش البيزنطي يتحرك نحو الجنوب ، صار هو كذلك جنوبا سالكا المنطقة الواقعة شرقى نهر الاردن

وتمكن من الاتصال في وادي العربية بيزيد وعمرو . ثم تقدمت الجيوش العربية الثلاثة مجتمعة للقاء الجيش البيزنطي . فكانت بينهما وقعة أجنادين بين بيت المقدس وغزة (سنة ٦٣٤ م - سنة ١٣ هـ) فانهزم البيزنطيون انهزاما شنيعا بفضل تدبير خالد بن الوليد . وعلى اثر ذلك انساح العرب في جنوبي فلسطين .

وبلغ نبأ انتصار العرب في وقعة أجنادين مسامع أبي بكر وهو على فراش الموت - توفي في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ (اغسطس سنة ٦٣٤) وخلفه عمر بن الخطاب .
دخول دمشق :

وتولى خالد القيادة العليا للجيوش العربية في الشام ، وتقاطرت اليه المطوعة من أنحاء الجزيرة عندما بلغهم انتصارات المسلمين في الشام ، وزحف خالد الى دمشق حيث تراجعت اليها فلول الجيش البيزنطي بعد وقعة أجنادين ، وضيق عليها الحصار حتى استسلمت في سبتمبر سنة ٣٦٥ (رجب سنة ١٤ هـ) .

وبسقوط دمشق انصرف العرب الى اتمام فتح الشام ، فانصرف القادة الاصليون الى فلسطين ، كما زحف خالد الى حمص فاستولى عليها . واستولى العرب على معظم المدن المكشوفة . اما المدن الحصينة امثال بيت المقدس وقصرية

ومدن الساحل فصارت العرب على أمل أن تأتيها النجدة من قبل الامبراطور هرقل .

وقعة اليرموك :

على أن الامبراطور هرقل لم ييأس مع ذلك من استنقاذ الشام فأخذ يعمل ، في أنطاكية والرها ، على جمع جيش كبير يطرد به العرب من الشام . وتم حشد هذا الجيش جنوبى دمشق وكانت عدته على أقل تقدير ٥٠.٠٠٠ مقاتل معظمهم من مرتزقة الارمن وبعض العرب الموالين للبيزنطيين ، وعين عليه قائدا اسمه تيودور .

وفي ربيع سنة ٦٣٦ م زحف الجيش البيزنطى الى حمص فجأة ، فأدرك خالد من فوره حرج موقف العرب تجاه هذا الجيش الضخم ، وأمر أن يجلو العرب عن دمشق وعن حمص كما دعا قادة العرب جميعا الى الاجتماع بجيوشهم في مكان يقع شرقى الاردن وجنوب شرقى وادى اليرموك وشمال البلدة التى تعرف الآن بدرعة (اذرعات) وهو موضع هام من الناحية الاستراتيجية ، يتوسط أخصب بقاع الشام ، وتمر منه الطرق الرئيسية المؤدية الى قلب فلسطين والى جنوبى المنطقة الواقعة شرقى الاردن . وكان العرب فى هذا الموقع تحمى ظهورهم روافد اليرموك العميقة ، فاذا ما قدرت لهم الهزيمة امكنهم الانسحاب الى الصحراء أو الرجوع الى المدينة رأسا . ولم تبلغ عدة الجيوش العربية المجتمعة على اليرموك سوى ٢٥.٠٠٠ مقاتل .

اما الجيش البيزنطى فسار من جنوبى دمشق وعبر الاردن ، واحتل مواقعه عند قرية جلق . وظل الجيشان متواقفين مدة طويلة . لان العرب وقفوا ينتظرون وصول امداد تأتيهم من المدينة ، ولان الخلاف دب بين صفوف البيزنطيين مع انتشار روح التمرد فى الجند وتكوص بعض الكتائب العربية المرتزقة عن القتال . عند ذلك عزم خالد على مناجزة تيودور وعبأ العرب تعبئة بديعة واحكم خطة القتال ، فوضع جانبا من جنوده فى الناحية الشرقية من الميدان ، وقطع طريق الاتصال بين البيزنطيين ودمشق ، واحتل الجبر القائم فوق وادى الرقاد ليسهل عليه عبور هذا الوادى فى سهولة ويسر ، وبذلك حال بين البيزنطيين وبين امكان تراجعهم نحو الغرب .

ثم هجم خالد على البيزنطيين والجاهم الى زاوية تقع بين اليرموك ووادى الرقاد يقال لها الواقوسة ، فانحصروا فيها ، فمن لم يقتل منهم فى الحرب هوى فى اعماق روافد اليرموك طلبا للنجاة ، ومن نجا من الفرق اخذته سيوف العرب الذين فى الناحية الشرقية ، وبهذه الخطة ابيد معظم الجيش البيزنطى ، وتقروا امر الشام لمصلحة العرب وكانت وقعة اليرموك سنة ٦٣٦ م - ١٥ هـ) وعلى اثرها عاد العرب ، فاحتلوا دمشق .

أبو عبيدة بدلا من خالد :

راى الخليفة عمر بن الخطاب على اثر توليه الخلافة ان الشام

نظرا لآحواله الخاصة أحوج الى رجل يوصف بحسن السياسة والادراك منه الى جندى ممتاز ، فأمر على اثر استخلافه بتنحية لخالد عن القيادة على جيوش الشام وولى مكانه صحابيا قديما معروفا بالحزم وحسن السياسة هو أبو عبيدة بن الجراح ، وقدم أبو عبيدة الشام قبيل وقعة اليرموك ، ولكنه ترك امر ادارة الوقعة لخالد لخبرته بملاسات الموقف الحربى . فلما انتهت الوقعة بانتصار العرب باشر أبو عبيدة مهام منصبه فوزع الجيوش توزيعا جديدا ثم سار هو وخالد شمالا ، فاستوليا على بعلبك وحمص وحلب وقنسرين . وائفد أبو عبيدة القائد مياض بن غنم على رأس قوة فرعية فسار شرقا واحتل ارض الجزيرة من العراق دون كبير مقاومة . واصبح الجبل المسمى امانوس ، او جبل اللكام الحد الفاصل لمدة قرون بين الشام وبلاد الدولة البيزنطية .

اتمام فتح فلسطين :

وفى اثناء ذلك ، اى فى مدى سنتى ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، احتل شرحبيل ويزيد مبدن فلسطين الداخلية ومعظم مبدن الساحل احتلالا نهائيا ، غير أن عمرو بن العاص لم يوفق الى فتح بيت المقدس عنوة وكذلك امتنعت قيصرية على العرب زمنا طويلا ، ولعل ذلك راجع الى حصانتها والى غلبة العناصر الموالية للبيزنطيين من سكانها . ومهما يكن من شىء فقد سلم بيت المقدس للمسلمين سنة ٦٣٨ (١٧ هـ) وسقطت قيصرية فى

يد معاوية بن أبي سفيان في أكتوبر سنة ٦٤٠ م (١٩ هـ) .

قدوم عمر بن الخطاب الشام :

ولما استقر العرب في الشام خرج الخليفة عمر الى هـلا
الاقليم الجديد ليتفقد احواله ويرتب اموره فالتقى بأبي عبيدة
وامراء الاجناد بالجابية (شمالي اليرموك) فزودهم بتعليماته
واوامره المتعلقة بمعاملة اهل البلاد وتحصيل الاموال ، ثم انه
ختم رحلته هذه بزيارة بيت المقدس .

وفي عام ٦٣٩ اجتاحت الشام طاعون جارف يعرف بطاعون
عمواس ، ذهب ضحيته أبو عبيدة وكثير من العرب ، فولى عمر
مكانه يزيد بن أبي سفيان ، فلم يلبث أن توفي هو أيضا فولى
عمر بعده اخاه معاوية وظل معاوية اميرا على الشام الى ان
اصبح خليفة على الدولة الاسلامية بأسرها .

فتح مملكة فارس .

استئناف الحرب في العراق :

وقعت غارة خالد بن الوليد على الحيرة في وقت غدت
فيه فارس مضطربة الاحوال . فلما تولى الملك يزيدجود الحكم
واستردت السلطة المركزية بعض كيائها بفضل جهود القائد
ومستم ، رأت الحكومة الفارسية العمل على اخراج العرب من
العراق . وشعر المثنى بن حارثة بخرج موقفه بعد انصراف
خالد الى الشام فأرسل الى المدينة يطلب المدد . وصادف ذلك
بداية عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، فأرسل اليه عمر مدد

تولى قيادته رستم صاحب الأمر والنهى اذ ذاك فى الدولة الفارسية ، وعبر رستم الفرات والتقى بالعرب يقودهم سعد فى سهل القادسية ، وجرت بين الفريقين وقعة عظيمة دامت فيما يروى ثلاثة ايام بلياليها ثم انجلت عن اندحار الفرس وفناء معظم جيشهم وقتل رستم نفسه (٦٣٧ م - ١٦ هـ) .

سقوط المدائن :

كانت معركة القادسية فاصلة فى امر العراق لمصلحة العرب كما كانت وقعة البرموك فى الشام . وانفتحت امامهم سهول العراق بمدنه وقراه الاهلة بالعناصر السامية ، ولم يجد العرب مقاومة تذكر من هذه العناصر فتقدموا نحو « المدائن » عاصمة الاكاسرة التى رحل عنها يزدجرد فى حاشيته واعتصم بجبال ايران . ودخل العرب عاصمة الفرس ، وغنموا غنائم طائلة وشملتهم نشوة الظفر الى أن نههم منها تجمع الفرس عند جلولاء فى اطراف جبال ايران ، فهب العرب لدفع الخطر وانتصروا على الفرس مرة أخرى (ديسمبر سنة ٦٣٧ م آخر سنة ١٦ هـ) وبذلك أصبح العراق كله فى قبضة ايديهم واصبحت جبال زجروس فاصلة بين املاك الفرس التى يسكنها العنصر الايرانى الآرى ، وبين العراق الذى يغلب عليه العنصر السامى .

الاستيلاء على رأس الخليج الفارسى وقيام البصرة والكوفة :

وبينما يفتح سعد وجنوده اواسط العراق وشماله جاء عتبة

لم يكن كافيا لصد هجوم الفرس ، وترتب على ذلك أن هزم
المنثى في وقعة الجسر (٢٦ نوفمبر سنة ٦٣٤) سنة ١٣ هـ .
ثم تحسن موقف العرب في الشام في العام التالي (٦٣٥)
فأخذ الخليفة عمر يعنى بأمر العراق ، لكنه وجد مشقة في
حمل الجند على التوجه الى العراق لانهم كانوا يؤثرون الشام .
واخيرا بعث عمر الى العراق مددا كافيا ، استطاع
به المنثى أن يلقي جيش الفرس وأن ينزل به الهزيمة في وقعة
كبيرة ، تعرف بوقعة البويب (نوفمبر سنة ٦٣٥) . على أنه برغم
هذا النصر لم يستطع المضى في هجومه لقلعة من معه من
الجند بالقياس الى الجيش الفارسي .

فلما تم الأمر للعرب في الشام بوقعة اليرموك الفاصلة ،
تفرغ عمر لحرب فارس حتى هم بأن يسير الى العراق ليدبر
الحرب بنفسه . لكنه عدل عن ذلك نزولا على رأى أهل
الشورى ، وندب للأمر صحابيا قديما وقائدا محنكا هو سعد
ابن أبي وقاص .

وقعة القادسية :

وأفلح سعد في جمع جيش كبير سار به الى العراق وربط
في سهل القادسية على حدود الصحراء وقريبا من الحيرة ،
واتبع في ذلك نصيحة تركها له المنثى الذي توفي من جراح
اصابته في الحرب . وفي اثناء ذلك جمع الفرس جيشا ضخما

ابن غزوان من البحرين بأمر عمر وغزا رأس الخليج الفارسي واحتل ثغر الابله ، وجعل يغزو اقليم خوزستان حتى تم له فتحه .
ولما تم فتح العراق رأى قادة العرب أن لابد من اتخاذ محلتين تكونان معسكرين دائمين خالصين للعرب . وافر الخليفة عمر رأيهم ، فأسست لذلك البصرة على شط العرب جنوبا كما أسست الكوفة قريبا من الحيرة غربى الفرات . وهاجرت القبائل العربية من أنحاء الجزيرة الى كلتا المدينتين ، فغلبت العناصر العربية الشمالية على البصرة ، كما غلبت العناصر العربية الجنوبية على الكوفة ، وسرعان ما نمت المدينتان نموا عظيما . وأضحى لهما أعظم الأثر في مجرى الأحوال العامة للدولة الإسلامية وفي نشأة الأحزاب السياسية والفرق الدينية ، كما نبئت فيهما وازدهرت الحركة الأدبية الإسلامية القديمة ، ومن ثم المذهبان المشهوران ، مذهب البصريين ومذهب الكوفيين في علوم اللغة والنحو ورواية الشعر القديم وعلم الكلام .

انتماء فتح فارس ، وقعة نهاوند :

اعتقد قادة العرب في العراق أنهم لا يأمنون على فتوحهم العراقية مادامت هناك حكومة للفرس تعمل على حربهم واسترداد العراق من أيديهم ، فأرسلوا الى الخليفة يستأذنونه في الانسياح في أرض فارس ، وأذن لهم الخليفة على كره منه . ولذا خرج النعمان بن مقرن من العراق في جيش كبير فالتقى بالفرس في وقعة عظيمة عند نهاوند ، وانتصر انتصارا تاما (٦٤٢ م / ٢١ هـ) .

وفي السنوات التي أعقبت نهاوند استولى العرب كذلك على مدينة الرى وسقطت في أيديهم اقاليم فارس وكرمان ومكران وخراسان واذربيجان . وبات كسرى يزدرجرد شريدا ينتقل فارا من مدينة الى أخرى حتى اغتاله بعض أتباعه بالقرب من مدينة م مرو (٦٥٢ م / ٣١ هـ) وذلك في خلافة عثمان بن عفان .

والخلاصة أن فتوح العرب لايران استغرقت عشر سنوات ، وهى مدة طويلة بالقياس الى المدة التى استغرقتها فتح الشام والعراق . ويرجع هذا الى ان العرب فى ايران قاتلوا شعبا آريا مستمسكا بقوميته وعاداته ، بخلاف الحال فى العراق والشام حيث العناصر السامية المجانسة للعرب أنفسهم . واحتفظ الفرس بطابعهم القومى ولغتهم حتى بعد اعتناقهم الاسلام . ومع خلق علمائهم اللغة العربية فان العربية لم تصبح لغة ايران القومية كما أصبحت فى العراق والشام ومصر .

فتح مصر

بواعث الفتح :

وضح للعرب بعد اتمام فتح الشام أن الخطر على الشام من ناحية مصر شديد ، فمصر تطل على البحرين الكبيرين - الأبيض المتوسط والاحمر - بمينأيه : الاسكندرية والقلازم ، وهى لذلك قاعدة بحرية عظيمة للاسطول البيزنطى ، وفى وسع هذا الاسطول أن يهاجم المدن الساحلية الشامية ، بل أن ينقل الجنود البيزنطية الى المدينة

نفسها بنشبه جزيرة العرب ، ومن ناحية أخرى فإن مصر بلد خصب غنى بالحبوب والخيرات الزراعية المتنوعة ، وهو اقرب الى الحجاز من كل من العراق والجزيرة . فيمكن الاعتماد عليه في امداد الحجاز بالفلال . ولذلك كله اقتضت سياسة الدولة العربية فتح مصر . هذا هو الصحيح ، اما ما يقال من أن مشروع فتح مصر بدأ على كره من الخليفة عمر بن الخطاب فهو قول ضعيف وينبغى الا يؤبه له ، ففتح مصر جاء بعد فتح الشام والعراق ، فهو يقع في المرحلة التي استقرت فيها نية العرب أمة وحكومة على فتح البلاد وإخضاعها لسلطان العرب والاسلام .

أحوال مصر عند الفتح :

كانت مصر في السنوات العشر السابقة على الفتح العربى الاسلامى في حال من الاضطراب الداخلى ، فان الامبراطور هرقل - رغبة منه في ازالة الخلافات المذهبية - أراد ان ينفذ قرارات مجمع خلقدونة التى تقضى بانه سواء إكان السيد المسيح ذا طبيعة واحدة أم طبيعتين فانه ذو ارادة واحدة . وعلى ذلك ولى هرقل على مصر - بعد ارتجاعها من حكم الفرس - رجلا اسمه سيروس وهو أسقف سابق لمدينة فازيس في القوقاز ، وخوله السلطتين الدينية والمدنية فكان بطريركا وحاكما مدنيا .

وقضى سيروس هذه السنوات العشر السابقة على الفتح العربى وهو يحاول ان يحول الكنيسة القبطية الى العقيدة

الجديدة ، فمنع طقوس العبادة القبطية ، واضطهد رجالها أيضا اضطهاد . وكانه لم يكفه ذلك ، فزاد الضرائب على المصريين زيادة فاحشة ، امعانا في مساعدة الامبراطور على سنداد الديون الضخمة التى جرتها حرب فارس على الخزانة البيزنطية ، وقسا كل القسوة فى جمع هذه الضرائب ، مما جعل الرواية القبطية المتأخرة تصور هذا البطريك فى صورة المسيح الدجال . ولاشك ان العرب عرفوا كل ذلك عندما فكروا فى فتح مصر .

المقوقس وعمرو بن العاص :

وسيروس هذا هو الذى تسميه المصادر العربية باسم المقوقس ، وهو الذى عقد معهم المعاهدات التى تم لهم بها أمر مصر . واما فاتح مصر فهو عمرو بن العاص السهمى القرشى وهو صحابى جليل له مواقف مشهودة فى أواخر غزوات الرسول وفتح الشام ، وهو معدود من دعاة العرب لشدة ذكائه وسعة حيلته ، كما أنه قائد محنك وادارى بارع بدليل تديره شئون مصر عقب فتحها .

الشروع فى الفتح : وقعة عين شمس :

خرج عمرو من قيسارية على رأس ٤٠٠٠ مقاتل ، وذلك فى ديسمبر سنة ٦٣٩ م واجتاز الاطراف المصرية دون مقابل . ولخواها من حاميات تحميها ، ثم سلك طريق الساحل ، وهو الطريق الذى سلكه غزاة مصر من اقدم الازمنة التاريخية ، فبلغ الفرما شرقى بورسعيد الحالية ، واستولى عليها عنوة . غير انه

تحاشى ان يتقدم فى شرقى الدلتا حتى يصله من المدينة مدد يكثُر به جيشه ، وجاءه المدد وعدته نحو خمسة آلاف مقاتل بقيادة الزبير بن العوام . وعند ذلك تقدم عمرو عامدا الى رأس الدلتا واشتبك بالقائد البيزنطى تيودور فى وقعة عين شمس (سنة ٦٤٠ - م سنة ٢٠ هـ) فانتصر عليه انتصارا حاسما شرع بعده فى محاصرة حصن بابليون .

حصن بابليون :

كان لهذا الحصن أهمية خاصة تحتم على العرب أخذه ، فهو ذو موقع استراتيجى هام بين مصر السفلى ومصر العليا ، كما انه على رأس الطريق المؤدى الى الاسكندرية ، وفوق ذلك لجأت اليه قلوب المنهزمين فى وقعة عين شمس . ولم يكن مع العرب الادوات التى تؤخذ بها الحصون ، ولذلك طالّت مدة الحصار .

والظاهر أن المقوقس (سيروس) كان اذ ذاك داخل الحصن فأخذ يفاوض عمرا وكتب مشروع معاهدة تنهى الحرب ، ثم وحل الى القسطنطينية لعرض المشروع على الامبراطور هرقل ، لكن الامبراطور استشاط غضبا لنصوص هذه المعاهدة التى ترمى الى تسليم مصر للعرب ، على الرغم من وجود قوة حربية كبيرة فيها وفى الاسكندرية خاصة ، واتهم سيروس بالخيانة وحكم عليه بالنفى .

ثم توفى هرقل ، فوقع نبا وفاته على المحصورين فى حصن

بابلليون وقوع الصاعقة ، لان الحصار أضر بهم . على ان هلك
الخبر شجع العرب ، فحملوا على الحصن حملة صادقة حتى
سقط في ايديهم في ابريل سنة ٦٤١ . وبذلك أصبحوا وقد تمكنوا
من شرقي الدلتا ومن مصر العليا .

الزحف على الاسكندرية :

وعلى اثر ذلك عبر عمرو النيل ، وسار وفرع رشيد قاصدا
الاسكندرية . واستولى في طريقه على نقيوس (في ربيع سنة
٦٤١) . وشرع عمرو في حصار الاسكندرية ، غير انه لم يلبث ان
ادرك حصانتها ، وان تسليمها لم يحن بعد ، فترك عندها قوة
تحاصرها ، وانصرف هو في بقية الجيش للاستيلاء على مواقع
أخرى داخل البلاد .

معاهدة الاسكندرية خريف سنة ٦٤١ م - ٢١ هـ :

وساد الاضطراب حكومة القسطنطينية على اثر وفاة هرقل^{١٠} .
وتقلب الراى القائل بانتهاء الحرب مع العرب في مصر ، واستدعى
سيروس من المنفى ، وأرسل الى مصر لانتهاء الحرب بأحسن
ما يمكن من الشروط . وفي خريف سنة ٦٤١ م - ٢١ هـ ، وعلى
غير علم من اهل الاسكندرية أبرم سيروس المعاهدة النهائية مع
عمرو وكان من شروطها :

١ - ان يجلو الجيش البيزنطى عن الاسكندرية في ميعاد

فايته سنة واحدة من تاريخ عقد المعاهدة .

٢- أن يضمن عمرو لاهل المدينة حريتهم الشخصية وسلامة ممتلكاتهم والحرية التامة في مباشرة شعائهم الدينية ، مع عدم الاخلال بأداء الجزية المقررة عليهم .

ولما حل الميعاد المقرر جلا الجيش البيزنطى عن الاسكندرية في سبتمبر سنة ٦٤٢ ، وتوفى سيروس قبل ذلك ببضعة أشهر من السنة نفسها .

تخطيط الفسطاط ٦٤١ - ٦٤٢ م :

لم يحب عمرو بن العاص أن تظل الاسكندرية عاصمة لمصر في العهد الجديد ، فان الخليفة عمر بن الخطاب كان لا يرى أن يختلط العرب باهل البلاد المفتوحة . وكما حدث في العراق من تخطيط البصرة والكوفة معسكرين للعرب ، اختط عمرو بن العاص في مصر - بموافقة الخليفة - مدينة قريبة من حصن بابليون ، وهى الفسطاط . وغدا لكل قبيلة من القبائل العربية الوافدة على مصر منذ الفتح خطة خاصة بها في العاصمة الجديدة . ونمت الفسطاط وازدهرت في القرون الاسلامية الثلاثة الاولى ، واضحى لجامعها الكبير المعروف بجامع عمرو أثر قوى في قيام الحركة الادبية والعلمية وازدهارها بمصر .

أعمال عمرو في ولايته على مصر :

تولى عمرو بن العاص جميع شئون مصر بعد تمام فتحها فنظم امورها الادارية والزراعية والمالية . ولما تم تسليم الاسكندرية

راى عمرو أن يحمى مصر من ناحية الغرب ، فقاد بنفسه جملة الى برقة واستولى عليها دون مقاومة تذكر في شتاء سنة ٦٤٢ — ٦٤٣ . غير أن الخليفة عمر بن الخطاب قبيل وفاته راى أن يحذر من سلطة عماله الاقوياء أمثال خالد وسعد وعمرو ، فجعل ولاية عمرو قاصرة على مصر السفلى ، ونصب على مصر العليا واليسا الخراج بحيث زادت حصيلته في عهده عما كانت عليه زمن عمرو ، عثمان بن عفان عزل عمرو عن مصر السفلى وجمع مصر كلها لعبد الله بن سعد ، وهو أخو عثمان من الرضاعة .

واشتهر الوالى الجديد بالكفاية في الامور المالية ، فنظم أمر الخراج بحيث زادت حصيلته في عهده عما كانت عليه زمن عمرو لكنه عند ما اغار البيزنطيون على الاسكندرية سنة ٦٤٥ م / ٢٥ هـ واحتلوها وتوغلوا في داخل الدلتا ، عجز عن صدهم . فندب الخليفة عمرا بن العاص لخراجهم من البلاد فحاربهم وأجلاهم عن الاسكندرية عنوة سنة ٦٤٦ م — ٢٦ هـ . ثم عرض عليه عثمان أن يلى امرة الحرب فحسب ، ويترك شئون الادارة لعبد الله بن سعد ، فلم يقبل عمرو ذلك ، فعادت اماره مصر كلها الى عبد الله بن سعد .

الصلح مع النوبة ، ومد الحدود الغربية :

على أن عبد الله بن سعد قام فوق تنظيم الخراج بثلاثة أمور هامة تتصل بمد حدود مصر وتأمينها ، فمن ناحية الجنوب عقد معاهدة مع النوبة نظمت الاحوال عند الحدود الجنوبية ، ومن

تأحية الغرب بسط نفوذ مصر على ما وراء برقة حتى طرابلس ،
ثم انه نجح في ايجاد قوة بحرية مصرية .

قيام البحرية الاسلامية :

الفتوح العربية الكبرى في الشام والعراق ومصر كلها فتوح
برية ، ولم يكن للعرب اذ ذاك أسطول . فلما استقر معاوية في
الشام واستقر العرب في مصر ظهر أن خلو الدولة الاسلامية من
قوة بحرية يعرضها لهجوم الاسطول البيزنطى على المدن الساحلية
في الشام ومصر ، كما حدث للاسكندرية فعلا في سنة ٦٤٥ حين
هاجمها أسطول الروم . لذلك عول معاوية على انشاء أسطول
في الشام وحذا حذوه عبد الله بن سعد فأنشأ أسطولا
بالاسكندرية .

وكان الغرض من انشاء القوة البحرية الاسلامية اول الامر
دفاعياً ، لكنه لم يلبث أن أصبح هجومياً . فان معاوية كان
يعلم بفتح القسطنطينية وأن يكون هو فاتحها ، وتمهيدا لذلك
غزا جزيرة قبرص ، واستولى على جزء منها سنة ٦٤٩/٢٨ هـ .
وفي العام التالي غزا معاوية جزيرة أرواد القريبة من ساحل
الشام ، واستولى عليها .

وقعة ذات الصواري البحرية :

ثم أعد معاوية حملة بحرية على القسطنطينية ، واشترك معه
أقرباها الاسطول المصرى بقيادة عبد الله بن سعد . والتقى الاسطول

العربى المشترك بأسطول البيزنطيين بقيادة الامبراطور قنستانتين الثانى على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى . وكانت بينهما وقعة يسميها مؤرخو العرب « ذات الصوارى » سنة ٦٥٥ هـ / ٢٥ هـ ، وهى وقعة انهزم فيها البيزنطيون وفر الامبراطور الى صقلية . وكان فى وسع معاوية أن ينقض بعدها على القسطنطينية ويفتحها لولا أن وقعت الفتنة بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ، فاضطر معاوية الى مهادنة البيزنطيين ليتفرغ للاحداث الداخلية الجديدة .

فتح قيليقية وأرمينية البيزنطية :

وحارب معاوية جيوش البيزنطيين فى البر فى قيليقية وأرمينية . وسبق لأرمينية البيزنطية أن غزاها حبيب بن مسلمة فى سنة ٦٤٢ من ناحية العراق ، واحتل عاصمتها دوين ، وتقدم منها ، ووصل الى ماوراء القوقاز ، لكن جموع الخزر صدته عن التقدم .

الشواتى والصوائف :

ظل العرب محتفظين بما حصلوا عليه فى أرمينية حتى وقعت الفتنة فى الدولة الاسلامية بمقتل عثمان ، فانصرف المسلمون عن أرمينية وغيرها من الفتوح ، فلما اجتمعت الدولة على خليفة واحد بقيام الدولة الاموية أصبح غزو أرض العدو صيفا وبشدة نظاما مقررا طوال العهد الاموى ، لا يقف الا مدة هدنة أو صلح معقود . واتخذت هذه الغزوات المعروفة بالشواتى والصوائف اتجاها شماليا فى أرمينية وبلاد البيزنطيين بآسيا الصغرى .

(الروم) ، واتجاهها غربيا في شمال افريقية والاندلس ، وذلك بعد فتح هذين القطرين كما سيجيء .

اسباب توقف التوسع العربى الكبير :

تبعنا التوسع العربى الكبير من ابتدائه الى سنة ٦٥٥م/٣٥٥هـ فوجدناه قد شمل الشرق الادنى كله بما فى ذلك مصر وبعض جزائر شرق البحر المتوسط ، وامتد فى آسيا حتى وقف عند نهر جيحون . ثم انصرف العرب عن المضى فى فتوحهم مدة من الزمن وقع فيها من الفتن والاحداث الجسام ما حال دون استمرار التوسع . وهذه الاحداث على وجه الاجمال هى :

مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان :

كان الناقمون على سياسة عثمان يكتبون الى الغزاة فى مختلف الاقاليم يقولون لهم « اقدموا الينا فان الجهاد الحق عندنا » . ووجدت هذه الدعوة من الجنود وقادتهم آذانا مصغية ، فتراجعت الجنود وقادتهم الى الامصار الكبرى ، اى الى البصرة والكوفة والفسطاط ، واخذت تنتقد سياسة العمال والولاة ، ثم تطرفت الى نقد سياسة الخلفاء انفسهم ، والى ارسال الوفود المسلحة الى المدينة لتحمل الخليفة عثمان على اعتزال الحكم ، فلما امتنع التفاهم بين الخليفة وهذه الوفود اقتحموا عليه داره وقتلوه ، وبذلك انفتح باب فتنة لم ينغلق احقابا طويلا ، وتصعدت بسببه وحدة الامة الاسلامية .

الحرب بين على ومعاوية :

وتولى الخلافة بعد عثمان الامام على بن ابي طالب فحاول جمع الشمل ، لكن الجرح الذى اصاب الدولة الاسلامية كان اعمق من أن يداوى بالسرعة التى تمنهاها على ، وازداد الامر تفاقمًا بنشوب الحرب بينه وبين معاوية أمير الشام الذى اعتبر نفسه ولى دم عثمان . ولم تركد ريح هذه الحرب الا بعد أن قتل على بيد بعض الخوارج الذين خرجوا عليه لقبول مبدأ التحكيم بينه وبين معاوية ، وصارت الخلافة الى معاوية سنة ٤١ هـ ، وهى المعروفة باسم عام الجماعة الاول .

معاوية يحاول استئناف حركة الفتح والتوسع :

حاول معاوية استئناف الفتوح الاسلامية ، فهاجم القسطنطينية وغزت جيوشه افريقية ، دون أن تحصل على نتيجة إيجابية ذلك لان معاوية اضطر الى العمل على تلافى ما خلفته الفتنة الكبرى من آثار سيئة فى الدولة الاسلامية ، فلم يستطع أن يركز جهوده كلها نحو الفتوح التى بدأها فى آسيا وافريقية . مثال ذلك أن معاوية لم يحسن اختيار قائد الحملة المتوجهة نحو القسطنطينية ، وكان ذلك سببا من أسباب فشلها . وقتل فى هذه الحملة ودفن عند أسوار القسطنطينية أبو ايوب الانصارى ، الذى نزل النبى عليه السلام فى بيته عندما قدم المدينة مهاجرا . وكان من أسباب فشل هذه الحملة كذلك

ان النار الاغريقية فتكت بالاسطول العربى ، وكان سرها خافيا على العرب فى ذلك الوقت .

الحرب بين الامويين وآل الزبير :

ولما اخذ معاوية البيعة لولاية العهد لابنه يزيد ، اعتبر أهل الحجاز هذه البيعة خروجاً على السنة التى جرى عليها الخلفاء الاربعة من قبل . وادى ذلك الى ثورة الحجازيين بزعامة عبد الله ابن الزبير ، بعد ان بايعوه بالخلافة . وبذلك اندلع لهيب الفتنة الثانية ولا سيما بعد ان تورط يزيد فى أمر الحسين بن على ومقتله . ووقعت حروب دامية بين الامويين وآل الزبير فى الحجاز والشام والعراق ، وطال أمد هذه الحروب حتى عام ٧٣هـ حين تم النصر النهائى للخليفة الاموى عبد الملك بن مروان على آل الزبير ، ولذلك يعرف العام المذكور بعام الجماعة الثانى .

وفى أثناء تلك الفتن قوى شأن الخوارج ، وتعددت فرقهم واشتد خطر المتطرفين منهم على الدولة الاموية ، فاضطر الخلفاء الامويون الى مكافحتهم فى سهول العراق وبلاد العرب وجبال ايران ، حتى قضوا عليهم على يد الحجاج بن يوسف والمهلب بن أبى صفرة ، واستغرق ذلك بضع سنين أخرى بعد انقضاء أمر آل الزبير .

استئناف حركة الإصلاح والتوسع :

ثم استقبلت الدولة الاسلامية عهداً خالياً من الحروب الداخلى ، فقام الخليفة عبد الملك بن مروان باصلاحات سمية

هامة اذ نقل دواوين الدولة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية وضربت العملة الاسلامية . والى جانب هذه الاصلاحات امكن الدولة في عهد الوليد بن عبد الملك ان تستأنف حركة الفتح والتوسع في الشرق والغرب حتى بلغت مساحة الدولة ضعف مساحتها قبل عهده ، وكان لها شأن عظيم في نمو الحضارة الاسلامية .

فتح اقليم ما وراء النهر :

يمتد هذا الاقليم التاسع من نهر جيحون حتى حدود الصين وهو المعروف الآن بتركستان او اواسط آسيا ، وتسكنه قبائل الترك التي خضعت للنفوذ الايراني وتأثرت بالحضارة الايرانية . وعهد الحجاج بن يوسف والى العراق بغزو هذا الاقليم وفتحته الى قائد من اكبر قادة العرب هو قتيبة بن مسلم الباهلي . فجعل مدينة مرو قاعدة له ، وصار يغزو منها كل سنة مدن ماوراء النهر واقاليمة ، ففي سنة ٨٧ هـ تم له فتح بلخ وطخارستان وقرغانه ويكند ، واستولى على بخارى سنة ٨٩ هـ ، وسمرقند سنة ٩٣ هـ ، وكشغر سنة ٩٥ هـ ، عند حدود الصين . ووقف الفتح عند هذا الحد . وانزل قتيبة قبائل العرب في هذه الاقاليم ، فساعد ذلك على انتشار الاسلام واللغة العربية فيها ، كما ساعد على قيام العلاقات التجارية بين الدولة الاسلامية وبين بلاد الصين مما كان له اثر ملحوظ في نمو الحضارة الاسلامية وفي دخول الدين الاسلامي الصين .

فتح بلاد السند :

وبلاد السند هي الاقليم التاسع الذى يرويه نهر السند وروافده الكثيرة ، وتسكنها قبائل هندية متعددة عليها زعماء أو ملوك متنافسون متعادون .

وانتهز الحجاج بن يوسف فرصة اعتداء بعض قراصين السند على سفينة عربية فيها نساء عربيات ، واتخذ من ذلك حجة للغزو ، وعهد الى ابن عمه محمد بن القاسم الثقفى بغزو هذا الاقليم . وكان محمد بن القاسم فتى دون العشرين لكنه حوى من صفات النبل والفتوة ما جعل الحجاج يكل اليه هذا الامر العظيم . وأمدّه الحجاج بقوة بحرية وأخرى برية . ووصلت الحملة الى ثغر الديبل ، وموضعه مدينة كراشى الحالية ، فاستولى محمد بن القاسم على الثغر عنوة ، ثم سار مصعدا في النهر يستولى على المدن ويغنم ما فى معابدها البوذية من نفائس . وما زال ابن القاسم يسير شمالا حتى بلغ مدينة الملتان سنة ٩٦ هـ وهى أقصى ما وصل اليه .

وهذه الحملة طريفة من حيث انها انشأت بين الدولة الاسلامية وبين الهند علاقات نمت على الزمن ، وكان لها ابعاد الآثار فى حضارة الهند والحضارة الاسلامية بوجه عام .

محاولة العرب فتح القسطنطينية :

كانت المحاولة الثالثة والاخيرة ضد القسطنطينية ٩٦-٩٩ هـ

(٧١٦ - ٧١٨ م) . وذلك ان الوليد بن عبد الملك اعاد قبل موته حملة برية بحرية عظيمة لذلك الغرض لكنه توفي قبل انفاذ هذه الحملة . فلما تولى بعده اخوه سليمان بن عبد الملك ، سير الحملة وجعل عليها اخاه مسلمة بن عبد الملك . وكان امبراطور الدولة البيزنطية اذ ذاك اليون الايسورى ، وهو رجل ذو مكر ودهاء فاستطاع ان يخدع مسلمة بالمطاوله حيناً وبالحيله حيناً آخر حتى هجم الشتاء ، ونفذت اقوات الجيش الاسلامى ، ثم افرى الامبراطور بمسلمة شعب البلغار ، واعمل فى الاسطول العربى النار الاغريقية ، فباد الاسطول كله تقريباً وهلك اكثر من ثلثى الجيش ، واضطر مسلمة الى الرجوع فى حال يرثى لها . واشتهر فى حوادث تلك الحرب رجل يدعى عبد الله البطال عرف بشجاعته ومغامراته ، فأصبح بطل قصة شعبية كبيرة تسمى قصة « ذات الهمة » ، كما اصبح رمز البطولة الاسلامية المجاهدة ضد البيزنطيين فى العهد التركى العثمانى . هذا ماكان من امر الفتوح الاسلامية الكبيرة فى الشرق ، ويليها هنا ما فتح المسلمون فيما اصطلح المؤرخون على تسميته باسم فتوح المغرب .

١ - شمال افريقية :

كان شمال افريقية من حدود مصر الغربية الى ساحل المحيط الاطلنطى جزءاً من املاك الدولة البيزنطية ، وسكانه الاصليون هم القوم المعروفون بالبربر ، ينزلون السهول والجبال والصحارى الجنوبية بقبائلهم المتحضرة والمبتدية . وسكنت بالمدن الساحلية

جاليات يوفانية ولاتينية ، اما اليهود فسكنوا في حواضر المغرب وبواديه على السواء . ومنذ ايام الدولة الرومانية القديمة ، وازيام حروب جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية في القرن السادس الميلادي ، اشتهر البربر بالشجاعة وحب الحرب ، كما اشتهر نصارى المدن الساحلة بكثرة الانقسامات الدينية . ثم ان البحرية البيزنطية غدت ضعيفة بوجه عام ، بعد ان انحصر نفوذ بيزنطة في المدن الساحلية دون الجهات الداخلية التي تنزلها قبائل البربر ، وبعد ان استولى عمرو بن العاص على اقليم برقة ، واصبحت مدينة برقة نفسها قاعدة للعرب يعتمدون عليها في غزو ما وراءها من اقطار المغرب . وترددت غارات العرب وغزواتهم بعد ذلك على طرابلس وافريقية (تونس) والواحات الجنوبية ، وهي فزان وودان وغدامس ، في الثلاثين سنة التي اعقبت فتح عمرو لبرقة . وجرت هذه الغزوات على غير خطة مرسومة ، وتمخضت عن اتخاذ مدينة القيروان - التي انشاها عقبة ابن نافع في افريقية في ولايته الاولى (٥٠ - ٥٥ هـ) - قاعدة ثابتة بعد برقة . واطلق العرب حوالى ذلك الوقت اسم المغرب على شمال افريقية كله ، وقسموه جغرافيا الى ثلاثة اقسام ، وهي المغرب الادنى ، والمغرب الاوسط ، والمغرب الاقصى .

مرحلة الفتح المنظم :

ثم ولى معاوية على المغرب ابا المهاجر دينار سنة ٥٥ هـ وبتوليته

دخلت الحرب في المغرب دورا جديدا ، اذ كان ابوالمهاجر ذا حنكة سياسية ونظرة في الامور صائبة ، فادرك ان البيزنطيين لا البربر هم العدو ، واجتهد ان يفهم البربر ان من مصلحتهم ان يكونوا مع العرب دون البيزنطيين . وقبل البربر هذه الدعوة لما بينهم وبين العرب من وجوه شبه قوية . فاسلم كسيلة زعيم البربر المتحضرين المعروفين بالبرانس ، واسلم معه قومه . واستطاع ابو المهاجر ان يزحف ومعه كسيلة الى تلمسان في المغرب الاوسط ويفتحها سنة ٦٢ هـ .

غير ان السياسة الحكيمة التي اتبعها ابو المهاجر لم يسر عليها خلفه عقبة بن نافع الفهري الذي تولى المغرب (٦٢ - ٦٣ هـ) من قبل يزيد بن معاوية . وكان عقبة رجلا فيه غيرة شديدة على الدين وفيه عنف وشدة ، وبينه وبين ابي المهاجر عداوة قديمة ، فبدأ عمله بان يقتل ابا المهاجر ومعه كسيلة ، وصار يأخذهما معه في غزواته مكبلين في الحديد ، وواقع كذلك بكثير من قبائل البربر ، بحجة انها ارتدت عن الاسلام . واسعف الحظ عقبة بن نافع اول الامر فدفع بجيشه حتى بلغ ساحل المحيط فيما يروى ، لكنه لم يحسب حسابا لخط رجعتة ، فتمكن كسيلة من الفرار ومن اثاره البربر ، وهاجم عقبة وهو في طريق عودته ، ونشب بين الرجلين قتال عنيف عند تهودا قرب بسكرة ، فقتل عقبة ومزقت القوة التي كانت معه ، وفيها عدد غير قليل من الصحابة . واقام فيها بعد على قبور اولئك القتلى مسجد عرف

بمسجد سيدى عقبة ، واصبح هذا المسجد مزارا من جميع
اقطار المغرب حتى العصر الحاضر . وخلا الجو لكسيلة فدخل
القيروان سنة ٦٤ هـ ، وظل زعيم البربر خمس سنوات ، وذلك
لانشغال الدولة الاموية في تلك السنوات بالفتن التى اندلع
لهيها في الشرق ، ولم يستطع زهير بن قيس البلوى الذى تولى
شئون العرب بعد عقبة ان يوقف كسيلة لقلعة ما تبقى بشمال
افريقية من الجيوش العربية .

زهير بن قيس البلوى :

فلما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان اهمه امر المغرب ، ولم
يشتظر حتى يتم له النصر على آل الزبير ، بل ارسل مددا الى
زهير بن قيس ، وبهذا المدد استطاع زهير ان يسترد القيروان ،
ويوقع بالزعيم كسيلة وبمن معه من البيزنطيين قرب القيروان سنة
٦٩ هـ . غير انه اثناء عودة زهير اعترضته في برقة قوة
للبيزنطيين جاءت في البحر نجدة لكسيلة ، واوقعت به وبجيشه
وظل امر المغرب الادنى او افريقية معلقا حتى فرغ الخليفة
عبد الملك من امر آل الزبير ، فولى سنة ٧٨ هـ على المغرب حسان
ابن النعمان الفسائى ، وامده بجيش كبير من عرب الشام بمعاونة
الاسطول المصرى في البحر .

ويعتبر حسان الفاتح الحقيقى للمغرب ، اذ اتبع سياسة
ابى المهاجر من حيث اصطناع البربر والاستعانة بهم على

البيزنطيين ، وتمكن بذلك من الزحف الى قرطاجنة والاستيلاء عليها وتخريبها سنة ٧٩ . وبذلك انتهى امر البيزنطيين في افريقية ، وأخذت العناصر اليونانية واللاتينية تهاجر من هذا القطر الى صقلية واسبانيا .

الكاهنة داهيا :

غير انه سرعان ما دهمت حسان امرأة يسميها العرب داهيا ويلقبونها بالكاهنة . وهي زعيمة البربر البدو الذين يقال لهم « البتر » . وكانت داهيا تتكهن وتتنبأ بالحوادث ، فالتف حولها كثير من البربر من قومها وغيرهم ، وجرت بينها وبين حسان وقعة هزم فيها حسان ، واضطر الى التراجع الى برقة ، حيث ظل يرقب الكاهنة وحركاتها وسرعان ما سئحت له الفرصة ، ذلك ان الكاهنة وقومها بعد انتصارها على حسان اندفعوا يغيرون على المدن العامرة ويخربونها ظنا منهم ان ذلك مما يحمل العرب على ترك المغرب . وشكا اهل المدن من البربر ومن معهم من بقايا البيزنطيين تلك الحال الى حسان ، وحثوه على حرب الكاهنة ، فنهض لقتالها ونشبت بين الفريقين وقعة كبيرة بمكان يقال له « بئر الكاهنة » قرب قابس ، حيث قتلت الكاهنة وهزم جيشها وذلك سنة ٨٤ هـ . وبذلك كسرهم شوكة البربر في المغربين الادنى والاوسط .

وانصرف حسان بعد ذلك الى اصلاح شئون البلاد ، فاستمال زعماء البربر الى الاسلام ، فاسلموا هم واقوامهم وحسن

اسلامهم ، وأثرهم حسان مع العرب في الجيش ، وأنشأ في تونس دار صناعة كبيرة لعمل السفن ، كما دون الدواوين ووضع الخراج على نسق مايجرى في الاقاليم الاسلامية الشرقية .

وتولى امر المغرب موسى بن نصير ، بعد حسان ، فجرى على نهجه واتبع سياسته ، فجزا بالبربر الذين أسلموا قبائل المغرب الاقصى ونشر فيهم الاسلام .

والخلاصة أن العرب لا قوا في فتح المغرب اشد مقاومة لقواها في فتوحهم وذلك لشجاعة البربر ، وتأيد البيزنطيين لهم ، وصعوبة الاقليم من الناحية الطبيعية . فلما اتبع العرب سياسة التفاهم مع البربر واجتذابهم الى الاسلام ، دان لهم أمر المغرب ، وأصبح البربر قوة هائلة لم يلبثوا أن استفادوا منها في فتح قطر آخر عظيم هو أسبانيا .

فتح أسبانيا (١)

ولم يمتنع على موسى بن نصير في فتوحه في شمال افريقية غير مدينة « سبتة » الواقعة على الساحل الجنوبي من خليج الزقاق قبالة الصخرة التي تعرف اليوم بجبل طارق . وكانت

(١) العرب تقول الاندلس ، وهو لفظ مأخوذ من اسم القبيلة الجرمانية التي غزت اسبانيا في القرن الخامس الميلادي ، وهي التي تعرف باسم الواندال ، وخلفت اسمها في الاقليم الجنوبي الخصب الذي لا يزال يعرف الى اليوم بأندلسيا .

سبته هذه تابعة لدولة القوط الاسبانية ، وهذا سر امتناعها على موسى . اذ كان عليها رجل يقال له يليان يمت بصلة المصاهرة الى البيت المالك القوطى الجرمانى فى اسبانيا ، ويحافظ على مدينته اشد المحافظة ، فولى موسى موله طارق بن زياد على طنجة وعهد اليه بمراقبة الحال فى سبته .

ولم يمض زمن طويل حتى تغيرت الحال اذ اقبل يليان الى طارق يطلب اليه غزو اسبانيا ، بعد ان كان من أشد المدافعين من مدينته . أما سر هذا التحول فهو أن مملكة القوطيين عانت أوائل القرن الثامن الميلادى اضطرابا عاما بسبب التنافس من أجل العرش حتى استوى عليه آخر الامر رجل ليس من البيت المالك بل من قادة الجند يقال له رذريق . وكان يهود اسبانيا على عهد القوطيين يعانون من الاضطهاد اشكالا والوانا ، مما جعلهم يتربصون بدولة القوط الدوائر ويتمنون زوالها . ثم ان النظام الاجتماعى فى الدولة القوطية كان فاسدا ، اذ انقسم الناس فريقين اقلية من النبلاء ورجال الدين لها الحرية والسيادة والثروة ، واكثرية من الاقنان رقيق الارض والعبيد محرومة من كل الحقوق تقريبا . كل هذه الامور مما يمهّد عادة لحدوث الانقلابات العامة أو لغزو يأتى من الخارج . غير أن السبب المباشر فى فتح العرب الاندلس هو على الأرجح استنجاد الحزب الموالى للأسرة المالكة الشرعية بالعرب ، رغبة فى رد العرش الى أهله .

وقعة وادى لكه :

وقد أنهى طارق الى موسى بن نصير ما عرضه عليه يليان ، فكتب موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه في فتح الاندلس ، فاجابه الى ماطلب على ان يلزم جانب الحيفة .

وعلى ذلك سير موسى مولاة طارقا على رأس جيش يبلغ ٨٠٠٠ مقاتل اكثرهم من البربر واقلهم من العرب ، بعد أن حصل على اذن الخليفة الوليد ، وبعد أن اختبر حال الساحل الجنوبي الاسباني بسرية استكشافية .

ونزل طارق بالصخرة التى عرفت فيما بعد بجبل طارق . ثم تحول منها الى الجزيرة الخضراء . وكان رزريق فى غزاة له فى الشمال ، فعاد مسرعا نحو الجنوب ووقعت الوقعة الفاصلة بينه وبين طارق على وادى لكه الذى يعرف اليوم بواى صلاذ ، وهو بين البحيرة ومدينة شذونة سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م . فانتصر طارق انتصارا تاما وقتل رزريق فى المعركة وقيل بل نجا وقتل فى وقعة اخرى .

وتسامع اهل شمال افريقية بهذا النصر ، فأسرع كثير منهم الى طارق لينالوا شرف الفتح وما يعقبه من المغانم . فنظم طارق جيشه من جديد ، ثم زحف ومعه يليان الى مدن شذونة وقرمونة وآسجة فاستولى عليها . وكلما أخذ طارق مدينة ترك بها حامية من جيشه ومعها نفر من اليهود الذين رحبوا بالفاتحين

العرب ، وراوا فيهم منقذين لهم من الاضطهاد الذى كانوا فيه .
ولم يشأ طارق أن يترك للعدو فرصة للراحة والاستعداد ،
فوجه من أسجة فصائل الى قرطبة ومالقة وغرناطة ومرسية
فتحت كلها ، ثم زحف هو فى عظيم الجيش الى طليطلة عاصمة
القوط فدخلها عنوة . وبذلك لم يكد ينقضى صيف سنة ٧١١ م
حتى كان طارق قد فتح ما يقرب من نصف أسبانيا .

انتقال موسى الى أسبانيا وتولييه أمر الفتح :

وفى أثناء ذلك جهز موسى جيشا عدته ١٨٠٠٠ مقاتل من
العرب والبربر ، وسار به الى أسبانيا . ولاشك أنه فعل ذلك
لأنه رأى أن طارقا قد أوغل فى أرض العدو وخاف أن يقطع
عليه خط الرجعة ، فنهض لتلافي كارثة ربما تحل به وعبر موسى
خليج الزقاق سنة ٩٣ هـ . وسار يريد طليطلة من غير الطريق
التي سلكها طارق ، فبلغ اشبيلية واستولى عليها ، وكذلك ماردة
بعد حصار وقتال عنيف ، ثم بلغ طليطلة . وبعد ذلك سار
موسى وطارق معا حتى تم لهما فتح اقليم ارغونة - وقاعدته
سرقسطة ، ثم اقليم قطالونية وبلنسية . ثم ارتد القائدان على
أثارهما قاصدين الجهات الشمالية الغربية الوعرة التي آوهم
اليها فلول القوط . وهنا شاءت الافئدة ان تصرف العرب عن
اتمام فتح تلك الجهات التي ناهضت العرب أجيالا طويلا فيما
بعد ، حتى تمكنت فى النهاية من اخراجهم من الاندلس كلها .

عودة موسى وطارق الى المشرق :

ذلك ان الخليفة الوليد بن عبد الملك راعته فتوح طارق وموسى ، وأقلقه مابلغه عن رغبة موسى في عبور جبال البرانس وبلوغ الشام من طريق جنوب أوروبا بعد فتح القسطنطينية التى عجز العرب عن فتحها من المشرق . فكتب الخليفة الوليد الى القائدين بوقف القتال والقدوم عليه ، فصدعا بالامر . وعاد موسى من الاندلس بعد ان استعمل عليها ابنه عبد العزيز الذى فتح السواحل الشرقية ، كما استعمل على شمال افريقية ابنائه الآخرين . ثم سار موسى ومعه من السبى والغنائم القوطية مالم يسمع بمثله في تاريخ الفتوح الاسلامية ، فلما بلغ فلسطين طلب اليه سليمان بن عبد الملك - وكان ولي عهد الخلافة - ألا يعجل بالقدوم على دمشق ، بسبب اشتداد المرض على الخليفة الوليد وقتذاك . لكن موسى عجل السير برغم أوامر ولي العهد ، وقدم دمشق والخليفة الوليد حى ، فأحسن لقاءه واستولى على مامعه من الاموال . ثم لم يمض غير أيام حتى توفى الوليد وتولى سليمان ، فأقبل الخليفة الجديد على موسى يستقصى حسابه ، والزمه أموالا جساما عجز عن أدائها واضطر الى سؤال قومه من العرب ، وما زال يعانى الدلة والفاقة حتى توفى بوادى القرى من ارض الحجاز سنة ٩٨ هـ . أما طارق فانه على ما يظهر دخل في غمار الناس ونسى أمره .

مما تقدم يتضح ان الحزب الموالى للأسرة القوطية المالكة فى

اسبانيا لم يترك ما آمله من المسلمين ، ماعدا ان يلبان وأفراد البيت القوطى صاروا أصحاب اقطاعات واسعة قنعوا بها ، واخلدوا الى المعيشة الهادئة الوداعة فى ظل الولاية الاسلامية الجديدة فى الاندلس .

غزوات العرب فى بلاد غاليا (١) (فرنسا)

اسباب هذه الغزوات :

حفز ولاة الاندلس بعد موسى بن نصير الى غزو غاليا الحلم الذى راود خيال موسى بن نصير من عبور جبال البرانس وبلوغ الشام من طريق اوروبا الجنوبية ، وفوق ذلك فان شهوة التوسع فى السلطان ، وشهوة الاستحواذ على النفائس والاموال المذخورة فى الاديرة والكنائس ، كل ذلك مما جعل ولاة الاندلس يحرصون على هذا الغزو . وزادهم حرصا وتصميما ماكانت تعانيه بلاد غاليا آنئذ من الانقسام والاضطراب ، فالحروب متصلة بين الملوك الميروفنجيين أصحاب معظم غاليا ودوقات اكويتانيا فى الجنوب الغربى منها .

اهم الغزوات :

واول وال اندلسى عبر البرانس وغزا غاليا هو السمع بن مالك الخولانى (١٠٠ - ١٠٢ هـ) فانه غزا اقليم سبتمانية - او اقليم

(١) هذا هو الاسم الرومانى القديم (Gallia) لفرنسا الحالية ، اما اسم فرنسا فاشتقاه من اسم قبائل ملوكها ، اى الفرنجة الميروفنجيين .

المدن السبع. بين غاليا واسبانيا وتقدم السماح اليه اربونة عاصمة ذلك الاقليم فحاصرها ثم استولى عليها ، ثم سار شمالا بغرب ودخل دوقية اكويتانيا وحاصر مدينة طلوثة (تولوز) . ونشبت بين الفريقين وقعة كبيرة قتل فيها السمع وهزم جيشه . وولى الجند على انفسهم عبد الرحمن الغافقى فتراجع بفلول الجيش الى اربونة .

وتجددت المحاولة فى عهد الامير عنيسة بن سحيم الكلبى (١٠٣ - ١٠٧) فعبر البرانس واستولى على مدينة قرشونة وسائر مدن سبتمانية ، ثم سار وساحل البحر المتوسط مشرقا حتى بلغ نهر ردونة (الرون) ، فاتبعه مصعدا حتى بلغ مدينة ليون فاستولى عليها ثم دخل عنيسة اقليم يرغونة (برجندية) وأمعن فيه حتى وصل الى مدينة أوتون ، على ان اهل البلاد قطعوا عليه خط رجعتة وناوشوه القتال فقتل عنيسة كذلك ، وتراجعت فلول الجيش الى اربونة .

وقعة بلاط الشهداء أو تور - بواتييه :

ثم تجددت المحاولة مرة أخرى فى ولاية عبد الرحمن الغافقى (١١١ - ١١٤ هـ) ، اذ شهد هزيمة الجيش الاندلسى عند طلوثة ، وأراد ان يمسح عارها فعبر البرانس ، ومضى حتى استولى على مدينة برديل (بردو) ثم عبر نهري جارون ودردون ، وتقدم الى مدينة بواتييه وركز علم بنى امية الابيض امام اسوارها .

وادم شارل مارتل وزير الدولة المروفنجية في غاليا اهمية الحرب وخطر العرب فتقدم في جيش جرمانى لدفع الخطر الداهم . واخيرا تراءى الجيشان في متسعين مدينتى تور وبواتيه ، فانشب عبدالرحمن الغافقى الحرب ، فانطلقت خيل المسلمين على صفوف الفرنجة المرصوة فاثرت عليها تأثيرا كبيرا . غير ان حركة التفاف حول احد جناحى المسلمين بغية الاستيلاء على معسكرهم بما فيه من المؤن والفنائم أدت الى تخلى كثير من الجند الاسلامى عن مواقفه ، للمحافظة على الاموال والفنائم . وعند ذلك ضاعف الفرنجة جهودهم ، فحاول عبد الرحمن الغافقى تلافى الحال ، واستهدف للعدو فخر قتिला . ثم حجز الليل بين الفريقين ، فلم يجد العرب بدا من الانسحاب تحت جنح الظلام تاركين خيامهم واثقالهم (١١٤ هـ ، ٧٣٢ م) .

تلك وقعة تور - بواتيه في التواريخ الاوروية ، او وقعة بلاط الشهداء في المراجع العربية . ويعلق عليها المؤرخون الاوروبيون اهمية كبيرة ، ويرونها من الوقائع الفاصلة في التاريخ الاوروبى لانها صدت تيار الفتح الاسلامى من غرب اوروبا ، ومهما يكن من شئ فلا شك ان هزيمة العرب في بلاط الشهداء غربا وارتدادهم عن القسطنطينية شرقا ، وضع حدا لمحاولتهم غزو اوروبا من هاتين الجهتين ، فان كان ولا بد فليكن الغزو من الوسط : من ناحية مصر وافريقية .

فتح جزائر البحر الابيض المتوسط

وجنوب ايطاليا

بدأ متروك غزو أوروبا من الوسط زمن الخلافة العباسية ببغداد ، على يد جماعة كبيرة من مهاجري الاندلس الذين استولوا على الاسكندرية بقيادة زعيمهم ابي حفص عمر بن شعيب سنة ٨١٨ - ٨١٩ م ، وأقاموا بها حكومة شبه جمهورية مدة ست سنوات ، وذلك في اوائل عهد الخليفة المأمون . فلما فرغ المأمون من امور المشرق بعث عبد الله بن طاهر واليا على مصر ، فحاصر الاسكندرية حتى عرض عليه الاندلسيون أن يجلو عنها ويسروا الى اقريطش (كريت) ، على أن يعينهم الامير على ذلك . فأجابهم عبد الله بن طاهر الى طلبهم من المؤونة والذخيرة ، وركبوا البحر في اربعين سفينة بقيادة زعيمهم ابي حفص ، ونزلوا ببعض مرافق اقريطش دون أن يجدوا مقاومة تذكر من الاهلين الذين تقموا على سادتهم الاباطرة البيزنطيين ظلمهم واضطهادهم . ثم اختط أبو حفص سنة ٢١٢ هـ مدينة اتخلها مقرا لحكومته ، وأحاطها بخندق ، ومن ثم عرفت هذه المدينة باسم كنديا وهو لفظ محرف عن كلمة الخندق العربية .

وأخذ أولئك المسلمون الاندلسيون يغزون الجزر القريبة من اقريطش ، ثم وسعوا نطاق غزوهم في بحر ايجة شرقا وغربا ، وحاولت الدولة البيزنطية غير مرة ارتجاع اقريطش وطرد العرب منها ، فباعت حملاتها كلها بالفشل ، وذلك لضعف البحرية

البيزنطية اذ ذاك ، ولان مسلمى اقريطش كانت تصلهم الامداد
تباعا من مصر . واستمر حكم الجزيرة فى ذرية ابنى حفص الى
ان تمكن البيزنطيون اخيرا من ارتجاعها فى منتصف القرن
الرابع الهجرى .

وامتدت فتوح المسلمين الى جزيرة صقلية ، وهى كذلك
تابعة للامبراطورية البيزنطية ، والسبب المباشر لفتحها ان قائدا
بحريا من قادة البحرية البيزنطية فى الجزيرة ، واسمه يوفيموس ،
اوفيمى فى المراجع العربية حدثته نفسه بالخروج على الدولة
والتلقب بلقب امبراطور . ولكنه لم يستطع بالقوة التى اطاعته
ان يمضى فى التمرد ، فلجأ الى زيادة الله الاغلبى امير القيروان
وعرض عليه ان ينصره فاذا تم له ملك صقلية ادى اليه الجزيرة .

ورأت حكومة القيروان الفرصة سانحة لتملك الجزيرة الكبيرة
ذات الموقع الجغرافى الممتاز ، فاعدت حملة بحرية راست عليها
قاضى القيروان ، اسد بن الفرات . وكانت مؤلفة من ١٠٠٠٠ رجل
واجل ، ٧٠٠ فارس وتقلها مائة سفينة ، فوصلت شواطئ
صقلية ٣١٢ هـ - ٨٢٧ م . ثم وقع شجار بين بعض الجنود
المسلمين وجند فيمى ، فانتهاز هذه الفرصة قائد الحامية
الامبراطورية واسمه فى المراجع العربية بلاطة وهاجم جيش اسد
ابن الفرات ، دون ان ينتصر عليه .

ثم تحرك اسد نحو سرقوسة وحاصرها برا وبحرا ، فأوعى

الامبراطور ميخائيل الثانى الى حكومة البندقية ان تمدها بنجدة
لهجزه عن القيام بذلك وقتذاك ، لكن نجدة البنادقة لم تصنع
شيئا ، بالقياس الى الطاعون الذى تفشى فى الجيش الاسلامى
عند سرقوسة ، وكان من جملة ضحاياه القاضى اسد بن افرات
نفسه ، ولذا تراجع المسلمون عنها سنة ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م . ثم
خف الطاعون ، فتحرك الجيش الاسلامى بعد أن تفرع فرعين ،
فسار أحدهما غربا واستولى على جرجنت ، والآخر الى
قصريانة . وفى تلك الاثناء وردت حملة أرسلها الامبراطور
ميخائيل الثانى أخيرا نجدة لسرقوسة ، فحاربت المسلمين حتى
اجلتهم عن كل المواقع التى احتلوها ماعدا مازر ومينو . وكان من
حسن حظ المسلمين أن وردت عليهم نجدة من افريقية
والاندلس ، وبذلك استطاعوا أن يحاربوا الحملة الامبراطورية
ويهزموها ، وان يزحفوا الى مدينة بلرم ويستولوا عليها خريف
سنة ٢١٦ هـ ، ٨٣١ م ، وهى قاعدة حربية هامة وميناء بحرى
ممتاز ، ولذلك يعتبر استيلاء المسلمين عليها نهاية المرحلة الاولى
من مراحل فتحهم صقلية ؛ بدليل اعلان حكومة القيروان بأن
مافتح من صقلية اقليما اسلاميا وشروعها فى تنظيمه اداريا .

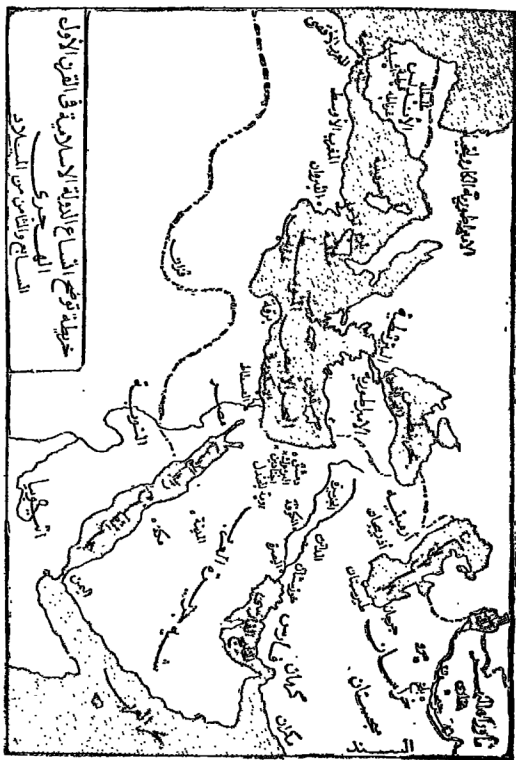
أما المرحلة الثانية فتنتهى باستيلاء المسلمين على مسينا ، اذ
أصبحوا ولهم السيطرة على غرب الجزيرة فوقأنهم يملكون المدينة
الرئيسية فى الشمال الغربى ، أى بلرم . وبعد سنوات قلائل
استولى المسلمون على رجوسة ، وبذلك حصلوا على موقع

ينفذون منه الى الجنوب الشرقى للجزيرة . واخيرا فتح المسلمون
أمنع مدن صقلية وهى قصر يانه سنة ٨٥٩ م ، وكان فتح تلك
المدينة الخطوة الحاسمة فى فتح الجزيرة .

وراع حكومة القسطنطينية سقوط قصر يانه ، فجردت حملة
بحرية قوية مؤلفة من ٣٠٠ سفينة حربية ، ووصلت هذه الحملة
الى سرقوسة . غير ان المسلمين زحفوا الى الجيش الذى انزلته
هذه الحملة المذكورة ، وانزلوا به الهزيمة على مقربة من سرقوسة .
ثم استولى المسلمون على مواقع ثانوية لم تكن سقطت بعد ،
وختموا كل ذلك بالاستيلاء على سرقوسة فى عهد الامبراطور
باسيل الاول ، فتم لهم بذلك فتح صقلية كلها .

فتح جنوب ايطاليا :

ولم تكد تمضى عشر سنوات على مشروع فتح المسلمين صقلية
حتى أخذوا يتطلعون الى فتح جنوب ايطاليا ، وكما ان الحافز
لهم على غزو صقلية جاء من صقلية نفسها فكذلك جاء الحافز لهم
على غزو جنوب ايطاليا من اصحاب جنوب ايطاليا . حين
تحاربت اماره نابلى ودوقية بنفنت اللمبردية ، وطلبت نابلى العون
على عدوها من حاكم بلرم العربى . ولبى هذا الحاكم الدعوة ،
وارسل اسطوله لنجدة نابلى ، ولم يلبث المسلمون ان اتبعوا ذلك
بالاستيلاء على برنديزى ، وبدأوا ينظمون فتوحهم الجديدة
(٨٤٠ م) . وهنا تدخلت البندقية بايعاز من حكومة القسطنطينية ،
لان تطرق البحرية الاسلامية الى البحر الادرياتي يهدد سلامتها ،



فأرسلت همددا من سفنها الحربية الى خليج تارنتم . غير أن السفن الاسلامية استطاعت أن تتغلب على هذه الحملة ، بلا استولى المسلمون على ثغر بارى كذلك سنة ٨٤١ م . وهنبا أدركت اماره نابلى خطر المسلمين ، فكونت حلفا من الامارات بجنوب شبه جزيرة ايطاليا لوقف ذلك الخطر . وأدرك البابا جريجورى الرابع كذلك أن المسلمين سوف يطرقون رومية عاجلا أو آجلا ، ولذلك انشأ حولها سورا وخندقا . وصح ما توقعه البابا قبل أن تمضى على وفاته مدة طويلة وذلك حين ظهر المسلمون أمام أسوار رومية سنة ٨٤٦ م ، فصددهم حاكم سبوليتو بعد أن انتهبوا كنيسة القديسين بولس وبطرس ، وكانتا واقعيتين خارج الاسوار . على أن تهديد العرب لرومية ، ورغبة أمير نابلى وامبراطور القسطنطينية واحلافهما فى القيام بعمل مشترك ازاء العرب حرك الامبراطور الجرماني لوثار كذلك الى العمل على طرد العرب من جنوب ايطاليا لمصلحته . ومع هذا كله ظل المسلمون فى جنوب ايطاليا وفى صقلية حتى الفتح النورمانى لهذين الاقليمين اواسط القرن الحادى عشر الميلادى .

انتشار الاسلام واللغة العربية

الاسلام :

تسعت الدولة العربية الاسلامية كما اتسعت الامبراطوريات الكبيرة فى كل العصور وبنفس الطريقة غالبا ، أى طريقة الفتح والتغلب الحربى الذى اخذ شكل هجرة عربية عامة ، على مثال

الهجرات الكبيرة المعروفة في التاريخ . لكن التوسع العربي صاحبته ظاهرة قوية هى ظاهرة انتشار الاسلام في الاقطار المفتوحة ومن ثم التبس الامر على بعض الكتاب والمؤرخين الاوروبيين في العصور الوسطى والحديثة حتى اخريات القرن الماضى ، فظنوا أن الدين الاسلامى انتشر بالفتح الحربى ، او على حد قولهم « انتشر بالسيف » ، مع أن الاسلام دين ذو عقائد ومبادئ ، والعقائد والمبادئ لا تنمو وتنتشر بالعنف والاكراه ، بل بالاقناع والاعتناع . ثم ان القرآن اوجب اصطناع الرفق في بث الدعوة الاسلامية « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، وجادلهم بالتى هى احسن » ، « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى » . وسار الرسول والخلفاء الراشدون بعده في نشر الدعوة الاسلامية على هدى هذه الآيات الصريحة . ويكاد تاريخ الدولة الاسلامية كله لا يعرف حالة واحدة اكراه فيها شخص على اعتناق الاسلام (١) ، ما عدا كفار شبه الجزيرة العربية ، فانهم لم يقبل منهم الا الاسلام او السيف ، لا الجزية . واذن فينبغى أن نفرق بين التوسع العربى من طريق الفتح الحربى في مختلف الاقطار ، وانتشار الاسلام في الاقطار المفتوحة . والاقطار التى شملها التوسع العربى يمكن تقسيمها قسمين (١) اقطار تغلب على سكانها النصرانية ومعها اليهودية (٢) واقطار اخرى تغلب على سكانها ديانتان اخريان هما الزرادشتية والبوذية .

انتشار الإسلام في الاقطار المفتوحة التي تغلب عليها النصرانية (ومعها اليهودية) :

فالاقطار التي تغلب على اهلها النصرانية (ومعها اليهودية)
وهى الشام ومصر وشمال افريقية واسبانيا ، انتشر فيها
الاسلام لانه يعترف بالنصرانية واليهودية دينين سماويين
موحدين . والقرآن يشيد بذكرى التوراة والانجيل ، ويمجد
ذكرى الرسولين موسى وعيسى والسيدة مريم أم المسيح كل
التمجيد . لذلك اعتبر المسلمون النصارى واليهود « اهل ذمة »
و « اهل كتاب » وأقروهم على ديانتهم على شريطة أداء الجزية
التي تعفيهم من الخدمة العسكرية . فاعترف الاسلام بالنصرانية
واليهودية على هذا النحو الرائع مما قرب مسافة الخلف بينه
وبينهما في العصر الاسلامى الاول خاصة ، وسهل النقلة من
اليهودية او النصرانية الى الاسلام .

ثم اذا اعتبرنا بساطة العقيدة الاسلامية وسرعة تقبل العقل
لها ، وقارنا هذه العقيدة الاسلامية بتعاليم اليهودية والمذاهب
المسيحية التي تأثرت بالفلسفة الاغريقية حتى أصبحت
صعبة على افهام اوساط الناس فضلا عن العامة ، وجدنا دافعا
آخر لانتشار الاسلام في جماهير النصارى خاصة في العصر
الاسلامى الاول .

وتأتى بعد ذلك أسباب مادية وأخرى اجتماعية ، فرغبة
كثير من فقراء اهل الذمة في الخلاص من الجزية كانت سببا في

اعتناقهم الاسلام ، كما ان حال بعض الطبقات العاملة والعبيد كانت من البؤس والانحطاط الاجتماعى بحيث دفعها بؤسها وانحطاط حالها الاجتماعية الى اعتناق الاسلام الذى يصرح بأن المسلمين سواء ولا تفاضل بينهم الا بالتقوى . والحق ان مسألة الخلاص من الجزية كانت السبب فى اقبال كثير من اهل الذمة على اعتناق الاسلام ، حتى هال الدولة الاموية فى اواخر القرن الاول الهجرى تناقص مبلغ الجزية ، فلم تأبه لاسلام من اسلم من اهل الذمة ، واخذته على الرغم من اسلامه بأداء الجزية . لكن الخليفة عمر بن عبد العزيز امر برفع الجزية عن من اسلم من اهل الذمة ، وقال مقالته المشهورة « ان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » .

انتشار الاسلام فى الاقطار المفتوحة الاخرى :

هذه الاقطار هى ايران والهند ، فأما ايران فكانت ديانتها وقت الفتح هى الزرادشتية ، وأما الهند فكانت ديانتها البوذية . وكلتا الديانتين تأمر بفعل الخير وتنهى عن فعل الشر ، ولذلك فان الفاتحين من المسلمين انزلوا اتباع الديانتين المذكورتين منزلة اهل الكتاب من النصارى واليهود ، فقبلوا منهم الجزية وسمحوا لهم بالبقاء على عقيدتهم . غير ان فساد احوال الجماهير والطبقات العاملة فى ايران والهند وقتذاك ، واحتقار الخاصة ورجال الدين لهم واعتبارهم اياهم انجاسا ، او شبه انجاس ، كل ذلك مما حمل الناس على الدخول فى الاسلام افواجا .

انتشار الاسلام بقوته الذاتية في اقطار لم يفتحها المسلمون فتحا حريا :

ولا ادل على خطأ الدعوى القائلة بأن الاسلام انتشر بالسيف من أن الدين الاسلامي انتشر فيما بعد في اقطار شاسعة لم تغزها جيوش المسلمين - اى جزائر الملايو ، وأقاليم أفريقية الشرقية والغربية والصحارى الكبرى ، كما دخل الصين وأواسط آسيا حتى وصل الى أعماق سيبيريا ، كل ذلك بقوته الذاتية وعلى أيدي دعاة من التجار غير محترفين للدعوة أصلا ، وهو ما سوف نجده موضحا في الفصل الاخير من هذا الكتاب . ثم ان بساطة المناسك الاسلامية من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وروعة الحضارة الاسلامية ممثلة في مساجدها ومبراتها وعلومها وآدابها ، كل ذلك أدى الى اقبال أهل البلاد التي لم يفتحها المسلمون على اعتناق الاسلام طوعية دون عنف أو اكراه .

انتشار اللغة العربية

والظاهرة الاخرى الكبيرة التي صاحبت اتساع الدولة الاسلامية هي ظاهرة انتشار اللغة العربية بين أهل الاقطار المفتوحة انتشارا عاما سريعا . وتعليل ذلك أولا ان العرب بفتحهم العراق والشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقية اتصلوا بشعوب تتكلم لغات تمت الى العربية بصلة النسب من قريب

أو بعيد ، فمعظمها لغات سامية الاصل . وهذا التقارب بين العربية وتلك اللغات مما سهل على أهل البلاد المفتوحة تعلم العربية والتكلم بها . ثم جاءت عوامل أخرى زادت من اقبال أهل تلك البلاد على تعلم العربية ، فانتشار الدين الاسلامى فى الاقطار المفتوحة اقتضى مثلا أن يتعلم الموالى اللغة العربية وهم الذين اعتنقوا الاسلام من أبناء تلك الاقطار ، لانها لغة القرآن الذى لابد من الالام ببعض نصوصه لاقامة الصلاة وفهم أصول الاسلام . ثم أن الدولة عربية لغتها الرسمية هى العربية ، فلا بد من تعلم العربية لمن أراد أن يتقلد عملا رسميا أو منصبا حكوميا ولو كان من غير المسلمين .

وعلى ذلك أقبل شباب أهل البلاد من موال وأهل ذمة على تعلم العربية لهذا الغرض ، وحذى أفراد من الموالى اللغة العربية أواخر القرن الاول الى درجة أن عبد الملك بن مروان رأى أن ينقل الدواوين من اللغات الاجنبية التى تكتب بها منذ الفتح الى اللغة العربية ، فتم فى عهده نقل ديوان العراق من الفارسية الى العربية، وديوان الشام وفلسطين من الرومية (اليونانية) الى العربية . وفى عهد ابنه الوليد تم نقل ديوان مصر من الرومية والقبطية الى العربية ، واخذ الاقباط انفسهم يتكلمون اللغة العربية .

انتشار العربية فى أهل الذمة :

وليس ادل على اقبال غير المسلمين من أهل البلاد المفتوحة على تعلم العربية من شكوى كاتب أسباني مسيحي فى أوائل القرن

الثالث الهجرى من انصراف الشباب الاسباني المسيحى من
اللاتينية انصرافا تاما ، واقباله على دراسة العربية وآدابها ؛
والبراعة فيها الى درجة أن أفرادا منهم أصبحوا يستطيعون
الكتابة بها نثرا ونظما كالعرب سواء بسواء .

تأسيس الدولة الإسلامية

الجماعة الإسلامية :

قامت الدعوة الإسلامية في الدور المكي الأول من حياة الرسول دينية خالصة لا تستند الى شيء سوى قوة الاقتناع والموعظة الحسنة ، واستجاب لها من أول الامر بعض اقرباء الرسول واصدقائه الذين اعتقدوا صدق دعوته ونبوته . ثم دخل فيها غير واحد من بطون قريش ، فتكونت من ذلك جماعة أصبحت الدعوة الجديدة أساس تكوينها .

اتجاه جديد للدعوة والجماعة :

غير أن الرسول رأى الغالبية العظمى من قومه تعارض دعوته وتمسك بنظامها القديم ، مع ما فيه من فساد وانحطاط ، وورآها بعد ذلك تتحول من المعارضة الى اضطهاد أصحابه الذين دخلوا في دعوته ، ثم الى اضطهاده هو آخر الامر . فرأى أن يبتث الدعوة في خارج مكة وفي غير قريش ، فأمن برسالاته ودعوته ففر من حجاج الاوس والخزرج سكان يثرب (المدينة) ، وتمت بينه وبينهم بيعتا العقبة الاولى والثانية ، على أن يهاجر الرسول الى يثرب ، وأن يتولوا هم وقومهم حمايته وحماية دعوته ممن يريدونه أو يريدونها باذى أو عدوان . وبهذه المبايعة أخذت الجماعة الإسلامية تتجه اتجاهها جديدا .

الجماعة الإسلامية في الدور المدني وتأسيس الدولة الإسلامية :

فلما هاجر الرسول من مكة الى المدينة واصبح على رأس جماعة مختلطة من المهاجرين من قريش ، ومن الانصار وهم مسلمو الاوس والخزرج واليهود الذين سكنوا في المدينة معهم ، بادر الرسول تمشياً مع مقتضيات الاحوال الجديدة الى تنظيم الشؤون العامة لهذه الجماعة المختلطة . فاختط عليه السلام مسجداً يؤدي فيه المسلمون فريضة الصلاة ويدبرون فيه أمورهم العامة ، كما وضع دستوراً ضمنه مبادئ عامة يتبعها أهل المدينة جميعاً في أمور الحرب والسلام ، والديات والفصل في الخصومات وشؤون الميراث ، وتوفير الامن العام .

للجماعة . ويعتبر ذلك كله في الحقيقة تحولا للجماعة التي بدأت دينية خالصة في الدور المكي الاول الى جماعة دينية سياسية في المدينة . كما تعتبر تأسيسا للدولة الإسلامية التي نمت نموها التاريخي المشهور .

قيام الخلافة الإسلامية :

وفي العام الثاني للهجرة شرع الرسول في الجهاد في سبيل نشر الدين الإسلامي ، أي الحرب ، دفاعاً عن الدعوة الإسلامية واصحابها ، وتكفلت السور القرآنية بتنظيم شؤون الحرب ، من حيث ابتدائها والسير فيها وانتهائها وتوزيع الغنائم ومعاملة الاسرى كما تضمن القرآن فيما بعد طريقة معاملة أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن لم يسلم من العرب ، والنص على العقوبات التي

توقع في أحوال الجرائم الكبرى ، وذكر الأحزاب المختلفة من مهاجرين وانصار ومنافقين ويهود ، وتنظيم المعاملات المدنية وأحوال الاسرة وذلك في كثير من الدقة والتفصيل .

وبذلك تكامل للدولة الاسلامية الجديدة كل مقومات الدولة الاساسية من (١) وطن (٢) وسكان (٣) ونظام أو قانون (٤) وهدف مشترك هو في حال الدولة الاسلامية نشر الدعوة وحماية النظام الجديد . وقام الرسول على رأس الدولة ، فاجتمعت على حد تعبيرنا جميع السلطات في شخصه عليه السلام ، فهو من الناحية الدينية يتلقى الوحي ويبلغه ، ومن ناحية ثانية يقود الجيوش ويعقد المعاهدات ومن ناحية ثالثة يفصل في الخصومات ويوزع الاموال ويرعى ما جل ودق من أمور الجماعة . والحكومة التي من هذا القبيل يقال لها حكومة دينية او ثيوقراطية لانها تقوم على اساس ديني .

تطور الدولة الاسلامية

على عهد الخلفاء الراشدين

قيام الخلافة الاسلامية :

فلما قبض عليه السلام دون أن ينص صراحة على النظام الذي يتبع من بعده في رئاسة الدولة الاسلامية ، واجه اهل المدينة مشكلة بالغة الخطر ، وهي من يخلف النبي في رئاسة الدولة الاسلامية ؟ وقبل أن يتم تجهيز جثمان النبي ودفنه -

أسرع الانصار فاجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يسبقوا المهاجرين الى البت في الامر باختيار رجل منهم ، ورشحت الخزرج للامر بالفعل سعد بن عباد . وبلغ المهاجرين اجتماع الانصار بالسقيفة فخافوا افتراق الكلمة ووقوع الفتنة ، فترك بعضهم ما كانوا فيه من تجهيز جثمان النبی ، وأسرع الى مكان الاجتماع ثلاثة من اقطابهم ، وهم ابو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وابو عبيدة بن الجراح .

وتبادل قادة الفريقين الخطب والعبارات الشديدة ، في اجتماع السقيفة ، لكن التنافس القديم بين الاوس والخزرج عاد الى الظهور في ذلك الظرف العصيب فأضعف ذلك من جانب الانصار ، وانتهاز الفرصة عمر بن الخطاب رجل الموقف في ذلك اليوم ، فتقدم الصفوف الى ابي بكر فبايعه وتتابع المهاجرون من بعده يبايعونه ، وقدمت قبائل أسلم وغفار ومزينة النازلة بالقرب من المدينة فبايعت ، ثم تقدمت الأوس فبايعت لتقطع على الخزرج ما أرادت ، وأخيرا بايعت الخزرج كذلك على كره منها . ثم بايع الناس في اليوم التالي ابا بكر في المسجد ببيعة عامة ، وذلك بعد ان تم تجهيز جثمان النبی ودفنه . ثم استقر الرأي على ان يكون لقب ابي بكر خليفة رسول الله . وهكذا انفرجت الازمة وكتب للدولة الاسلامية البقاء ، وهكذا قام نظام الخلافة الذي استمر من ذلك اليوم التاريخي الى أن الفاه الاتراك العثمانيون سنة ١٩٢٤ م . وازدادت الدولة الاسلامية رسوخا بقمع ابي بكر لحركة

الردة في السنة الاولى من خلافته فان العرب عامة خارج الحجاز اعتقدوا أن الاسلام بعد وفاة الرسول أصبح ديننا فقط لا ديننا ودولة ، وهو ما اعتقد به أهل المدينة ، ولذلك منع اولئك العرب الزكاة وعجبوا من مبايعة أهل المدينة أبا بكر .

الخلفاء الاربعة :

والخلفاء الاربعة الاولون انتخب كل واحد منهم للخلافة انتخابا ، فلما مرض أبو بكر مرضه الذي توفي فيه رشح الامر بعده عمر بن الخطاب ، وأقرت الجماعة ترشيحه وبايعت عمر . ولما طعن عمر بن الخطاب عين ستة من الصحابة سمووا أهل الشورى ، ليختاروا من بينهم واحدا منهم للخلافة ، فاختير عثمان بن عفان . ولما قتل عثمان اختار الثوار على بن أبى طالب ، وبايعه معظم الناس .

حكومة ثيوقراطية :

ولم يأل كل خليفة من الخلفاء الاربعة جهدا في الاخذ بسنة الرسول في الحذب على صالح الامة الاسلامية ، ورعاية أمورها صغيرة كانت أو كبيرة ، مع بساطة المعيشة والزهد التام في زخرف الدنيا ، والبعد عن أبهة السلطان وجبروته ، برغم اتساع الفتوح وتدفق الاموال . وعلى ذلك فان الدولة على عهدهم لم تنزل صفتها الدينية ماثلة كما كانت على عهد الرسول ، وهو قياس مع الفارق الواضح ، فان الرسول له صفة النبوة والرسالة اما الخلفاء الاربعة فلم تكن لهم هذه الصفة بطبيعة الحال .

الخلافة على عهد الدولة الاموية

غير أن الطابع الدينى الذى انصفت به الدولة على عهد الخلفاء الاربعة لم يلبث أن أخذ يضعف شيئا فشيئا . فان الدولة اتسعت اتساعا عظيما سريعا ، وتعددت مسائلها الاقتصادية ، وتعددت مشاكلها السياسية ، ووقع من الاحداث الدامية شىء غير قليل : من مقتل الخليفة الثالث عثمان ، وانقسام الناس فى خلافة على بن أبى طالب ، ومحاربته وخروج الخوارج عليه . كل ذلك جعل الراى العام يرى أن لا بد من تغيير فى السياسة لمواجهة الاحوال الجديدة .

انقلاب الخلافة الى الملك :

والواقع أن هذا هو جوهر النزاع بين على ومعاوية ، اذ استمسك الامام على بنظام الخلافة القديم من حيث الشدة فى الدين والصرامة فى الحق ، فيتورع عن انفاق درهم من مال الدولة فى غير موضعه ، وكره أن يرى درهما يؤخذ من مال الدولة بغير حق . أما معاوية فاصطنع الدهاء والحيلة فى تنفيذ اغراضه ، ولا يتحاشى أن يبذل الاموال فى تحقيق مطالبه ، وحارب على بهذه الاسلحة ففاز فى النهاية ، وأخذ كثير من رجالات على بهجرون جانبه وينحازون الى جانب معاوية .

ومضى معاوية فى خلافته على هذه السياسة ، فاستعان فى ضبط الدولة بدهاة الرجال ومنهم عمرو بن العاص والمغيرة بن

شعبة وزيد بن أبى سفيان ، فوطأوا أكناف دولته بما أوتوا من دهاء وسياسة . وقطع معاوية السنة الخطباء والشعراء الهجائين لا بالسيف بل بالمال ، ويستل الاحقاد من صدور أعدائه بالمال كذلك ينقعه بغير حساب . كل ذلك مهد له الامور فجلس على السرير كما كان يفعل اباطرة البيزنطيين ، واتخذ في المسجد مقصورة يصلى فيها والحرس عليه وقوف .

ولما تقدمت بمعاوية السن عقد البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، مخالفا بذلك سنة الخلفاء الاربعة ، فانسأقت الخلافة في بنى أمية حتى سنة ١٣٢ هـ . فانت ترى أن معاوية اخذ الخلافة بالغلبة والقهر لا بالانتخابات والشورى ، وساسها بالدهاء والحيلة والبطش عند اللزوم ، وسن سنة الحكم الموروث من غير سابقة في الاسلام ، وسار كبار خلفاء بنى أمية بسيرة معاوية ، وان لم يكن لهم حلمه وكياسته ومهارة تصريحه للامور .

ويعد المؤرخون الاسلاميون على بن أبى طالب آخر الخلفاء ، ومعاوية بن أبى سفيان أول الملوك ، لان الملك يباين الخلافة من وجوه كثيرة ، فالخلافة انتخاب وشورى ، واستمساك بالدين في تصريف شئون الدولة بالعدل ، والملك غلبة ودهاء واعتداد بالعصبية ، سواء أكانت عصبية الاسرة أم عصبية القبيلة ، وهو لا بأس به مادامت غايته المصلحة العامة . اما اذا قصد بالملك أن ينعمس صاحبه في الترف والتنعم بالملاد ، وارضاء الشهوات واصطناع العصبية العمياء ، كان ملكا مذموما امره الى روال .

والمؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون فصل مشهور في مقدمته عن انقلاب الخلافة الى الملك . على أن الخلافة لم تنقلب الى ملك فحسب ، بل صارت ملكا عربيا ، وذلك لان بنى أمية تعصبوا للعرب على سائر الاجناس التى تشتمل عليها دولتهم ؛ وهى بحق المملكة العربية الممتازة فى العصور الوسطى . وبانتقال الخلافة الى الامويين الذين أنشأوا مجدهم فى الاسلام ببلاد الشام انتقل محور الارتكاز فى الدولة الاسلامية من الحجاز الى الشام فاستقر فيها طوال عهدهم ، وحاول الحجاز أيام آل الزبير ، وفى صدر الدولة العباسية ، ارتجاع نفوذه السياسى لكن محاولته ذهبت سدى ، فانه أدى دوره التاريخى العظيم ، وكان لابد له من ان يقنع بأنه أصبح بلادا مقدسة ، ينعم أهله وزواره بما فيه من ذكريات وآثار روحية خالدة ، ويترك الزعاما السياسية والمادية لقطار أخرى .

الخلافة على عهد الدولة العباسية

(١٣٢ - ٦٥٦ هـ)

الاحزاب المعارضة للامويين :

حمل لواء المعارضة ضد الامويين ثلاثة احزاب ، هم (١) العلويون (٢) الخوارج (٣) الموالى .

اما العلويون وهم ذرية الامام على وزوجته فاطمة بنت الرسول فراوا انهم أحق بالخلافة من بنى أمية ، لانهم يجرى فى عروقهم الدم النبوى الطاهر ، وقام العلويون من حين لآخر بحركات ثورية

قابلها الامويون بالقمع والشدة، فكان الفشل نصيب هذه الحركات واما الخوارج وهم الذين خرجوا على الخليفة على بن ابي طالب غداة وقعة صفين لقبوله التحكيم بينه وبين معاوية ، فهم فرق متعددة بين متطرفة ومعتدلة . وهم جميعا ديمقراطيون عميقون في ديموقراطيتهم ، يرون الخلافة حقاً لمن هو اهل لها ايا كان نسبه او لونه او جنسه . وينقمون من بنى أمية استبدادهم وعصبيتهم ، وذهب متطرفة الخوارج الى حد تكفير الامويين ، بل الى تكفير سائر المسلمين لانهم ليسوا على عقيدتهم . وحارب الامويون اولئك المتطرفة من الخوارج حتى قضوا عليهم ، ولم يبق منهم حزب تحسب الدولة له حساباً ، ماعدا طائفة الاباضية التى لا تزال قائمة حتى العصر الحاضر . اما الموالي، وهم الذين اعتنقوا الاسلام من العجم ، فنقموا من بنى أمية تعصبهم للعرب ، واحتقارهم لكل من هو غير عربى . واشتدت نفقتهم حين ذهب الحجاج الى الامويين بالعراق وغيره من عمال الدولة الى عدم الاعتداد باسلامهم وتقاضوا منهم الجزية مع انهم جمهور اهل البلاد القائمون على زراعة الارض ومعظم الصناعات والمتوفرون على تحصيل العلوم والعمل فى دواوين الدولة . وابتدأ التقارب بين حزبى العلويين والموالي فى اوائل الدولة الاموية على يد رجل يقال له المختار ابن ابي عبيد الثقفى ، اذ قام هذا الرجل فى العراق يدعو الى محمد ابن الحنفية (ابن على بن ابي طالب) . ورأى المختار ان يستعين بالموالي فى صراعه مع الامويين فوعدهم النصفة والمساواة بينهم وبين العرب فى الحقوق العامة . فانضموا اليه . وراقت دموع

العلويين القائمة على نسبهم النبوى فى نظر الموالى ؛ لانها تنفوق والنظرية الفارسية القديمة القائلة بانحصار الملك فى الاسرة الساسانية ، بحيث لا يصح لاحد من خارجها أن يتولى الملك . وكلما اشتد اضطهاد الامويين للعلويين ، ازداد التقارب بين العلويين والموالى ؛ واخيرا تم بينهم الامتزاج التام حتى اصبح معظم شيعة آل على من الموالى .

اما العباسيون ، وهم ذرية العباس بن عبدالمطلب عم الرسول عليه السلام ، فلم يظهروا على مسرح الحوادث السياسية الكبرى فى القرن الاول الهجرى ، لانه لم يكن لهم من الاسباب ما يدعواهم الى الظهور السياسى . ثم حدث فى اواخر ذلك القرن الاول أن اخذوا يدلون بدلهم فى الدلاء ويضربون فى زحمة الحوادث لعلهم يصلون الى الخلافة . فانضموا الى العلويين وشيعتهم من الموالى وكونوا جمعية سرية تعمل على قلب الدولة الاموية . وجعلت الدعوة «الرضا من آل محمد» وهى عبارة فيها كثير من التلبيس والغموض المقصود ، فان الرضا أى شخص مرضى السيرة ، وآل محمد يشملون العلويين والعباسيين . وانتشر الدعاة يعملون على تهيئة الاذهان فى الاقطار الشرقية ولا سيما خراسان حيث الكثرة من الموالى وحيث العرب يحارب بعضهم بعضا بدعوى العصبية القبلية من يمنية ومضرية ، ولم يخامر العلويين والموالى أدنى شك فى أن «الرضا من آل محمد» لابد أن يكون شخصا علويا . وانتشرت الدعوة السرية ايما انتشار ، ولا سيما عندما تزعمها ابو مسلم

الخراسانى . وصادف ذلك فساد امر الدولة الاموية بانقسام البيت المال على نفسه وانقسام العرب الى حزبين متعاديين يمنى ومضرى . ثم اعلنت الدعوة سنة ١٢٥ هـ وقاد أبو مسلم الخراسانى جيوش الموالى ، فاكسح الاقاليم الشرقية حتى بلغ العراق سنة ١٣٢ هـ ، وعند ذلك برح الخلفاء وانكشف المستور ، فاذا الخليفة الجديد امير المؤمنين أبو العباس أول الخلفاء العباسيين ، فقد بويغ بالخلافة فى ١٣ ربيع الاول من هذه السنة (اكتبون ٧٤٩ م) . وسقط فى أيدي العلويين ، وعلموا بعد فوات الوقت أنهم خدعوا ، فلاذوا بالصمت والسكون على مضض . وانتهت الدولة الاموية فى نفس السنة حين هزم جيش العباسيين بقيادة عبد الله بن على ، وهو عم الخليفة العباسى الجديد ، جيشاً أمويًا بقيادة مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين .

والخلاصة ان العباسيين وصلوا الى الخلافة من طريق الدهاء والقوة كما فعل الامويون قبلهم . غير أنهم لم يتعصبوا للعرب ، كما تعصب لهم الامويون ، بل اعتبروا العرب أولياء لبنى أمية ، فحرصوا على عدم الاستعانة بهم فى حركتهم الكبرى ، وأذن هذا الانقلاب بذهاب نفوذ العرب السياسى من الدولة الاسلامية . على أن العباسيين تعصبوا للاسلام لا لجنس بعينه ، فالدولة الاموية هى الدولة العربية فى العصور الوسطى والدولة العباسية هى الدولة الاسلامية الكبرى فى تلك العصور ، وهى التى هيا انتصارها للاسلام وحده أسباب الظهور لمختلف الاجناس التى تشتمل عليها الدولة

الاسلامية من فرس وترك واكراد وسودان وغيرهم من المسلمين .
واول الاجناس ظهورا في الدولة العباسية الفرس ، لانهم هم
الذين قامت الدولة على اكتافهم . ووضع ذلك سريعا في انتقال
الخلافة من الشام الى العراق ، ومن دمشق الى بغداد ، وفي انبعاث
النظم الساسانية وآداب الفرس وعاداتهم القديمة في مختلف
الاقاليم . وأحيطت الخلافة في عهد العباسيين بهالة من القداسة
لم تكن لها لا زمن الامويين ولا زمن الخلفاء الاربعة ، فانهم لكي
يثبتوا حقهم في الخلافة ويدحضوا حجة العلويين ، اعتبروا الخلافة
أرثا عن الرسول ، وأجروا عليها حكم الميراث الشرعى ، وهو ان
العم مقدم على ابن البنت في الميراث غير أن هذه
القداسة أدت الى تلقيب الخليفة العباسى بلقب « خليفة الله » ،
و « ظل الله في الارض » ، وللخليفة المنصور العباسى كلام من هذا
القبيل في خطبة له . واحتفظ العباسيون بمخلفات النبى عليه
السلام ، وهى البردة والقضيب وشعرات من شعره ، وقالوا
بأن الحرمين ضمن دولتهم . وكانت مظاهر التقديس ، فضلا
عن اعتبار الخلافة أرثا عن النبى هما السبب في طول عمر الدولة
العباسية ، وفي أن الخليفة العباسى كان في أشد اوقات ضعفه
يسعى اليه المتغلبون على الاقاليم يلتمسون منه التقليد المثبت
لامارتهم على ما غلبوا عليه .

ثم وضع للعباسيين تزايد نفوذ الفرس ، وكانوا قد اقصوا
العرب ، فلجأوا الى العنصر التركى ، فاستكثروا منهم في الجيش

على عهد الخليفة المعتصم بالله ، غير أن العباسيين ما لبثوا أن لقوا
من الأتراك عنثا شديدا ، وأصبحوا لانهى لهم معهم ولا أمر ،
وانتهت الحال بأن أصبح الخليفة زمن الأتراك السلاجقة خليفة
بالاسم فقط ، والنفوذ كله للسلطان السلجوقي وربما يقوم بين
الجانبين من الصراع والمغالبة ما قام بين البابوات والباطرة في
أوربا في العصور الوسطى ، لولا أن كانت غارة التتار في القرن
السابع الهجرى فأتت على الدولة العباسية (٢٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) .

نظم الدولة الإسلامية

الحكومة المركزية

الخلافة

التعريف بها :

الخلافة نظام اسلامى لم يوجد عند غير المسلمين . وهو نظام سياسى أساسه الدين ، فالخلافة ينظر فى مصالح الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الدنيوية والاخرية .

شروطها :

قام نظام الخلافة يوم السقيفة . ووضع لها الفقهاء فيما بعد خمسة شروط استنبطوها من سير كبار الخلفاء ، وهى : العلم والعادلة والكفاية ، وسلامة الحواس ، والنسب القرشى . واختلف الفقهاء فى الشرط الاخير ، فان الانصار تطلعوا اليها يوم السقيفة وهم ليسوا قرشيين ، كما أن الاتراك العثمانيين ادعوا وتولوها وأقرهم جمهور المسلمين عليها مع أنهم ليسوا عربا أصلا . ومهما يكن من شئ استقرت الخلافة طوال العصر فسن بذلك سنة الملك الموروث .

الوسيط فى قریش ولم يتطلع اليها أحد من المتغلبين الأقوياء ، أمثال البويهيين والسلاجقة والغزنويين وغيرهم مع أنهم كانوا أقوى من الخلفاء فى عصرهم نفوذا وسلطانا .

المبايعة بالخلافة :

ظلت الخلافة زمن الخلفاء الراشدين انتخابية شورية ، وغلبت البساطة على مراسم الخلافة ، فبايع أهل العقد والحل ، وهم اذ ذاك أهل المدينة ، كل خليفة من الخلفاء الأربعة ، على العمل بالكتاب والسنة خاصة ، وكانت البيعة تتم مصافحة بالأيدي كما يفعل المتبايعان عند العرب . وطريقة الخلفاء الراشدين تجمع بين الجمهورية والشورى والملكية . أما الجمهورية فلان الخليفة يختار من قريش بلا حصر ولا تعيين ، وهي شورية لان الانتخاب يتم بالشورى ، ولان الخليفة - لاسيما عمر بن الخطاب - كان يستشير أهل العقد والحل ، وهم اذ ذاك جمهور المهاجرين والانصار ، ثم هي ملكية محدودة ، لان الخليفة اذا اختير تقيّد بأحكام القرآن والسنة . وزاد في قيمة هذه الطريقة ما استشعره الخلفاء الأربعة من التقوى والزهد في الدنيا ، والحرص على مصلحة الكافة . لكن العلماء والفقهاء للأسف لم ينظموا أمر الشورى ، فلم يبينوا من هم على التحقيق أهل العقد والحل ، مما أودى بذلك النظام . ثم انقلبت الخلافة الى ملكية مطلقة تقريبا على يد معاوية ولا سيما بعد ان اخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد .

وجرت العادة في الدولتين الاموية والعباسية على أنه متى بويع الخليفة انتقل من داره الى دار الخلافة في موكب حافل ثم ترد عليه وفود المهنيين من الانصار .

ثم جد في الدولة العباسية أنه متى تمت المبايعة اختار الخليفة

لقبا من الاقارب كالرشيد والامين والمأمون والمعتصم بالله وهكذا .

بيعة ولي العهد:

ولما أصبحت الخلافة ارثا ، درج أكثر الخلفاء الامويين والعباسيين بعدهم على مبايعة اولادهم أوغيرهم من ذوى قرابتهم بولاية العهد ، واحتفلوا لذلك مثل احتفالهم بمبايعة الخلفاء ، وكثيرا ما عرضوا عزمهم فى ذلك على أهل الراى ، كما فعل معاوية عندما أراد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، وكما فعل المنصور العباسى عندما أراد البيعة لابنه المهدي . واذا رأى الخليفة أن ليس من اولاده من هو أهل للخلافة بايع أحد أخوته هو ، وشرط أن يخلفه فلان أو فلان من اولاده ، كما فعل يزيد بن عبد الملك عندما كان ابنه الوليد صغيرا فبايع اخاه هشاما على أن يخلفه ابنه الوليد . وقد يبايع الخليفة لأحد اولاده ويذكر من تخلفه وبخيره فى استخلافه ، كما فعل الرشيد ، حين كتب بولاية العهد لابنه المأمون ومن بعده للقاسم وجعل امره للمأمون أن شاء اقره ، وأن شاء خلعه . وترتب على ذلك كثير من الضغائن والحزازات اذا لم ينفذ ذلك الشرط .

شارات الخلافة وعلاماتها :

أما شارات الخلافة فهى الخطبة والسكة والطراز . وذلك أنهم كانوا يدعون للخليفة على المنابر فى الصلاة . وينقشون اسم الخليفة على السكة أى العملة . وأما الطراز فهو أن يرسم الخلفاء أسماءهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم

بحيث تصير الثياب الخليفة معلمة بذلك الطراز للدلالة على أن لابسها من أهل الدولة من الخليفة فمن دونه ، كما هي الحال في لباس الاجناد في أيامنا . واتخذ المسلمون نظام الطراز عندما اتصلوا بالفرس والبيزنطيين . وأول من تقل الطراز من ملوك الاسلام ، عبد الملك بن مروان وذلك في امر القراطيس التي تحمل من مصر الى بلاد الدولة البيزنطية . ثم استفاد امر الطراز في العصر العباسي ، وصار للخلفاء في قصورهم دور تسمى دور الطراز تنسج فيها أثوابهم وعليها شارة الخلفاء وكذلك كانت الحال في دولة بنى أمية بالاندلس والدولة الفاطمية بمصر . ولهذه الشارات كلها أهمية سياسية ، فانها تشعر بالطاعة والولاء للخليفة القائم بالامر . بحيث اذا أبطل متغلب على اقليم من الاقاليم الدعاء للخليفة على المنابر ، أو اسقط اسمه من السكة أو الطراز ، كان ذلك دليل التمرد والخروج من الطاعة . كما فعل المأمون لما بلغه وهو على خراسان أن أخاه الامين نكث بيعته .

وأما علامات الخلافة فهي اشياء من مخلفات النبی (ص) احتفظ بها خلفاء بنى أمية وبنى العباس ، على سبيل التبرك بها والاعتداد بها في اثبات حقهم في الخلافة . ومن ذلك برده صلى الله عليه وسلم وعصاه وخاتم صنع على مثال خاتمه الذي فقد . وكان لكل خليفة خاتم يختم به الرسائل التي تصدر عنه ، ومن ثم الديوان المعروف بديوان الخاتم ، وهو الذي تختم فيه الرسائل بخاتم الخليفة .

الوزارة

اصلها في الاسلام :

تأتى الوزارة بعد الخلافة من حيث الاهمية السياسية والادارية في الدولة الاسلامية . والوزير وسيط بين الخليفة وبين الرعية . فهو من ناحية يعين الخليفة في تصريف شئون الدولة ومباشرة مهامها ، كما أنه من ناحية أخرى يطلع الخليفة على أحوال الرعية بوجه عام . ونظام الوزارة نظام شرقي قديم ولا سيما عند الفرس الساسانيين . واختلف اللغويون في لفظ « وزير » ، أهو عربى أصلاً أم أعجمى ؟ ومهما يكن أصله فهو مذكور في القرآن ، وعرفه المسلمون واستعملوه بمعناه اجمالاً في صدر الاسلام . قال ابن خلدون « فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى ، حتى كان العرب الذين عرفوا الدولة وأحوالها في أيام كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره ، وكذا عمر مع أبي بكر ، وعلى وعثمان مع عمر » .

واطرد الامر على ذلك زمن بنى أمية مع تغيير يسير ، فاختار خلفاؤهم مستشارين يرجعون اليهم في مهام الدولة ، وأكثر ماكان هؤلاء المستشارون من كتابهم أصحاب الرياسة في دواوينهم ، ومن هؤلاء سرجون الرومي زمن معاوية ، وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي زمن عبد الملك ، والابرش الكلبي زمن هشام ، وعبد الحميد بن يحيى زمن مروان بن محمد .

الوزارة زمن الدولة العباسية :

وقام نظام الوزارة في الخلافة العباسية من أول ظهورها في سنة ١٣٢ الى انتهائها في بغداد سنة ٦٥٦ فكان أول وزرائها أبا سلمة الخلال وآخرهم مؤيد الدين بن العلقمي . والناس في ثبت وزراء الدولة العباسية يلحظ امرين اولهما انهم على العموم من الفرس ، فكان الفرس حرصوا على ان تكون الوزارة لهم كما تكون الخلافة للعباسيين ، اى للعرب . والامر الثانى ان الوزارة احتكرتها اسر معينة مددا مختلفة . كالبرامكة وآل خاقان وآل الفرات وآل وهب .

واختلفت احوال الوزراء باختلاف حال الخليفة ، ففي العصر العباسى الاول (١٣٢ - ٢٤٧ هـ) عندما كان الخلفاء اقوياء يباشرون مهام الدولة بأنفسهم ظل الوزراء منفذين لاوامر الخليفة، فلما ولى الخلافة رجال من غير طراز المنصور والرشيد والمأمون عظم نفوذ الوزراء حتى صار الخليفة يفوض الى وزيره النظر في شئون الدولة عامة . ومن هنا جاء تقسيم الفقهاء الوزارة الى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض .

انحطاط شان الوزارة في الدولة العباسية :

وعلى كل حال بقيت الوزارة على رسمها وتقاليدها منذ نشأتها مع الدولة العباسية حتى سنة ٣٢٤ هـ ، عند ما قلد الخليفة الراضى محمد بن رائق اماره الجيش وجعله أمير الامراء ، وفوض اليه السلطة التامة على دواوين العراق وامور

نخراجه ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر . عند ذلك انحطت مرتبة الوزير ، وقبضت يده عن التصرف في أمور الدولة ، وأصبح أشبه بكنائس سر خاص للخليفة ، على حين صارت السلطة كلها في يد أمير الأمراء ، مثل ابن رائق نفسه ، وأخلافه في هذه الوظيفة من الزعماء ، ولا سيما بنو بويه . فلما جاء الاتراك السلاجقة تلقب زعمائهم بلقب سلطان بدلا من أمير الأمراء ، واختاروا لأنفسهم وزراء خواصا بهم ، كما فعل بنو بويه قبلهم . وظلت الحال على ذلك حتى سقوط بغداد . وانتحل وزراء الخلفاء في العهد الأخير من حياة الدولة القابا أخرى غير لقب الوزارة ، مثل رئيس الرؤساء وهكذا .

رسوم الوزارة وتقاليدها :

جرى اختيار الوزير عادة من طبقة الكتاب الذين يعملون في الديوان ، وذلك في القرنين الثاني والثالث ، ثم صار الوزراء من قادة الجند عندما تعاضم نفوذ الجيش في الدولة ، ولم يتولها غير القادة العسكريين سوى قلة من القضاة أو خواص الناس ، ومؤهلات الوزير ان يكون بليغ العبارة ، حسن التوقيع على ما يعرض عليه من الأوراق ، عالما بالحساب وأمور الخراج وطرق استيفائه ، عارفا بأحوال الملوك وآدابهم ، وعلى نصيب موفور من الصفات التي تحببه الى الجمهور ، من سخاء وظرف وحسن أدب .

فاذا وقع اختيار الخليفة على شخص يعينه للوزارة ركب الوزير من داره الى دار الخلافة ، وبين يديه الحجاب والقادة

والعلماء، ثم خلع عليه الخليفة خلع الوزارة التى يلبسها فى الحفلات الرسمية ، وهى عبارة عن القباء والسيف والمنطقة وعمامة سوداء ، ثم يسير الوزير بعد ذلك الى دار الوزارة فى موكب حافل من ارباب الدولة ، ثم يحضر الناس على طبقاتهم للسلام والتهنئة .

ويدل تاريخ الوزراء العباسيين على أن العمل اليومى كان شاقا لمجهدا لصاحب الوزارة . يقول الصابى عن الوزير ابن الفرات (سنة ٣٠٠ هـ ٩١٢ م) « كان من رسم الوزير ان يغدو اليه الكتاب فيوافقهم على الاعمال ويسلم الى كل منهم ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد وصايته به . ثم يروحون اليه بما يعملونه من اعمالهم فيوافقهم عليها ، وعلى ما أخرجه من الخروج وقضوه من الامور ، ويقيمون الى بعض من الليل . واذا خف العمل ، وقد عرضت عليه فى اثنائه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسابات نهض من مجلسه ، وانصرف الجماعة بعد قيامه » . ومثل ذلك يروى عن ابن العميد وزير بنى بويه ، ونظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى ، ويذهب الوزير الى دار الخلافة فى أيام معينة من كل اسبوع ، للمثول بين يدى الخليفة واطلاعه على شئون الدولة وتلقى اوامره واشاراته .

القضاء

احتكم العرب فى الجاهلية الى رجال منهم عرفوا باصالة الراى وبكثرة التجارب ، وكانوا يسمونهم الحكام امثال عامر بن الظرب

العدواني ، وسبب التغلبى . ونشأ القضاء فى الاسلام بعد أن هاجر الرسول الى المدينة ، وأخذ ينظم الجماعة الاسلامية بها ، وفى الكتاب الذى كتبه الرسول على أثر استقراره بالمدينة نص على مايتبع فى الخصومات والمنازعات التى تكون بين أفراد الجماعة وهو قوله : « وما كان من حدث يخاف اشتجاره ... » فان مرده الى الله ورسوله « . ونزلت آيات مدنية تأمره بالحكم بين الناس المتخاصمين من أهل الكتاب اذا احتكموا اليه ، فكان عليه السلام يلى القضاء فى المدينة ، وأكثر افضيته أن يسأل من الحكم فيجيب ، فهى أشبه بالفتاوى منها بالحكم القضائى المعروف .

ولما انتشر الاسلام فى شبه جزيرة العرب فى زمنه عليه السلام عهد الى رجال من الصحابة بالقضاء فى الاقاليم النائية بحسب اجتهادهم . واتبع أبوبكر سنة الرسول ، فاستقضى عمر معه فى المدينة ، وترك الفصل فى الخصومات فى الامصار للعمال نيابة عنه .

عمر بن الخطاب ونظام القضاء :

وانما يتحدد نظام القضاء ويتخصص من حيث هو نظام من نظم الدولة ، فى زمن عمر بن الخطاب . فلهذا باتساع الدولة أصبح يتعذر على الخليفة أو ممثله من العمال أن يجلس للفصل فى الخصومات ، فولى عمر القضاء رجالا اختصوا به . وهو أول من فعل ذلك ضمانا للعدالة ، وفصلا للسلطة القضائية عن السلطة التنفيذية كما نقول الآن . وممن استقضاهم عمر على

الامصار أبو الدرداء بالمدينة نفسها ، وشريح الكندى بالبصرة ، وأبو موسى الأشعري بالكوفة . وكتب الى عمرو بن العاص أن يولى على قضاء مصر عثمان بن قيس بن أبي العاص ، ولم يكتف عمر بذلك بل كتب فيما يروى الى أبي موسى الأشعري كتابا في معنى القضاء وطرقه . وهذا الكتاب يعتبر دستور القضاء الاسلامى وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبدالله بن قيس : سلام عليك ، أما بعد . فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلى اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يئأس ضعيف من عدلك . البيئة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين الناس الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك ان ترجع الى الحق ، فان الحق لا يبطله شيء . واعلم ان مراجعة الحق خير من التماذى فى الباطل . الفهم ، الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة . واعرف الاشباه والامثال ، ثم قس الامور عند ذلك ، ثم اعمد لاجبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . اجعل لمن ادعى حقا غائبا أمدا ينتهى اليه ، فان احضر بينته اخذ بحقه ، والا استحللت عليه القضاء . والمسلمون عدول فى الشهادة الا مجلودا فى حد ، أو مجربا عليه شهادة

زور ، أو ظنينا في ولاء أو قرابة . ان الله تولى منكم السرائر .
ودرا عنكم بالبينات .

اياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم في مواطن الحق التي
يوجب الله بها الاجر ، ويحسن الدخر ، فانه من صلحت سريرته
فيما بينه وبين الله اصلح الله ما بينه وبين الناس . ومن تزين
للدنيا بغير ما يعلم الله منه شأنه الله ، والسلام » .

القضاء الى ظهور المذاهب الاربعة .

تولى القضاة مناصبهم في ذلك العصر تارة من قبل الخلفاء ، وتارة من
قبل امراء الامصار ، وفي كلتا الحالتين روعيت في اختيار القاضى
صفات يجمعها قول عمر بن عبد العزيز « اذا كان في القاضى
خمس خصال فقد كمل : علم ما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ،
وحلم عن الخصم ، واقتداء بالائمة ، ومشاورة اهل الرأى » .
وجرى القضاء على ان يعملوا بالنصوص فيما نص عليه ، أو الرأى
الذى هو اقرب الى تلك النصوص ، فاذا لم يظهر لهم وجه
الصواب في قضية استشاروا من معهم في بلدهم من المفتين ،
وربما راسلوا الخلفاء واخذوا رأيهم في بعض المسائل .

واختص القضاء في ذلك العصر بالفصل في الخصومات المدنية
والاحوال الشخصية التى هى اختصاص المحاكم الشرعية في
زماننا . ثم اُضيف الى اختصاصهم هذا مع الزمن أموال
الحجور عليهم ، والاوقاف ، وتزويج الايامى عند فقر الاولياء .
اما النظر في الجرائم واقامة الحدود فلم تدخل في اختصاصهم .

ويظهر نوايا الأئمة ابتداء من القرن الثاني الهجري وتدوين مذاهبهم وانتشارها اخذ القضاة يتقيدون في قضائهم بمذهب مشهور ، فانتشر مذهب أبي حنيفة في العراق وخراسان ، والمذهب الشافعي في مصر والشام ، والمالكي في الحجاز والمغرب والاندلس ، وصار القضاء في كل قطر يجري على المذهب الذي ساد فيه .

ومع ما للقضاء من جليل الشأن وللقضاة من عظيم المكانة ، امتنع كثير من اجلاء العلماء من تقلد القضاء اذا ندبوا له ، وذلك لخوفهم من ضغط بعض ذوى السلطان عليهم ، ومن المغريات التي تكتنف القاضي في المحيط الذي يعيش فيه ، وربما نالهم بعض الادي من جراء امتناعهم عن تولى القضاء .

النظر في المظالم والحسبة والشرطة :

هذه كلها من ملحقات القضاء . اما النظر في المظالم فيشبه محكمة النقض في زماننا من بعض الوجوه . والغرض منه الاستماع الى ظلمات الناس من القضاة او من غيرهم . وافرد خلفاء بني امية وبني العباس الى زمن المهدي بالله يوما خاصا للنظر في ظلمات المتظلمين . فلما ضعفت الخلافة وصار الامر الى المتغلبين من الملوكة والسلاطين صار هؤلاء يجلسون لرد المظالم .

وعنى الخلفاء والامراء والسلاطين عناية بالغة بالنظر في مظالم الرعية وبذلوا الجهد في رفعها ولو كان التظلم منهم أو من اولادهم ، وفي التاريخ الاسلامي شواهد كثيرة على ذلك .
واما الحسبة فنظام اساسه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

وصاحبها يقال له المحتسب . وعمله ان يبحث عن المنكرات، ويعزز
ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدن ، مثل
المنع من المضايقة في الطرق ، ومنع الحمالين واصحاب السفن من
الاكثار في الاحمال ، والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط
بهدمها ، والتنبيه على المعلمين اذا بالغوا في عقوبة الصبيان ،
والنظر في الفس والتدليس في المعاملات ، واختبار المكاييل
والموازين ، مما يعد في زماننا من واجبات المجالس البلدية .

واما الشرطة فهي في الاصل من توابع القضاء لان المراد بها هو
تنفيذ احكام القضاة ، أو تطبيق العقوبات الزاجرة بعد ثبوت
الجريمة ، واقامة التعزير والتأديب في الذين يخالفون القانون
مخالفة صغيرة . فالشرطة بذلك خادمة للقضاء تساعد القاضى على
اثبات الذنب على مرتكبه . وابتداء من القرن الرابع صار النظر في الجرائم
واقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص لصاحب الشرطة ، وانفصلت
عن القضاء وصارت من الخطط السلطانية يكون الحكم فيها بموجب
السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية .

البريد

البريد نظام قديم له شأن عند الرومانيين والفرس والبيزنطيين
واول من اتخذ نظام البريد في الاسلام معاوية بن ابي سفيان ، اى
بعد ان تطلبت سعة الدولة الاسلامية سرعة نقل الاخبار بين
الخليفة وعماله في مختلف الاقاليم . ثم تطورت ناحية من نظا

البريد الى جاسوسية رسمية يشبهها قلم المخابرات في وزارات الحرية الحديثة ، واسم رئيس هذا النظام « صاحب البريد » وعمله تنظيم « ديوان البريد » وهو واسطة العلاقة بين الخليفة او السلطان وبين الولاة . ينقل اوامر الخليفة او السلطان الى الولاة ، كما ينقل اخبار الولاة الى الخلفاء والسلاطين . وكان اصحاب البريد فوق ذلك يرفعون التقارير عن احوال الجند او المال او غير ذلك من امور الدولة .

وعين خلفاء بنى أمية وبنى العباس والملوك والسلاطين ثقاتهم على ديوان البريد ، وباشره بعضهم بنفسه مباشرة في الاحتياط والاحتراس . وكان ابو جعفر المنصور يقول « ما احوجنى الى ان يكون على بابى اربعة نفر ، لا يكون على بابى أعف منهم ، وهم اركان الدولة ، ولا يصلح الملك الا بهم . اما احدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية » ثم عض على اصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة « آه . . آه » قيل ما هو يا امير المؤمنين ؟ قال « صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة » .

طرق البريد :

وتفرعت من مركز الخلافة طرق سابلة للبريد، كما كانت الطرق الرومانية القديمة تتفرع من رومية . وفي كل طريق محطات ومنازل فيها افراس وهجين ، فيستبدل عمال البريد بدوابهم

دواب مستريحة في كل محطة او منزل . وبلغ عدد طرق البريد في الدولة العباسية ٩٣٠ طريقا ، ونفقات الدواب واثمانها ورجالها ١٥٩١٠٠ دينار ، وانفق بنو اميه على البريد اكثر من هذا القدر من المال .

طرق التخابر بالبريد :

كانت الرسائل تنقل في خرائط وهي اكياس من الجلد تختم بخاتم المرسل ، ويحملها عمال البريد على الدواب او في البحار حتى يؤدوها الى المرسل اليه . والسعاة كذلك من رجال البريد ، وهم رجال خفاف الحركة تعودوا الجري والصبر على ان يطروا ثلاث مراحل في مرحلة واحدة .

ومن وسائل المخابرة حمام الزاجل ، والتخابر به معروف عند الامم القديمة ، وكذلك المخابرة بالنيران توقد على المرتفعات ورعوس الجبال .

الجيش

تمهيد :

استفاد العربي من يئته صفات الشجاعة الفردية وقوة الحس ونشاط الجسم والصبر على الجوع والظمأ وشدة الحر والبرد ، فاذا نشبت حرب بين قبيلة واخرى ، او اذا غزا قوم قوما آخرين ، وجد العربي القادر على القتال ميدانا لظهار صفاته هذه في خدمة قبيلته او قومه . على ان قتال العرب في حروبهم

وغزواتهم في العصور القديمة كان أدنى الى السداجة فيبدأون
المعركة عادة بالمبارزة الفردية ، تكون بين بطلين من أبطال القبيلتين
ثم يكون الالتحام ، فيكرونها على العدو فاذا آنسوا منه قوة او
من انفسهم ضعفا ارتدوا ، ثم يكرونها وهكذا حتى تتم المعركة
بنصر احد الجانبين . وهذا هو الأسلوب المعروف بالكر والفرفر ،
وهو قتال أهل البداوة على العموم . واعتاد العرب ان يخرجوا
للحرب معهم ذرارهم ونساءهم واموالهم ويجعلون كل ذلك
وراء صفوفهم ليكون ذلك ادعى الى الاستماتة والانفة من الهزيمة ،
محافظة على الاعراض والاموال . هكذا كان شأنهم في حروبهم
المعروفة « بأيام العرب » .

على أن هذه الحال تغيرت اذ فرض الاسلام الجهاد على المؤمنين
دفاعا عن الدين والنفس والوطن والمال ، ووعد المجاهدين احدى
الحسنتين ، اما النصر والعزة في الدنيا او الشهادة ودخول الجنة
في الآخرة . ومن ناحية أخرى حل النظام في القتال محل السداجة
الحربية القديمة ، فاستعرض الرسول الجيش قبل المعركة ،
وسوى الصفوف ، ووضع الخطة العامة التي يجرى عليها
القتال ، وأخذ الجند باتباعها . ثم ان أسلوب القتال تغير من
الكر والفرفر الى قتال الصف او الزحف . وهو الذي وردت فيه
الآية « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان
مرصوص » وعملا بهذه التعليمات سار المجاهدون الى لقاء
العدو صفوفا متراصة مستوية كصفوف المصلين في الصلاة ،

منقسمين الى قلب وميمنة وميسرة وساقاة ، وكل قسم عدة كراديس ، وكل كردوس يتألف من صفوف رجالهم جنس واحد ومتعارفون فيما بينهم . وبهذا النظام الذى اخذه المسلمون عن الدولة البيزنطية قاتل خالد بن الوليد جيش البيزنطيين فى وقعة اليرموك ، وقاتل سعد بن أبى وقاص جيش الفرس فى القادسية . واستمر القتال يتراوح بين أسلوبي الصف والتعبئة الى أواخر العصر الأموى ، حين أبطل مروان بن محمد سنة ١٢٨ هـ قتال الصف ، وعُدل عنه الى قتال التعبئة . وظل نظام الجيوش على ذلك فى الدولة العباسية ، مع تعديلات فى أشكال التعبئة .

المعسكرات والاجناد والثغور والربط :

وعرف العرب كيف يحتفظون بالفتوح التى تمت لهم على قلة عددهم وكثرة أعدائهم المحيطين بهم ، ومرجع ذلك الى خطتهم فى اتخاذ معسكرات يقيمونها فى المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية ، ويشحنونها بالعتاد الحربى والجند المستعدين للحرب ، ومن هذه المعسكرات : البصرة والكوفة وواسط فى العراق ، واجناد الشام : حمص وقنيسرين ودمشق ، والاردن وفلسطين ، وهى التى أطلق عليها المسلمون أم-أجناد الشام ، والقسطاط والاسكندرية فى مصر ، وبرقة وطرابلس والقيروان فى المغرب .

وعنى المسلمون بتحسين أطراف فتوحهم مما يلى أرض العدو ، من أطراف الصين الى ساحل المحيط الاطلسى فاقاموا الحصون

والقلاع والربط عند كل مكان يخشى ان ينفذ منه العدو ، وسموا هذه بالثغور وشحنوها بالرجال والعتاد ووسعوا على أهلها الارزاق حتى يتفرغوا لحراسة حدود الدولة . وأهم مناطق الثغور الاسلامية منطقتان : الأولى منطقة ثغور الشام والجزيرة مما يجاور الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى ، وهى منطقة كان الغزو فيها يكاد لا ينقطع فى سنة من السنين صيفا أو شتاء زمن الامويين والعباسيين . والمنطقة الاخرى هى شمال الاندلس عند اطراف الدولة الفرنجية (فرنسا) وأسبان الشمال . وظلت هذه الثغور كلها منيعة حتى اذا ضعفت الخلافة وذهبت وحدة الدولة انتظمت الثغور ونفذ منها العدو الى الاراضى الاسلامية ابان الحروب الصليبية فى الشرق والغرب على السواء .

السلح:

سلح العربى فى الأصل القوس والرمح والسيف ، فالقوس للرمى بالسهم أول القتال ، فاذا تدانت الصفوف بدأ التطاحن بالرمح فاذا وقع الالتحام كان التضارب بالسيوف وهى أشهرها عندهم . ومن الاسلحة الوقائية عند العرب الخوذة والبيضة لوقاية الرأس والعنق ، والدرع لوقاية الجذع والأطراف، والترس لانتقاء ضربات الخصم . واستعمل العرب الجمل والحصان فى حروبهم ، فالجمل أداة انتقالهم فى الصحارى ، والحصان وسيلة السرعة فى السهول ، حينما كانت السرعة الكبيرة مطلوبة فى الحرب .

ولم يعرف العرب غير ذلك أول الامر ، غير أنهم أخذوا عن البيزنطيين آلات المنجنيق والدبابة والكبش ، وكلها لك الحصون والاسوار ، كما أخذوا عنهم النار الاغريقية . واقتبس العرب من الفرس انشاء الخنادق حول المدن والمسكرات وأول خندق حفره المسلمون هو الذى احتفروه الرسول حول المدينة بإشارة سلمان الفارسي ، فى الغزوة المعروفة باسم غزوة الخندق . ويؤخذ من كلام لابن خلدون أن عرب المغرب اخترعوا البارود واستخدموه فى حروبهم سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) أى قبل أن تعرفه أوروبا بنحو نصف قرن من الزمان .

رواتب الجند والاقطاع العسكرى :

لم يكن للجند عطاء معين على عهد الرسول ، بل قسمت الفنائم خمسة اقسام ، واحد منها للرسول واربعة الاخماس تقسم بالسوية بين رجال الجيش . وكذلك كانت الحال زمن أبى بكر . فلما جاء عمر لم يأخذ بمبدأ التسوية فى العطاء ، بل وضع للجند ديوانا رتبهم فيه بحسب قبائلهم وميز بينهم فى العطاء بحسب بلاتهم وسابقتهم ، فأعطى للمهاجرين والانصار الذين شهدوا غزوة بدر ٥٠٠٠ درهم فى السنة أى نحو ٤٠٠ جنيه ذهب . وكان عطاء الجندى العادى نحو ٦٠٠ درهم فى السنة أى نحو خمسة جنيهات ذهبا فى كل شهر ، وهو عطاء سخى بالنسبة الى عطاء الجندى البيزنطى وقتذاك . فلما جاء الأمويون زادوا فى عطاء الجند تألفا للقبائل والاحزاب . أما

العباسيون فلضخامة جيوشهم وتمويلهم على الفرس والترك دون العرب اضطروا الى نقص العطاء عما كان عليه من قبل . فلما ذهبت وحدة الدولة بتقلب المتقلبين على الاقاليم والنواحي اضطر الخليفة الى ان يعهد الى كل متقلب جباية أموال ناحيته فيطرح منها نفقات الادارة واعطيات الجند ويرسل الى بغداد كل سنة مبلغا معينا من المال . وجرى بنو بويه على هذا النهج ، ثم جاء السلاجقة الاتراك فوزعوا الاراضى بين أمراء الاسرة ، وأصبح كل أمير سلجوقى أميرا اقطاعيا فى ناحيته ، وبذلك أصبح الشرق الاسلامى شبيها بالغرب الأوروبى من هذه الوجهة ، واستمر طوال العصر المغولى والتركى حتى أوائل القرن الماضى .

رتب الجيش ، وعرضه ، ولواؤه وموسيقاه :

وفى العصر العباسى صار الجند رتبا ، فصار على كل عشرة رجال عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء بجنودهم (اى ١٠٠ رجل) . ثقيب ، وعلى كل عشرة ثقباء بجنودهم (١٠٠٠ رجل) قائد ، وعلى كل عشرة قواد بجنودهم (١٠.٠٠٠ رجل) أمير ، وربما كان الطراز الذى تطرز به ملابسهم مينا به رتبة لابسها على نحو ما هو حاصل فى ايامنا .

وجرت العادة منذ أيام الرسول عليه السلام على استعراض الجيوش قبل سيرها الى الحرب ، فاستعرض الرسول جيشه قبيل غزوة بدر ، وعنى بنو أمية وبنو العباس بالعرض ، وعينوا له يوما مسموه « يوم العرض » يجلس فيه الخليفة وعليه درعه وخوذته

وسلاحه ، ويمر به الجيش على رتبته . فاذا انتهى العرض عقدت الخليفة اللواء لأمير الجيش عند مسيره للحرب ، ويدعوله بالنصر وهو يسلمه إياه . ومن دون اللواء كان للجيش رايات وأعلام وينود ينشرها اذا سار للقتال . وعنى الخلفاء الامويون والعباسيون كذلك بفرقة الموسيقى للجيش ، وهى مؤلفة عادة من الطبول والابواق ، فاذا ادرك الجند التعب من طول السير دقوا الطبول وتفخوا فى الابواق ، فيسرى ذلك عنهم ، كما انهم يفعلون ذلك اثناء القتال فيدكى من حماسهم .

الاسطول

قيام البحرية الاسلامية :

لم يكن ركوب البحر والايغال فيه من شأن العرب اهل البداوة والصحراء ، وظلوا على ذلك حتى زمن الفتوح الكبرى ، فلم يستقروا فى الشام ومصر ، أدركوا خطر أساطيل البيزنطيين عليهم فأخذوا يعملون على أن تكون لهم قوة بحرية يدفعون بها عدوان الأعداء من ناحية البحر . وأول من عمل على ذلك معاوية بن أبى سفيان مدة ولايته الشام لعثمان بن عفان ، فاتته استاذن الخليفة فى غزو البحر فأذن له فأنشأ أسطولا ركبه فى سنة ٢٨ ، وافتتح به جزيرة قبرص صلحا . وحذت مصر حذو الشام واشتركت أساطيل الاقليمين فى غزو القسطنطينية .

واستخدم العرب عمال القبط والشاميين والبيزنطيين التابعين لهم فى صناعة السفن وتجهيزها واجرائها ، وشحنوها بالمقاتلة

من العرب ثم صار رجال الاسطول كلهم من المسلمين وسمى العرب مجموعة السفن الغازية في البحر « اسطولا » وهو لفظ يونانى الأصل عربوه واستعملوه .

ثم اكثروا من انشاء دور لصناعة السفن في سواحل الشام ومصر وأفريقية ، ومن كلمة « دار صناعة » العربية أخذت أوربا كلمة (ARSENAL) وهى تحريف للفظ العربى ثم جرف اهل الشام ومصر هذا اللفظ الاوربى العربى الاصل فقالوا ترسانة . وبلغت البحرية الاسلامية مبلغا عظيما من القوة في البحر المتوسط في القرون الاربعة الهجرية الاولى ، فغزت أساطيل المسلمين قبرص ورودس واقريطش ثم غزت أساطيل الدولة الاموية الاندلسية على عهد عبد الرحمن الناصر وأساطيل الدولة الفاطمية بأفريقية صقلية ومالطة وجنوب ايطاليا وسردانية وجزائر البليار حتى أصبح البحر المتوسط في القرن العاشر الميلادى بحيرة عربية ، وانحسرت عنه أساطيل البيزنطيين وغيرهم الى السواحل الشمالية لابترحها سفينة منها الا بحساب كبير .

فلما ذهبت ربح الدولة الاموية بالاندلس أوائل القرن الخامس الهجرى ، وضعف أمر الدولة الفاطمية فى مصر كذلك ، ضعفت البحرية الاسلامية وانحسرت أساطيلها عن معظم جزر البحر المتوسط ، فتجرات الاساطيل الاوربية على الظهور ، وغزت السواحل الاسلامية نفسها ابان الحرب الصليبية .

نعم ان أهل المغرب حافظوا على العناية بأساطيلهم زمن الدولة
الموحدية وبنى حفص بتونس وبنى مرين بمراكش ، لكن بذهاب
هذه الدول ذهبت قوة البحرية الاسلامية في غرب البحر
المتوسط ، وانفسح المجال أمام البحرية الاسبانية والبرتغالية
أبان الاستكشافات الجغرافية الكبرى .

وبنى المسلمون سفنهم على امثلة السفن البيزنطية والرومانية
بين كبيرة وصغيرة وشحنوها بالمقاتلة وبالات الحرب من مجانيق
ودبابات وأدوات الرمي بالنار الاغريقية .

وكان للأسطول قائد يدبر أمر الحرب والقتال في البحر ،
ورئيس يدبر أمر اجراء السفن وارسائها ، ونواتية يعملون بأمر
الرئيس . فاذا اجتمعت جملة أساطيل لحرب أو غرض آخر
ولوا عليها كبيرا من رجال الدولة يسمونه « أمير البحر » ومن
هذا الاسم جاء لفظ (اميرال) الاوروبى .

وبنى المسلمون في البحر الاحمر والمحيط الهندى سفننا
واساطيل اكثر مما كانت للتجارة مع ممالك الشرق الاقصى ولاسيما
الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ومع سواحل افريقية
الشرقية . وكانت لها قواعد بحرية مثل القلزم (السويس)
وعدن وسوفالا والبصرة وسيراف على ان معظم هذه السفن
لم تكن للدولة ، بل لافراد من التجار وكبار الممولين في تلك
الجهات .

حكومة الولايات

الولايات على عهد الخلفاء الراشدين :

لم يتقرر نظام الولاية على الاقاليم الا زمن عمر بن الخطاب ، وذلك عندما كثرت الفتوح واتسعت الدولة الاسلامية ، فولى عمر على الاقاليم امرأه أو ولاية ينوبون عنه في الاشراف عليها وتدبير أمورها . وكان عمال الاقاليم زمن الخلفاء الراشدين على وجه التعميم هم قادة الجيوش الذين افتتحوا تلك الاقاليم . وعملهم في أغلب الاحوال مراقبة سير الامور واقامة الصلاة وجباية الخراج . واشتد الخليفة عمر في مراقبة الولاة ، وحاسبهم عند انتهاء مدة ولايتهم ، وربما قاسم الوالى ماله اذا ثبت عنده انه استغل نفوذه في كسب ذلك المال .

ولايات الدولة الاسلامية على عهد الأمويين والعباسيين :

اشتملت الدولة الاسلامية على ست ولايات كبيرة زمن الأمويين وهى (١) الحجاز (٢) العراق والمشرق (٣) الجزيرة وارمينية (٤) الشام (٥) مصر والمغرب (٦) الاندلس .

اما زمن الدولة العباسية ، فصارت الدولة اربع عشرة ولاية ، وهى (١) الحجاز (٢) العراق (٣) الجزيرة (٤) الشام (٥) مصر (٦) المغرب (٧) خراسان وما وراء النهر (٨) الذليل (٩) اقليم الرحاب وهو اران وارمينية وآذربيجان (١٠) اقليم الجبال (١١) خوزستان (١٢) اقليم فارس

(١٣) کرمان (١٤) السند . وانقسمت كل ولاية الى عدد من الكور واختلف هنا العدد قلة أو كثرة باختلاف الاقاليم .

حكومة الولايات على عهد الأمويين والعباسيين :

وتنوعت ولاية الاقليم في الدولة الاسلامية نوعين :

(١) ولاية عامة وهى التى يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الاكفاء ، فيفوض اليه ولاية الاقليم نيابة عنه فيقيم للمسلمين صلاتهم ، ويقود الجند أو يختار من رجاله قائدا للجيش ، ويعين جانبا للخراج يصرف منه حاجات الادارة واعطيات الجند ، ويرسل مايقبى الى الخليفة . ويعين من شاء للقضاء بين الناس .

وتصرف الولاة الذين كانت اليهم هذه النيابة العامة في كل شئ . وأظهر ما كان الاستقلال الادارى في العراق في عهد زياد ابن أبى سفيان وابنه عبيد الله ، والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد القسرى . وكان الحجاج أكثرهم استقلالا للثقة التى حازها عند الخليفة عبد الملك وابنه الوليد . ومثل ذلك كانت أماره عمرو بن العاص الثانية على مصر ، وأماره عبد العزيز ابن مروان على مصر كذلك .

ومع قيام أولئك الولاة بحل المشاكل والمنازعات في حواضر الامارات ، كان لكل ذى ظلامة أن يرفعها الى الخليفة بعد ذلك فيقضى فيها . وضيق عمر بن عبد العزيز على الولاة بعض

التضييق ، فحتم عليهم ألا ينفذوا حدا من الحدود الشرعية من قتل او قطع الا اذا عرض عليه وأمر بتنفيذه .

(٢) اما الامارة الخاصة فان يقصر الوالى على الصلاة والحرب والقضاء ، ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع اليه راسا ، واغلب ولاية الاقاليم فى العصر العباسى الاول من هذا الصنف ، لاضطلاع الخلفاء العباسيين الاوائل بأمور الدولة بأنفسهم . ولذلك كثر عدد عمال الاقاليم فى ذلك العصر ، وقصرت مدد حكمهم بالقياس الى ما كانت عليه الحال فى الدولة الاموية .

قلما ذهبت وحدة الدولة العباسية ابتداء من اوائل القرن الثالث الهجرى ، وتغلب بعض الولاة على اقاليمهم بالقوة ، واقاموا بها دولا شبه مستقلة ، من طاهرية وسامانية وبويهية وطولونية واخشيدية ، ظهر نوع جديد من الولاية العامة على الاقاليم وهو الذى يسميه الفقهاء « ولاية الاستيلاء » ، لان الامير استولى بالقوة على الامارة ، ولا يسع الخليفة لضعفه الا أن يقر ما حصل ويبعث الى الامير المتغلب بعهدده ، وبثبیت الولاية فى أسرته من بعده .

الفضل الثاني

الحضارة الإسلامية في أزهى عصورها

أصولها

أنشأ المسلمون حضارة جديدة هي أبهى حضارات العالم في العصور الوسطى ، وهذه الحضارة الإسلامية التي بلغت أوج كمالها في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشرون الميلاديين) هي التي جعلت العصور الوسطى ، لا عصورا مظلمة كما سماها بعض المؤرخين ، بل عصورا مضيئة بالقياس الى ما سبقها في غرب أوروبا منذ أواخر أيام الدولة الرومانية القديمة الى أواخر القرن العاشر الميلادي . ومن الواضح ان المجال الذي تهيضت فيه الحضارة الإسلامية هو موطن معظم الحضارات في الشرق القديم ، فلانماص من حدوث تجاوب بين القديم والجديد في مثل هذه الحال . ومع أن المسلمين أخذوا من الحضارات التي سبقتهم أو عاصرتهم شيئا غير قليل ، فانهم تناولوا ما أخذوه من هذه الحضارات بالتغيير والتبديل والحذف والاضافة . ونجم عن هذا كله حضارة جديدة قامت ، لها طابعها الخاص ، هو طابع الاسلام واللغة العربية .

ويمكن ارجاع الحضارة الاسلامية الى اصول أربعة استمد المسلمون من كل منها قدرا واضحا ، وهى (١) الاصل الاسلامى (٢) الاصل العربى (٣) الاصل الفارسى (٤) الاصل اليونانى .

١ - الاسلام :

الاسلام هو الدين الرسمى للدولة الاسلامية ، وهو عقيدة السواد الاعظم من سكانها ، وهو قسمان : عقائد واعمال . فالعقائد تنتظم الايمان بالله واحد هو رب العالمين والايمان بالبعث بعد الموت وبالثواب والعقاب فى الدار الآخرة . وأما الاعمال فمنها اعمال تنزل منزلة العقائد ، وهى الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومنها أعمال تتصل بالأخلاق وهى التحلى بمكارم الأخلاق ، وآداب اللياقة ، وأوفاء بالعهد ، والصبر فى الشدائد ، والعدل مع من أحببت أو كرهت ، وعفة النفس ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومنها أعمال هى عبارة عن تطبيق ما جاء به الشرع خاصة بالاسرة ، أو المعاملات التى تجرى بين الناس ، والجنايات التى تقع فى المجتمع ، وشئون السلم والحرب ... الخ .

واللإسلام اثر بالغ فى الحياة الفكرية للمسلمين ، وبفضله نشأت بين المسلمين من عرب وغير عرب علوم التفسير والحديث والفقه ، والنسب والمغازى أو علم التاريخ . والإسلام يحث على النظر والتفكير فى الكون الذى نعيش فيه ، وفى ظواهره المختلفة ، فإدى ذلك الى الاشتغال بالعلوم الكونية على اختلافها ، وهى

الجغرافيا والكيمياء والفيزياء (الطبيعة) والفلك والطب والرياضيات . فانت ترى أن الاسلام هو ينبوع الاول والاعظم للثقافة الاسلامية ، وهو الذى انطبعت حياة المسلمين بطابعه ، سواء فى ذلك نظمهم العامة والسياسية والادارية والمالية وأحوالهم الخاصة والعامة وكذلك فنونهم وآدابهم .

٢ - الثقافة العربية :

يأتى بعد الاسلام ينبوع ثان اقل منه شأنًا بطبيعة الحال ، ولكنه ذو اثر كبير فى بناء الحضارة الاسلامية . ذلك هو الثقافة العربية ، اذ المعروف أن العرب هم العنصر الفعال فى الدولة الاسلامية ولاسيما فى صدر الاسلام . ولهؤلاء العرب ثقافة انفردوا بها ، ومثال ذلك أن حرصهم على انسابهم أدى الى قيام علم النسب لمعرفة انساب القبائل والافراد ، وظهرت فى الانساب كتب كثيرة لابن الكلبي وابن حزم وغيرهما . وللعرب فى الجاهلية والاسلام شعراء هم حملة لواء الشعر العربى على العموم ، وهذا الشعر فوق كونه الفن العربى الممتاز ، هو كذلك ديوان أخبار العرب وسجل أحداثهم وكنز لغتهم وبلاغتهم . ومن أجل ذلك جمعه أهل الادب وشرحوه لبراعته الفنية من جهة ، وللإستشهاد به فى تجديد معانى الالفاظ الغامضة ، فضلاً عن جلاء الحوادث التاريخية من جهة أخرى . وللعرب حظ موفور من الامثال والكلم الجامعة ، يوردونها فى المناسبات . وعنى العلماء بجمع هذه الامثال العربية فى كتب خاصة ، ومنها كتاب الامثال للميدانى ،

كما عنيت طائفة أخرى من العلماء بأيام العرب في الجاهلية وتاريخ ممالكهم قبل الاسلام ، وفتوحهم العظيمة بعد ان أضحو مسلمين .

واسهم العرب في بناء الحضارة الاسلامية بالآداب والعادات التي اتصفوا بها ، من حيث الشجاعة ، والانفة من الضيم ، وحفظ الجوار ، واحترام المرأة ، واکرام الضيف ، والولع بالشعر وفصاحة اللسان . وشاعت هذه الآداب في المجتمع الاسلامى ، حتى بعد ذهاب نفوذ العرب السياسى ، وعنهم انتقلت الى أوروبا في اعقاب الحرب الصليبية ، فامتزجت بالنظام المعروف في أوروبا بالفروسية .

٣ - الثقافة الفارسية :

وهناك ينبوع ثالث عظيم استمدت منه الحضارة الاسلامية ، وهو حضارة بعض الامم القديمة المتحضرة التي دخلت في الاسلام ، ولا سيما الفرس .

والفرس امة عريقة في القدم وذات حضارة عظيمة ازدهرت ومن الدولة الساسانية . ونيفت دولة الساسانيين في فنون السياسة والادارة والحرب ومظاهر الترف والرفاهة . وكان لها دين رسمى هو الدين الزرادشتى ، ولفة ذات ادب وحكمة هى الفهلوية . فلما فتح العرب بلاد فارس وقوضوا عرش الدولة الساسانية ، دخل الفرس في الاسلام أفواجا ، وصاروا موالى للفاتحين من العرب . وبدخلهم في الاسلام اطرحو الزرادشتية

والفهلوية ، واقبلوا على الاسلام يدرسونه ، وعلى اللغة العربية يحصلونها . ولم يمض طويل زمن حتى اضحوا هم أغلب القائمين على الحركة العلمية والتأليف في مختلف العلوم . وافادت الحضارة الاسلامية من ذلك فوائد جمة ، فكثير من اللفاظ الفارسية التي تعبر عن مظاهر الحضارة والتي ليس لها مقابل في العربية نقلت بذاتها الى اللغة العربية ودخلت في بنيتها . كذلك فن الغناء الذي لم يكن للعرب منه حظ يذكر قبل الاسلام ، انتقل من الفرس الى العرب في صدر الدولة الاموية ، ونبغ كثير من موالى الفرس ، ومنهم عبيد الحميد الكاتب وابن المقفع في الكتابة ، واسماعيل بن يسار وبيشار وأبى نواس في الشعر . وكل هؤلاء ادخلوا على النثر العربي والشعر العربي أساليب وتعبيرات وأخيلة لم تعرفها العرب من قبل . ثم استفاضت في العصر العباسي حركة تأليف الموالى في مختلف العلوم الاسلامية على الاطلاق .

ويمكن القول في هذا المقام ان الفرس اصفوا على المجتمع الاسلامي آدابا ومواصفات رقت من حواشيه ، ومن هذه مجالس الغناء والمنادمة ، والتأنق في الطعام والشراب ، والزحرف في الملبس والسكن .

٤ - الثقافة اليونانية :

والمؤثر الاجنبي الثاني هو الثقافة اليونانية (الهلينية) . واليونان امة عريقة في الفلسفة والعلوم والفنون والآداب ، ظهر

فيها اساطين الفكر في العالم القديم ومنهم سقراط وافلاطون وارسطو. وانتشرت ثقافتهم في الشرق على اثر فتوح الاسكندر وقيام اسر يونانية حاكمة في الشام ومصر خاصة . وفي القرون السابقة على مجيء الاسلام نقل السريان في الشام وجزيرة العراق الى لغتهم السريانية كثيرا من تأليف اليونان في الفلسفة والطب والرياضيات والكيمياء والفلك والجغرافية ، وعلقوا عليها وشرحوها . ثم انهم انشأوا المدارس لتعليم هذه العلوم في الحواضر الكبرى ومنها انطاكية وقيصرية ونصيبين والرها ، كما قامت بالاسكندرية مدرسة لتعليم الطب اليونانى واخرى بجنديسابور في اقليم خوزستان. وبذلك انتشرت الثقافة والعلوم اليونانية في اقطار الشرقين الادنى والوسط ، بل جاوزتها على ايدى مهاجرة النساطرة الى بلاد الهند نفسها .

وفي العصر العباسى عهد خلفاء العباسيين ولاسيما المأمون الى طائفة من السريان ان ينقلوا الكتب اليونانية المعتمدة في العلوم المذكورة الى اللغة العربية . فنقلوا الكثير منها الى العربية عن السريانية ، وبعضها عن اليونانية رأسا . وبذلك انتقلت الثقافة اليونانية الى المسلمين وهى اساس علوم الفلسفة والطب والكيمياء والرياضيات والفلك والجغرافية عندهم . ومما يحسن التنبيه اليه انهم لم ينقلوا شيئا من ملاحم الاغريق ومسرحياتهم العظيمة ، ذلك لان العرب اعتزوا بشعرهم واعتقدوا انه فوق كل شعر آخر وربما صرفهم عن نقل هذه الآداب ما فيها من

ذكر آلهة اليونان واساطيرهم مما ينبو عنه ذوق العربى المسلم
فى ذلك الزمان .

(٢) الاحوال الاجتماعية والاقتصادية

اولا - الحياة الاجتماعية

عناصر المجتمع :

تألف المجتمع فى ازهى عصور الدولة الاسلامية من عناصر او
طبقات مختلفة الاقدار الاجتماعية ، فالطبقة الاولى تشمل
ال خليفة وأهل بيته ، وكبار رجال الدولة ، وافراد البيت الهاشمى ؛
ثم جمع غفير من اتباع هذه الطبقة من الجند والحراس
والاصدقاء والندماء والموالى والخدم .

وغالبية الخدم فى الدولة الاسلامية من الرقيق المحبوب من
الشعوب غير الاسلامية ، وهم اما اسرى حرب ضرب عليهم الرق
او اشتروا بالمال زمن السلم . وجاء معظم الرقيق الابيض من
بلاد اليونان والصقالبة والارمن والبربر . وبعض هؤلاء كانوا
خصيانا يقومون بخدمة الحريم داخل قصور الخلفاء وكبار
رجال الدولة .

أما الاناث من الخدم فكان جوارى يحسن الفناء والرقص وعلى
قدر موفور من الثقافة . واتخذ الخلفاء والامراء منهم السريات
والمحظيات ، وغدا لبعض هؤلاء الجوارى نفوذ على موالىهن .
واقترنت الجارية لجمالها او لما تحسن من فن او علم او رواية ،

وربما بلغ ثمن الجارية الموفرة الحظ من هذه الصفات نحو ١٠٠٠ ر. ٨٠٠٠ جنية ذهباً .

ويلى هذه الطبقة الاولى طبقة اخرى تشبه أن تكون طبقة ارسقراطية وهى تتألف من العلماء والادباء والشعراء ورجال الفن وكبار التجار واصحاب المهن والصناعات الكبرى . وكان لافراد هذه الطبقة رجحان فى الميزان الاجتماعى بما اوتوا من مواهب او من ثراء عريض .

ثم تاتى الطبقة الثالثة وهى طبقة العامة وسواد الامة من الفلاحين وسكان القرى ، والغالب على هؤلاء اول الامر انهم كانوا من اهل الذمة ثم شاع فيهم الاسلام .

اهل الذمة :

ويقال لهم ايضا « اهل العهد » وهم الذين بقوا على دينهم سواء كان النصرانية او اليهودية على شريطة ان يؤدوا الجزية للدولة . اما النصارى فكان أغلب اهل القرى منهم ، وكما سمح لهم بالاحتفاظ بدينهم سمح كذلك لهم بالاحتفاظ بلغتهم ، من آرامية وسريانية فى الشام والعراق ، وايرانية فى فارس ، وقبطية فى مصر ، ثم غلب عليهم الاسلام واللغة العربية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين . وكان من يعتنق منهم الاسلام يهجر الريف وينتقل الى المدن الكبيرة .

وعاش اهل الذمة فى مستوى اجتماعى من جهة الواقع دون

مستوى المسلمين، غير أن ذلك لم يمنع بتاتا من وصول بعضهم الى منصب الوزارة او مناصب اخرى هامة في شئون الدولة المالية والكتابية، بل يكاد يكون جميع الاطباء المختصين بالخلفاء العباسيين الاوائل من النصارى . وأثرى كثير من أهل الذمة ثراء كبيرا الى درجة اثارت غيرة العامة من المسلمين ، وأدى ذلك احيانا الى وقوع حوادث وفتن أدت الى التضييق على أهل الذمة من النصارى مثلا، ولا سيما في اوقات الحروب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية، اذ كان يظن انهم مع البيزنطيين كما حدث زمن المتوكل العباسي . على أن ذلك لم يؤثر في الحرية الدينية ورعاية شئون النصارى حيثما كانوا ، وكان لهم رئيسهم الروحي الذي يسمونه الجاثليق ، وهو تعريب كلمة لاتينية تطلق في العصر الحاضر على الكاثوليك .

أما أهل الذمة من اليهود ، فكانوا أقل عددا واحسن حالا من النصارى على وجه التعميم ، لانهم تعاطوا اعمال الصرافة المالية ، ولأن بعضهم شغل مناصب كبيرة في الدولة في كثير من العهود . وكان لليهود في بغداد جالية مشهورة وكثيرة العدد ، وتولى شئونهم الدينية ربانهم الاكبر في كثير من الحرية والاستقلال ، فاذا أراد هذا الرئيس لقاء الخليفة ركب اليه في كوكبة من الفرسان ، وعليه ثياب الحرير المطرزة ، وعلى رأسه عمامة بيضاء مرصعة بالجواهر ، وبين يديه مناد يفسح له الطريق .

طوائف اخرى من اهل الدمة :

الصائبة اول هذه الطوائف الاخرى وكانوا ينزلون سواد العراق ولهم عقيدة مختلطة من اليهودية والنصرانية ولا تزال بقيتهم في العراق الى اليوم . والطائفة الثانية المجوس ، وهم اتباع الدين الزرادشتى ولا يزالون موجودين في الهند . والطائفة الثالثة البوذيون اتباع بوذا وكانوا في السند والهند . وانزلت الدولة الاسلامية هؤلاء جميعا منزلة اهل الدمة ، من النصارى واليهود وتقاوت منهم الجزية وتركتم احراارا في ممارسة عقائدهم وبشؤونهم الدينية .

لكن طائفة واحدة لم تنظر بهذه المعاملة السمحة ، وهى طائفة المانوية اتباع مذهب مانى الذى ينزع باصحابه الى الزهد المطلق فى الحياة والى عدم الانتاج المطلق . واطلق المسلمون على اتباع هذا المذهب فى العصر العباسى خاصة اسم الزنادقة ، وحاربوه كما حارب الهنود الساسانيون من قبل ، واشتد عليهم الخلفاء المهدي والهادي والرشيدي ، وانشئ لذلك ديوان خاص يعرف بديوان الزنادقة للبحث عنهم والضرب على ايديهم .

الاسرة الاسلامية :

ظلت المرأة فى العصر العباسى الاول تنعم بالحرية التى نعمت بها المرأة العربية المسلمة فى العصر الاموى ، بل انا لنسمع عن نساء من اهل الطبقة العليا فى العصر العباسى الاول امتزن بقوة الشخصية . وسعة النفوذ فى شئون الدولة امثال الخيزران زوجة الخليفة

المهدى ، والسيدة زبيدة زوجة الرشيد ، وبوران زوجة المأمون .
بل نسمع عن نساء عربيات قدن الجيوش وباشرن القتال ، ومنهن
الفارعة اخت الوليد بن طريف الخارجي الذي خرج في زمن
الرشيد . كما نقرأ عن نساء أخريات يقرضن الشعر ، ويتقن
الغناء ومنهن عبيدة الطنبورية التي اشتهرت زمن المعتصم بجمالها
وبراعتها في فن الغناء .

لكن هذه الحرية اخذت تتناقص شيئا فشيئا بتكاثر الاماء
والجوارى وانتشار التسرى وانحطاط الآداب ، ف ضرب الحجاب على
المرأة ولم يأت عصر الدولة البويهية حتى امسى الفصل تاما بين
الجنسين . وانحطت سمعة المرأة بصفة عامة حتى غدت توصف
بالمكر والخديعة وبغير ذلك من الصفات التي نجدها موصوفة بها
في قصص الف ليلة ليلة .

ومهما يكن من شيء فقد ظل الزواج في المجتمع الاسلامي امرا
واجبا على الرجل ، واحب المسلمون كثرة النسل ، وفضلوا
كعرب الجاهلية البنين على البنات وكانوا يمتدحون الزوجة التي
تقوم على خدمة زوجها ، ورعاية اولادها ، وتدبير شئون بيتها ،
فاذا بقى لها بعد ذلك شيء قضته في العمل بمغزلها أو منسجها .

وكانوا يعدون الرجل ظريفا مهذبا اذا كان وافر الادب ، جم
المروءة ، قليل الضحك والمزاح ، نظيف الثياب ، حسن الاكلة اذا
اكل ، وفيما بوعده ، كتوما للسر ، متجنباً لقرناء السوء .

ثانيا - الاحوال الاقتصادية

احتوت الدولة الاسلامية فيما احتوت عليه من الاراضى الشاسعة بضعة أقاليم تعد من أخصب أقاليم العالم تربة وأكثرها انتاجا ، وهى أولا مصر وبقاع الشام التى استولى المسلمون عليها من البيزنطيين ، وثانيا العراق وخراسان وما وراء النهر وسجستان التى كانت تابعة للدولة الفارسية الساسانية قبيل ظهور الاسلام . وساءت الاحوال الاقتصادية فى هذه الاقاليم جميعا بسبب الحروب الكثيرة بين الدولتين البيزنطية والساسانية ، وما ترتب على تلك الحروب من قلة الايدى العاملة فى الزراعة ، واهمال شئون الري ، وندرة المحاصيل ، مع ثقل الضرائب وشدة وسائل جبايتها من الناس . فلما فتح العرب هذه الاقاليم ، واخذوا فى تأمين احوالها الاقتصادية ، كى تصبح الدولة الاسلامية غنية بمرافقها ومنابع ثروتها ، قاموا فى كل من هذه الاقاليم باصلاح طرق الري خاصة . مثال ذلك ان عمرو بن العاص استخدم نحو ١٠٠.٠٠٠ عامل من المصريين فى اصلاح طرق الري فى مصر صيفا وشتاء ، وان العباسيين الاوائل جددوا حفر قنوات قديمة واستحدثوا قنوات جديدة بالعراق ، وذلك فيما بين الفرات ودجلة ، حتى اضحى ما بين هذين النهرين شبكة من القنوات ، بعضها قديم مجدّد ، وبعضها الآخر جديد مستحدث ، واطلقوا عليها كلها اسم النواظم ، لانها نظمت توزيع المياه بين الاراضى . وبذلك

أعاد العباسيون الى العراق شهرته القديمة بالخبص والنماء
ولاسيما الجزء الجنوبي المعروف عندهم بالسواد .

وأنتجت مصر من الحبوب الشعير والقمح والارز والسمسم
والعدس والفول ، ومن الألياف القطن والكتان ، ومن الثمار
الارنج (البرتقال) وقصب السكر ومختلف اصناف الفاكهة
والعسل والتمور ، وأنواع المقاتى (الخيار والقثاء) .

وأما انراق فأهم حاصلاتها التمور والقمح والشعير والمقاتى
والفاكهة ، والارز والكتان والورد والبنفسج .

ونافست خراسان ومعها ماوراء النهر أراضى مصر والعراق
فى تقدم الزراعة ووفرة الحاصلات وكثرة السكان ، ولا عجب
فرجال هذا الاقليم هم الذين أقاموا دولة بنى العباس . ويقول
الجغرافى ابن حوقل فى وصف المنطقة التى تحيط بمدينة
بخارى انه لم ير بلدا تحيط به المروج الخضراء والمزارع
والحدائق مثل احاطتها بمدينة بخارى بحيث لايقع البصر « الا
على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء ، وكان السماء مكبة
زرقاء على بساط أخضر » .

ويقال ان البطيخ حمل من خوارزم الى بلاط المأمون والوائق
فى أوعية من الرصاص مبطنة بالثلج ، فتباع الواحدة منه فى
فسداد بثمان يبلغ بضع مئتين من الدراهم . والحق أن أكثر
الفاكهة والخضر التى تنمو فى غرب آسيا فى وقتنا هذا كانت

معروفة فيه اذ ذاك ، عدا المانجو والبطاطس والطماطم التي جاءت من العالم الجديد في أمريكا أو من المستعمرات الاوربية في آسيا . ففي ذلك الزمن انتقلت شجرة اللارنج (البرتقال) من شمال الهند الى غرب آسيا ، ومن ثم نقلها العرب الى الاندلس . وزرع الفرس قصب السكر وصنعوا منه السكر ، فانتقل منها الى مصر وسواحل الشام ، حيث عرفه الصليبيون فيما بعد . وتقلوه وصناعة السكر كذلك الى أوروبا ، وأصبح مادة لا يستغنى عنها الانسان المتحضر في غذائه اليومي .

وعنى المسلمون عناية فائقة بتربية الازهار ، فزرعوها في مزارع واسعة بقصد تصدير اعطارها وادهانها ومياها . وراجت من أجل ذلك في دمشق شراز وغيرهما صناعة استخراج الادهان العطرية من الورد والنيلوفر ، وزهرالبرتقال والبنفسج . وحمل المسلمون ماء الورد من إقليم جور في فارس الى الصين شرقا ومراكش غربا ، ومن ماء الورد وعطره جاء في خراج فارس كل سنة ٣.٠٠٠ زجاجة الى قصر الخليفة في بغداد .

الصناعة :

لم تكن الصناعة أقل تقدما من الزراعة في هذه الاقاليم ، ولا سيما بعد ان خلقت الحياة الاجتماعية في الدولة الاسلامية انواعا من الترف ، فانتشرت في غرب آسيا صناعة البسط

والطنافس ، والمنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية ،
وأغطية الارائك والوسائد . وانتجت ائوال فارس والعراق
بسطا ومنسوجات نفيسة غالية الثمن ، ومنها النسيج المخطط
الذى يقال له « العتابى » الذى اشتهر به حى عتاب ببغداد ، نسبة
الى أمير أموى اسمه عتاب . وأعجب هذا النسيج العتابى اهل
اسبانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من بلاد أوربا حتى صار
معروفا عندهم باسمه العربى ، ومنه لفظ (TAPIS) ومعناها
البساط فى اللغة الفرنسية فى العصر الحاضر .

وصنعت الكوفة مناديل الحرير (الكوفية) التى تتخذ غطاء
للرأس ، واشتهرت مدن فارس مثل شيراز وأصفهان بصناعة
البسط والمطرزات والثياب السلطانية الخاصة . واشتهرت
سوريا ومصر بصنع الاوانى الخزفية وادوات الطبخ والمصابيح ،
وبصنع المنسوجات الحريرية المعروفة بالدمياطى والديقى
والتنيسى نسبة الى دمياط وديق وتنيس ، وهى المدن
الصناعية المصرية التى اوضحت ذوات شهرة عالمية اذ ذاك .

واشتهرت مدن صيدا وصور وغيرها من مدن الشام
بصنع الزجاج الذى ضرب به المثل فى الصفاء والركة ، واشتهرت
دمشق بصناعة الفسيفساء والقاشانى الذى تزين به جدران
الجوامع والبيوت الكبيرة من الداخل والخارج .

وانتقلت صناعة ورق الكتابة اواسط القرن الثامن الميلادى

من الصين الى سمرقند ، ومنها الى بغداد ، ومن بغداد الى مصر ومراكش والاندلس . وبمكتبة جامعة ليدن أقدم كتاب عربي مكتوب على الورق ، وهو كتاب غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ، وتاريخ نسخة الكتاب سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) . وفي القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي انتقلت صناعة الورق من البلاد الاسلامية الى ممالك أوروبا المسيحية حيث غدا الورق مستعملا للكتابة لأول مرة .

وبازدياد الثروة في الدولة الاسلامية صارت صناعة الحلي وصقل الاحجار الكريمة ذات شأن كبير في كثير من المدن ، فصار اللؤلؤ والياقوت الازرق والاحمر والزمرد والماس من الجواهر المفضلة عند الخلفاء والامراء وعلية الناس . أما الطبقة الدنيا ، فرغبت في الفيروز والجزع (أو العقيق اليماني) . ومن أشهر الجواهر في التاريخ الاسلامي ياقوتة حمراء كبيرة توارثها قديما ملوك فارس الساسانيين ، ثم صارت الى الخليفة الرشيد حين اشتراها بمبلغ ٤٠٠٠٠ دينار ونقش عليها اسمه ، وقيل ان هذه الياقوتة من الكبر واللمعان بحيث لو وضعت في الليل في حجرة مظلمة لاضاءت كالسراج .

واستخرج المسلمون الذهب والفضة والمرمر من جبال تخراسان ، والزئبق والياقوت من جبال ماوراءالنهر ، والرصاص والفضة من كرمان ، واللؤلؤ من البحرين والحديد من جبل لبنان .

التجارة :

وبتقدم الزراعة والصناعة واتساع الدولة نشأت تجارة عالمية واسعة على يد اهل الذمة من النصارى واليهود ومن في حكمهم كالزرادشتيين ، ثم تحولت هذه التجارة العالمية شيئا فشيئا الى المسلمين ولا سيما العرب الذين عرفوا التجارة قديما وكانت لها عندهم مكانة مرموقة ليست للزراعة ولا للصناعة . وسرعان ما استحال مرافئ برية وبحرية الى مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجارى البرى والبحرى ، واهمها بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والاسكندرية .

ووصل تجار المسلمين شرقا الى الصين من أجل المشاركة في تجارة الحرير ، وسافروا اليها عن « طريق الحرير العظيم » الذى يمر من سمرقند وتركستان . وورد في بعض الوثائق الصينية القديمة اسم أمير المؤمنين ابي العباس واسم الخليفة هارون الرشيد ، مما يدل على قدم الصلة بين الدولة الاسلامية والصين . ووصل تجار المسلمين الاولين غربا الى مراکش واسبانيا ، وجنوبا الى سواحل أفريقيا الشرقية وجزيرة مدغشقر وأخبر السعوى المؤرخ ان الخليفة هارون الرشيد فكر فى الوصل بين البحرين الاحمر والمتوسط بقناة وذلك قبل ديلبسس بأكثر من ألف سنة . وأما شمالا فوصل تجار المسلمين فى القرن العاشر الميلادى الى الاقاليم التى يجرى فيها نهر الفلجا ، وغدا بحر قزوين والجهات المحيطة به مجالا لنشاطهم بصفة خاصة .

وحملت قوافل التجار المسلمين واساطيلهم التجارية احمال التمر والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والسيوف وآنية الزجاج الى اقاصى آسيا وبقريقيا ، وعادت منها محملة بالتوابل والكافور والحريير من اقاصى القارة الاسيوية ، والعاج والابنوس والرقيق الاسود من القارة الافريقية .

وقصص السندباد البحرى وغيرها من قصص كتاب الف ليلة وليلة تعطى صورة لمقامرات هؤلاء التجار فى سبيل الثراء ، كما تلقى ضوءا على أسواقهم ومعاملاتهم التجارية . وظهر غير واحد فى الدولة الاسلامية من كبار التجار ممن بلغت ثروتهم بملايين الدنانير ، وذلك فى بغداد والبصرة خاصة ، على نحو ماشهد فى الولايات المتحدة الامريكية فى العصر الحاضر .

النظم المالية

- الاموال التى استحققتها الدولة الاسلامية من رعاياها نوعان :
- ١ - مال تتقاضاه الدولة من المسلمين خاصة ، وهو الزكاة . ولا حق للدولة فى مال المسلم غير الزكاة .
 - ٢ - مال تتقاضاه الدولة من اهل الذمة ومن اعتبروا فى حكمهم من الطوائف ، وهى جزية الرعوس وخراج الارض وضرائب اخرى ثانوية . ومطلق على هذه كلها اسم (الفىء » ، تمييزا لها من اموال غنائم الحرب .

الزكاة :

ويقال للزكاة أيضا الصدقة ، وهى تؤخذ من الاغنياء فى كل
جهة اسلامية وتفرق فى فقرائها .

والاموال التى تكون فيها الزكاة اربعة انواع (١) الماشية
(٢) والذهب والفضة (٣) والثمار (٤) والزروع .

والماشية تشمل الابل والبقر والغنم . ولها حد ادنى لا تؤخذ
فيما دونه زكاة ثم ترداد الزكاة فيما فوق الحد الادنى بزيادة عدد
الماشية . وكل ذلك وارد بالتفصيل فى احكام السنة .

رأما الفضة فليس فيما دون ٢٠٠ درهم زكاة ، وأما ما بلغ
٢٠٠ درهم فأكثر فتؤخذ زكاته بنسبة ٢٥ ٪ . ومثل ذلك
الذهب ، فليس فيما دون العشرين مثقالا زكاة ، وما زاد فيؤخذ
عن كل عشرين مثقالا نصف مثقال . ومثل الذهب والفضة
أموال التجارة .

وأما الثمار وتشمل ثمار النخل والكرم والزيتون وغيرها من
اشجار الفاكهة فتختلف زكاتها باختلاف نوع سقايتها . فاذا
سقيت بغير مشقة ، أى بماء المطر أو الأنهر الجارية ، فزكاتها
العشر . وإذا سقيت بمشقة فنصف العشر . وعلى كل حال
لا تستحق الزكاة على الثمار الا اذا بلغت كمية معينة ، وهى
خمسة أوسق فأكثر .

وأما الزروع ، وهى الحبوب بأنواعها من القمح والارز واللوبيا
والحمص والعدس ونحوها ، فحكمها فى الزكاة حكم التمار .

المستحقون للزكاة :

عين القرآن الاوجه التى تصرف فيها أموال الزكاة ، وذلك فى قوله تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ؛ وفى سبيل الله وابن العييل » . ولذا جرى تقسيم مال الزكاة ثمانية أسهم : السهم الاول للفقراء وهم الذين لا يملكون شيئاً ، بشرط أن يأخذ الفقير الواحد اقل من ٢٠ درهم ، حتى لا تستحق عليه الزكاة . والسهم الثانى للمساكين ، وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم ، وقيل بل هم فقراء اهل الدمة ، كما ورد عن عمر بن الخطاب . والسهم الثالث للعاملين على الزكاة أى الذين يتولون جبايتها ، فيأخذون اجورهم منه . السهم الرابع يفرق فى المؤلفة قلوبهم ، وهم الذين تتألفهم الدولة ، اما لكف اذاهم عن المسلمين أو لترغيبهم* أو ترغيب / عشائريهم فى الاسلام . والسهم الخامس يذهب فى شراء الارقاء وعتقهم . والسادس للغارمين وهم العاجزون عن وفاء ديونهم ، فيعطون منه ما يقضون به ديونهم . والسابع ينفق فى سبيل الله ، أى يعطى منه للغزاة المجاهدين نفقة ما يحتاجون اليه من عدة الحرب . والسهم الثامن لانباء السبيل وهم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم .

الضرائب التى تؤخذ من أهل الذمة :

فانت ترى مما تقدم أن الدولة مقيدة فى جباية أموال الزكاة وانفاقها بالكتاب والسنة ، فمن أين تأتى الدولة بالمال اللازم للمصالح العامة من عمارة المساجد وصيانة الطرق ، وحفر الابار ، وكرى الترع وانشاء الخلجان ؟ ومن أين تأتى بنفقات الجند ورواتب العمال ؟ والجواب أن الدولة حصلت على المال اللازم لكل ذلك من الضرائب التى تتقاضاها من أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن جرى مجراهم من المجوس والصائبين . وهذه الضرائب نوعان هما : الفى والغنائم ، أى غنائم الحرب .

والفى لفظ يطلق على الاموال التى تجبها الدولة من أهل الذمة واشباههم من الطوائف ، على هيئة جزية أوخراج بصفة خاصة . ذلك انه لما فتح العرب العراق وغيره من الاقطار ، أراد الجند تقسيم الارض الزراعية عليهم قسمة أموال الغنائم ، فأبى عمر بن الخطاب عليهم ذلك . وجرى فى الامر جدل ونقاش كثير ، ثم استقر رأى كبار الصحابة على أن تكون الارض ملكا للدولة ، وأن يعهد الى من عليها من أهل الذمة باستغلالها على أن يؤدوا عنها للدولة الجزية عن رعوسهم ، والخراج عن الارض التى يزرعونها ، وأن يعوض الجند باعطيات أو رواتب تصرفها لهم الدولة .

وعلى ذلك وضع عمر الجزية على الرعوس والخراج على الارض ودون ذلك فى سجلات ، كما فعل الفرس والبيزنطيين ، وهو المعبر عنه بتدوين الدواوين . وكانت السجلات تكتب أول

الامر باللغات الاجنبية ، ثم عربت زمن عبد الملك بن مروان .

ويطلق لفظ الجزية على عهد الرسول وأبى بكر وصدر خلافة عمر على المال الذى يؤديه اهل الذمة للدولة ، سواء كان ضريبة دعوس أو ضريبة ارض . فلما فتح المسلمون اقاليم الفرس والبيزنطيين ، ووجدوا أن لكل من النوعين اسما خاصا ، تخصص لفظ الجزية بضريبة الدعوس ، ولفظ الخراج بضريبة الارض .

ولم تكن الجزية اول الامر محددة المقدار ، ثم تعين مقدارها على الرجل الغنى ٤٨ درهما فى العام ، وعلى المتوسط الحال ٢٤ درهما ، وعلى الفقير ١٢ درهما . وأعفت الجزية أبناء اهل الذمة من الخدمة العسكرية ، فاذا اعتنق الذمى الاسلام سقطت عنه الجزية ، وصار مطلوبا للخدمة العسكرية . ولم تطلب الدونة ضريبة الجزية على النساء أو الصبيان أو ذوى العاهات أو الشيوخ أو الرهبان المنقطعين للعبادة .

اما الخراج فالغالب أن المسلمين اتبعوا فى تقديره النظام الذى كان متبعاً فى كل اقليم قبل أن يفتحوه ، وهو فى بعض الجهات نظام المقاسمة للمحصول بعد تمام نضجه ، أى أن تأخذ الدولة حصة لا تزيد على النصف ولا تقل على الخمس ، وتترك الباقى لصاحب الزراعة . وفى جهات أخرى جرى تقدير الخراج على نظام خراج المساحة ، أى أن تأخذ الدولة الخراج باعتبار مساحة معينة ، وهى الفدان فى مصر ، والجريب فى العراق . وقد يكون الخراج على نظام خراج المقاطعة ، أى تقدر الدولة حصتها تقديرا

ثابتاً لا يتأثر بزيادة المحصول أو نقصانه ، بخلاف الحال في النوعين الآخرين على ما يظهر .

وفرضت الدولة عدة ضرائب أخرى ثانوية تلحق بالخراج ، ومنها أعشار السفن التي تمر ببعض الثغور الإسلامية ، فيؤخذ منها العشر إما عينا أو نقداً ، واخماس المعادن المستكنة في باطن الأرض ، فيؤخذ عنها الخمس .

أما غنائم الحرب ، فهي ما يستولى عليه المسلمون من أعدائهم بالحرب ، أي (١) الأسرى (٢) والسبي (٣) والاموال المنقولة (٤) والأراضي .

فأما الأسرى ، وهم رجال العدو المقاتلون الذين يقعون في الأسر ، فولى الأمر مخير بين أن يمن عليهم ويطلقهم ، وبين أن يأخذ الفداء عنهم ، والمال المأخوذ على هذه الصورة يضم إلى باقي الغنيمة . وأما السبي فالمقصود به النساء والأطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين أثناء الحرب ، فلا يجوز قتلهم وإنما يفرقون في جملة الغنيمة ، ويجوز قبول الفداء عنهم . وأما الاموال المنقولة ، وهي الماشية وعتاد الحرب الذي يصير بعد الوقعة إلى المسلمين ، فيدخل في جملة الغنيمة ويفرق كما سيأتي . وأما الأراضي التي يكتسبها المسلمون بالحرب فلا تدخل في جملة الغنيمة ، بل تعامل على نحو ما تقدم في الكلام عن الفداء .

تقسيم الغنائم :

وعين القرآن طريقة تقسيمها ، وذلك في قوله تعالى « واعلموا أن

ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وسرر - والذي اتقربى
واليتامى والمساكين وابن السبيل « فتقسم اموال الغنيمة من
فداء وسبى وأموال منقولة خمسة اقسام ، أربعة منها للمقاتلة
توزع عليهم بالسوية ، ثم يقسم الخمس الباقي ، الذى هو
لرسل ، الى خمسة أسهم ، سهم ينفق منه على نفسه وعلى
ازواجه وفي مصالح المسلمين ، وسهم يفرق فى ذوى قربنى الرسول
وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو مناف ، وسهم لليتامى من
ذوى الحاجات ، وسهم للمساكين الذين لا يجدون ما يكفهم ،
والسهم الخامس لابناء السبيل ، وهم الذين لا يجدون نفقة
السفر .

ديوان الجند :

تنفيذا لما تقرر من جعل الارض الزراعية فى البلاد المفتوحة ملكا
عاما للدولة ، وصرف اعطيات الجند مما يتبقى من مال الفى بعد
طرح جميع نفقات الادارة ، انشأ عمر بن الخطاب ديوان الجند ،
ودون فيه اسماء جميع الذين يستحقون عطاء ، ورتب الاسماء
بحسب القبائل ، وجعل عطاء كل مستحق بحسب قرابته للرسول
او بحسب سابقته فى خدمة الدولة والدعوة الاسلامية او مبلغ حفظه
للقرآن . وهو احصاء طريف حقا ، ويعتبر الاول من نوعه فى
التاريخ . ولذا جاء ازواج النبى عليه السلام فى راس السجل ،
وبلغ عطاء كل منهن يختلف بين ١٢.٠٠٠ درهما فى العام وهو
عطاء السيدة عائشة ، ١٠.٠٠٠ درهم ، وهو عطاء كل من سائر

أزواجه . ثم المهاجرون والانتصار ، واختلف عطاء كل منهم باختلاف سبقه الى الاسلام ، وبلغ متوسط ما يأخذه الواحد من هذه الطبقة بين ٤٠٠ ر. ، ٥٠٠ ر. درهم في العام ، ثم بقية المستحقين من سائر القبائل العربية ، مرتبين بحسب سابقتهم أو علمهم بالقرآن . وتراوح أقل عطاء للجندي العادي بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ درهم في العام ، وأقل عطاء حتى للنساء والاطفال والموالي بين ٢٠٠ ، ٦٠٠ درهم -

اعتبار الخراج حقا عينيا على الارض :

حدث في أثناء القرن الاول الهجري أن دخل كثير من أهل الذمة في الاسلام ، وأصبحوا من الموالى ، فسقطت عنهم الجزية وصارت أرضهم الزراعية أرض زكاة لا أرض خراج . وهجر كثير من أولئك الموالى الداخلين في الاسلام الريف الى المدن الكبرى ليلتحقوا بالجيش وصار لهم عطاء ، بمقتضى النظام الذى وضعه عمر بن الخطاب . وترتب على ذلك أن تناقص دخل بيت المال من الجزية والخراج ، وهما أهم موارد الدولة المالية . ثم حدث ابتداء من عهد الخليفة عثمان أن سمحت الدولة للعرب بأن يضعوا أيديهم على أراض زراعية خراجية في الاقاليم المفتوحة ، فأصبحت بتعليمهم لها تؤدى الزكاة فحسب ، وهى فى الجملة أقل من الخراج فازداد تأثر المال بتلك الحال . فلما جاء الحجاج عمل على تلافى كل ذلك بأن ألزم الموالى العودة الى الريف وأداء الجزية برغم اسلامهم ، كما ذهب الى فرض الخراج على العرب الذين وضعوا

أيديهم على أراض في الأقاليم المفتوحة. غير أن الشكوى عمت من هذه المعاملة. فلما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز وضع الجزية عمن أسلم من الموالى ، واعتبر الخراج حقا عينيا ثابتا على الأرض لا يتأثر بإسلام صاحبها ، وذلك بأن تضم الأرض إلى أرض القرية ولصاحبها أن يستأجرها بعد ذلك على شريطة أن يؤدي عنها الخراج ، كما نهى عن أن تصبح أرض خراجية إلى عربى بعد سنة ١٠٠ هـ . وبذلك أصبحت الأرض الزراعية في الدولة الإسلامية من ذلك الوقت اما خراجية يؤدي عنها الخراج ، واما عشرية يؤدي عنها الزكاة .

ويمكن أن يقال بوجه عام أن الأرض في الدولة الإسلامية كانت ملكا للدولة ، وأن الناس استغلوها على قاعدة أن يكون للحكومة نصيب من غلتها ، وذلك إلى أوائل القرن الماضي ، إذ تقرر تملك الفلاح الأرض التي يزرعها ، على نحو ما حدث في مصر خاصة .

ارتفاع الخراج :

المقصود بهذا التعبير مقدار ما يجبى من خراج كل إقليم سنويا ، ومع أنه ليس لدينا احصاء واف بما جبى من الخراج في العصور الإسلامية الاولى ، فمن المعروف أن العراق بلغ ارتفاع خراجه زمن عمر بن الخطاب ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم في العام ، وفي زمن الحجاج ١٨٨.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وفي أواخر الدولة الأموية ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، واما مصر فجبها عمرو بن العاص

..... ١٢٠٠٠ دينار ، وبلغت جبايتها زمن هشام بن عبد الملك
..... ٤٠٠٠٠ دينار ، ثم انحط خراجها في الدولة العباسية الى
..... ٨٠٠٠٠ دينار . غير أنه زاد زمن بن طولون الى ٣٠٠٠٠٠
دينار ، استمر خراجها نحو ذلك . وأما الشام فبلغ خراجها
زمن عبد الملك ابن مروان ٧٢٠٠٠٠ دينار .

ثروة الدولة الاسلامية في أزهى عصورها :

ولدينا ثلاث قوائم لايرادات الدولة العباسية في عصور ثلاثة ؟
وهي عصر المأمون وعصر المعتصم ، ومنتصف القرن الثالث
الهجرى والقائمة الاولى أوردها ابن خلدون ، ومنها نعلم أن
ماوصل الى بيت المال ببغداد زمن المأمون بلغ ٣٩٠٠٠٠٠ درهم
بما في ذلك الضرائب العينية . والقائمة الثانية أوردها قدامة بن
جعفر في « كتاب الخراج » ومنها نعلم أنه وصل الى بيت المال
على عهد الخليفة المعتصم بالله ٣٨٨٠٠٠٠ درهم ، بما فيها
الضرائب العينية . والقائمة الثالثة أوردها ابن اثير في
كتابه ، وتتعلق بجباية الدولة العباسية في أواسط القرن الثالث ؟
ويبلغ مقدارها ٢٦٥٠٠٠٠ درهم . وصفوة القول أن الدولة
الاسلامية كانت في أزهى عصورها من أغنى دول العصور القديمة
والعصور الوسطى ، ان لم تكن أغناها على الإطلاق .

الحياة الفكرية

غلبت الامية كما غلبت البداوة على العرب في جاهليتهم ، فلم يكن لهم علوم بالمعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ ، بل كانت لهم معارف متنوعة اكتسبوها بالمشاهد والتجربة ، او اقتبسوها من جيرانهم من الفرس والبيزنطيين والسرّيان ، ومن هذه معلومات بدائية فى طب الانسان ومعرفة اجزاء جسمه وعلاجه وعلاجها ، وطب الحيوان ولا سيما الخيل والابل ، ومعلومات اخرى تتعلق بالظواهر الجوية ، وهو ما عبروا عنه بالانواء ومهاب الرياح ومساقط الغيث ، ومعلومات فلكية تتصل بمواقع النجوم الثوابت والكواكب السيارة واوقات طلوعها وغروبها ، وهذه افادتهم فى اسفارهم خاصة . واشتغل العرب بمعرفة ما كان او يكون من الحوادث ، وهو ما يسمونه العرافة والكهانة ، ومهروا فى قدرة تتبع آثار الانسان والحيوان ، والاستدلال بها على اصحابها ، وهو ما اطلقوا عليه قيافة الاثر ، او تبين النسب بين شخصين من علاقات خلقية مشتركة بينهما ، وهو قيافة البشر .

فلما جاءهم الاسلام نقلهم من هذه الحال البدائية الى حال جديدة ، اذ فتح لهم آفاقا فسيحة من العلم والمعرفة . ومهد

لهذه الحال الجديدة أمران جليلان تم كل منهما في عهد الخلفاء الراشدين :

(١) جمع القرآن من الصحف التى كتب فيها الوحي زمن الرسول ، ومن صدور الرجال ، وذلك بتدوينه فى مصحف واحد ، أرسلت نسخ منه الى الامصار الكبرى ؛ وبذا أصبح للمسلمين نص واحد معتمد لكتابهم المقدس يستنسخونه ويقرؤونه ويتدبرونه دون اختلاف فيه .

(٢) نمو الخط العربى وانتشاره بين المسلمين ، وأخذ العرب الخط أصلا عن الحيرة القريبة من الكوفة ، ولذا اشتهر هذا الخط باسم الكوفى ، ثم أخذوا عن الانباط بشمال شبه الجزيرة نمطا آخر ، وهو المسمى بخط النسخ . وبذلك لم يعد العرب أميين ؛ بل أصبح أكثرهم يقرأ ويكتب ؛ وهو مالا يد منه فى التمهيد لكل حركة فكرية عامة .

ومن الطبيعى أن يأخذ العرب من علوم الحضارات التى امتدت اليها فتوحهم ما تمس اليه حاجتهم من تلك العلوم ، وإن تنمو بينهم علوم اقتضاها الاسلام نفسه ، من تفسير للقرآن وجمع وتدوين للحديث ، واستنباط للاحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، وهو المسمى بعلم الفقه . فلما دخل كثير من الاعاجم فى الاسلام ، وصاروا موالى فى الدولة الاسلامية ، أقبلوا على الاشتغال بالعلم والتأليف فيه ، ونشأ عن اشتغال

العرب والموالى بمختلف العلوم حركة فكرية أخذت تقوى وتعظم حتى بلغت الغاية حوالى منتهى القرن الرابع الهجرى ، وهى فى الواقع من أعظم الحركات فى تاريخ الفكر الانسانى بوجه عام .

وانخذت هذه الحركة مراكز مختلفة باختلاف محاور الارتكاز السياسى والفكرى فى الدولة الاسلامية وأقاليمها ، وهذه المراكز بحسب ترتيبها الزمنى هى : (١) فى الحجاز مكة والمدينة (٢) وفى العراق البصرة والكوفة وبغداد (٣) وفى الشام دمشق (٤) وفى مصر القسطنطينية . وازدادت هذه الحركة نشاطا وقوة منذ القرن الثالث الهجرى ، حين ظهرت مراكز أخرى فى فارس وخراسان وما وراء النهر وفى شمال أفريقيا والاندلس .

علوم اللغة

علم النحو :

ينبغى أن يكون واضحا كل الوضوح فى هذا الموضوع أولا أن العرب الذين غلبت عليهم الأمية والبداءة فى جاهليتهم ؛ أسهموا فى الحضارة الاسلامية وعلومها كلها فى العصور المختلفة بسهم عظيم هو اللغة العربية الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم ، واحتواها الادب العربى القديم وما فيه من نظم ونثر يشرح كل منهما مستويات الفكر والذوق الفنى والخلق والسلوك عند العرب .

ثم اختلط العرب بالاعاجم من الفرس والبيزنطيين والسرمان

ودخل كثير من أولئك الاعاجم في الاسلام ، فظهر اللحن في اللغة ، ومست الحاجة الى وضع قواعد تعصم اللغة العربية من الخطأ ، وهذا هو الباعث على وضع علم النحو . والرأى السائد ان ابا الاسود الدؤلى الذى وضع علم النحو ، او انه بوجه أصح هو البادى بوضعه . وصحب أبو الاسود الامام على بن أبى طالب ، ويقال انه بدأ بوضع النحو بإشارة الامام على نفسه . وعاش أبو الاسود الدؤلى في البصرة ، والظاهر انه اطلع على نحو السريان ، فنسج على منواله في وضع النحو العربى .

واشتغل علماء البصرة بالنحو في العصر الاموى وصدر الدولة العباسية ، ثم جازاهم في الاشتغال به علماء الكوفة ، غير أنهم خالفوا البصريين في بعض قواعده ، وصار لكل من الفريقين مذهب في النحو ينسب اليه .

ثم استوى النحو علما جليلا مستقلا بنفسه ، بعد أن وضع فيه سيبويه (توفى سنة ١٨٣ هـ) كتابه الكبير الذى هو عمدة هذا العلم وأساسه ، وأخذ العلماء يؤلفون فيه بعده ، في البصرة والكوفة وغيرهما من الامصار ، ولا سيما الاندلس .

علم اللغة :

واستحدثت الشريعة الاسلامية والنظم السياسية والادارية في الدولة والمجتمع الفاظا ومصطلحات لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وازدادت هذه الالفاظ والمصطلحات بما نقل المسلمون من اليونانية والفارسية من مختلف العلوم الطبية والرياضية

والفلسفية . ثم أدى ذلك السيل من المفردات الجديدة في لفظها واستعمالها الى البحث في مفردات اللغة العربية ، من حيث معانيها وأصولها وأشتقاقها وطرق تعريب الدخيل عليها . وتناول المسلمون ذلك أول الامر على شكل مجموعات منها مصطلحات موضوع واحد ، كالخيل ، والشجر ، والنخيل ، والكرم ، وخلق الانسان ، وغريب القرآن ، وغريب الحديث ، والمياه ، والجبال ، فحصلت عندهم بذلك مادة لغوية عظيمة استغلها واضعو المعاجم اللغوية .

واكبر واضعى المعاجم العربية في عصر النهضة الاسلامية الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٨٠ هـ ، ومعجمه يسمى « كتاب العين » ، لانه بدأه بالالفاظ البدوءة بحرف العين . وتبعه ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وله « الجمهرة » ، ثم الازهرى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، وله « كتاب التهذيب » ، ثم الجوهري المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ، وله معجم « الصباح » ، ولخص محمد بن أبى بكر الرازى من أهل القرن الثامن هذا المعجم فى كتاب سماه « مختار الصحاح » ، وهو متداول فى المدارس المصرية . وآخر أصحاب المعجمات فى عصر النهضة ابن سيده ، وله كتاب « المخصص » ، وهو معجم مواد مرتبة على المعانى لا الالفاظ ، ثم كتاب « المحكم فى اللغة » ، وهو أساس القاموس المحيط . وتشهد هذه المؤلفات بأن العرب اسبق الامم الى وضع المعاجم للفتهم فى التاريخ كله ، ما عدا أهل الصين فيما يقال .

علوم الدين

تفسير القرآن : ١

نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب كلامهم ، ومع ذلك لم يكن القرآن كله في متناول جميع الصحابة ، يستطيعون فهمه اجمالا وتفصيلا ، بل احتاج بعضهم أن يسأل عن معاني بعض الفاظه أو اشاراته أو عن سبب نزول آية من آياته . واشتدت هذه الحال بدخول الاعاجم في الاسلام ، فلم يلبث أن اشتهر بعض كبار الصحابة بالقول في تفسير القرآن ، وأكثر من روى عنهم تفسير له على بن ابي طالب ، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، وابي بن كعب . ثم اشتهر بعض التابعين بالرواية عن هؤلاء الصحابة . وبعد انقضاء عصر الصحابة والتابعين اخذ العلماء يؤلفون الكتب في تفسير القرآن ، وأعظم تفسير للقرآن هو تفسير ابن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) ثم تعددت التفاسير وتنوعت بين موجزة ومفصلة ؛ ولكل منها مزية معروف بها .

علم الحديث :

يراد بالحديث ما يروى عن رسول الله عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير ، واخذ الناس الحديث عن الصحابة ، ولا سيما الذين طال اتصالهم بالرسول ، ومنهم السيدة عائشة زوجة ،

وعمر بن الخطاب ، وأبى هريرة ، ثم ظهرت طبقة من التابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة . ولم يدون الحديث أول الامر ، كما دون القرآن ، بل ظل غير مدون في الجملة مدة القرن الاول ، يتناقله المحدثون مشافهة وحفظا في الذاكرة ، لانهم كرهوا ان يكون الى جانب القرآن كتاب اخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه . فلما ظهرت احاديث موضوعة لا يعرفها اعلام الصحابة والتابعين ، وتجرا الواضعون على رسول الله فنسبوا اليه احاديث غير صحيحة ، اشتدت الرغبة في تدوين الاحاديث الصحاح . ثم أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بعض من يوثق به من علماء الحديث بجمع الاحاديث ، فكتبت ودونت في دفاتر ، وارسلت منها نسخ الى انحاء الدولة الاسلامية . ثم استفاض التأليف في علم الحديث ، وهي كتب السنة وأهل الاجماع وأشهرها وأكثرها تداولاً « الجامع الصحيح » لأبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ . وأفادت اللغة العربية من تدوين الحديث فائدتين كبيرتين ، وهما ان لغة الحديث النبوى طبقة عالية من البلاغة ، ثم ان السنة هى المصدر الثانى للتشريع الاسلامى بعد القرآن ، وتدوينها هو الذى سهل لرجال الفقه والتشريع عملهم .

علم الفقه

وهو العلم بالاحكام الشرعية العملية المستنبطة من الأدلة التفصيلية ، والمراد بالاحكام الشرعية العملية كل ما يتعلق

بالعبادات والمعاملات والاحوال الشخصية والجنائيات والنظم العامة . واستنبط كبار الصحابة أحكام الشريعة من الكتاب والسنة ، فان لم يجدوا نصا صريحا لجأوا الى القياس أو الرأى أو الاجماع ، وعبروا عن ذلك بالاجتهاد . غير أن فقهاء الحجاز مالوا الى الاستمسك بالكتاب والسنة ، لاستفاضة الحديث عندهم ، ولم ينجحوا الى الاخذ بالقياس والاجماع الا عند الضرورة القصوى . أما فقهاء العراق ، فقللة رواية الحديث عندهم صاروا الى الاخذ بالقياس والرأى فيما ليس فيه نص صريح فى كتاب أو سنة مشهورة . ولذلك عرف فقهاء الحجاز بأهل الحديث ، وفقهاء العراق بأهل الرأى والقياس ، وزعيم الاولين الامام مالك بن أنس ، وزعيم الآخرين الامام أبو حنيفة . وفى القرن الثانى من الهجرة ابتداء ظهور نوابغ الفقهاء ، ومن آرائهم نشأت المذاهب السنية الاربعة المعمول بها حتى يومنا هذا . وأصحاب هذه المذاهب على حسب ترتيب وفياتهم هم : الامام أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، والامام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، والامام الشافعى الذى مزج فى مذهبه بين طريقة أهل الحجاز وطريقة أهل العراق ، وأتم مذهبه فى مصر حيث توفى سنة ٢٠٤ هـ ، والامام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ، وهو امام أهل الحديث فى عصره . ولكل من هؤلاء الائمة تلاميذ أخذوا الفقه عن امامهم ، والفوا الكتب على مذهبه ، وعملوا على نشره فى البلاد .

علم أصول الفقه :

ولم يكتف الفقهاء باستنباط الاحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، بل وضعوا لذلك من القواعد ما يضبطها ويحكمها ، واطلقوا على مجموع هذه القواعد اسم « علم أصول الفقه » ، وأول من كتب في هذا العلم الامام الشافعى .

والخلاصة ان المسلمين استنبطوا الاحكام والشرائع ، ودونوا فقههم قبل انقضاء القرن الثانى الهجرى من قيام دولتهم وهو ما لم يتفق لدولة من الدول السابقة ، فالقانون الرومانى مثلا لم يستقر أمره ويضبط الا زمن الامبراطور جستنيان ، أى بعد تأسيس الدولة الرومانية بأكثر من عشرة قرون ميلادية .

التاريخ

عنى المسلمون عناية شديدة بالتاريخ ؛ فالفوا فيه كتباً كثيرة ؛ وصلنا منها ما يعد بالمئات ، فضلا عما ضاع ولم يصل إلينا . ونشأت رغبتهن فى التاريخ من حرصهن على معرفة سيرة الرسول وأخبار الفتوح ، ونهجن أول الامر فى تدوين التاريخ منهج المحدثين ، فأوردوا الخبر مسبقا بسلسلة أسناده ، ثم صاروا يرتبون الحوادث بالسنين مع استبقاء الاسناد ، كما فعل الطبرى . ثم أسقطوا الاسناد ، ورتبوا الحوادث بالسنين ؛ كما فعل ابن الاثير . ثم اخلدوا يؤرخون لكل دولة من الدول على حدة ، كما فعل ابن خلدون وتلميذه المقرئى المصرى .

ومن أشهر الكتب التاريخية « سيرة الرسول » تأليف محمد ابن اسحق الموصى سنة ١٥٠ هـ ، وهذه السيرة وصلت إلينا مهلهلة على يد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وسميت لذلك باسم سيرة ابن هشام . ومن هذه الكتب كذلك سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم من أهل القرن الثاني الهجرى ، « وكتاب فتوح البلدان » للبلادرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وهو افضل كتاب فى موضوع الفتوح . وألف المسلمون فى الطبقات ، وأشهر كتبهم فى ذلك « كتاب الطبقات الكبير » لمحمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، وهو فى طبقات الصحابة والتابعين . أما مؤلفات المسلمين فى التاريخ العام فأولها تاريخ ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وهو أوسع وأعظم تأليف فى تاريخ الدولة الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى ، وكتاب « مروج الذهب » للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ؛ ثم كتاب « تجارب الأمم لمكسوبة المتوفى سنة ٣٦٩ هـ ولهذا الكتاب ذيل من تأليف الوزير أبى شجاع المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ومن المادة المتجمعة فى هذه الكتب وكثير غيرها استقى ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ كتابه المسمى بالكامل فى التاريخ ، وأبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ فى كتابه المسمى المختصر فى تاريخ البشر ، وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ فى كتابه المسمى المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر .

ويؤخذ على مؤرخى المسلمين عامة أنهم قصروا همهم على أخبار الخلفاء والملوك والأمراء والحروب والفتن ، وإنهم لم يتعدوا

ذلك الى وصف الاحوال الاجتماعية والشئون الاقتصادية والادبية ، وانهم قلما ينقدون خليفة أو حاكما مهما بلغ من الظلم والظفان ، على أنهم على العموم توخوا الصدق في روايتهم ؛ وهى بزية لهم ولا شك عظيمة .

الاجتماع

الاجتماع هو دراسة ما تتصف به الجماعات والشعوب من خواصات فى معاشها ومخافها ؛ وأعيادها ومواسمها ، وفى كتب الرحلات والخطط والمجموعات التاريخية والجغرافية معلومات كثيرة عن هذه الاحوال ، فوصف ابن حوقل احوال جزيرة صقلية وطباع أهلها عندما زار هذه الجزيرة ، وفعل مثل ذلك ابن جبير للاقطار التى زارها فى رحلته ، وكذلك وصف ابن بطوطة فى رحلته ما شهدته من عادات الشعوب التى زار بلادها فى الشرق والغرب والشمال والجنوب . وأسهب المقرئى (توفى سنة ٨٤٥ هـ) فى كتاب الخطط الشهير ؛ الاعياد والمواسم والاحتفالات الدينية للمصريين ؛ زمن الفاطميين خاصة . وكذلك أورد المقرئى (توفى سنة ١٠٤١ هـ) فى كتابه « نفح الطيب » فصولا متنوعة فى عادات أهل الاندلس ، فى مآكلهم ومشربهم وملبسهم ومختلف أحوالهم .

وإذا أردنا بالاجتماع العلم الذى يبحث فى تطور الجماعات ، ونشوء الدول وعوامل قوتها ونضجها ، ثم عوامل ضعفها واضمحلالها وسقوطها ، وبعبارة أخرى « فلسفة التاريخ »

فابن خلدون في مقدمته العظيمة خاض غمار هذا العلم ؛
وكتب فيه بتفصيل تام في أسلوب علمي ، فأوفى على القاية ؛
وهو في الواقع المؤسس لعلم الاجتماع في الشرق والغرب ، إذ
سبقت آراؤه في هذا المجال معظم ما جاء به علماء أوروبا الحديثة
من نظريات علمية مستمدة من دراسات طويلة .

تقويم البلدان

بلغ تجار المسلمين في أسفارهم خلال القرنين الثاني
والثالث من الهجرة بلاد الصين برا وبحرا ، وجزيرة زنجبار
واقاصى سواحل أفريقية الجنوبية ، واوغلوا في روسيا شمالا ؛
ووصلوا الى سواحل المحيط الاطلسي غربا ، ورجع أولئك
التجار بكثير من أخبار الإقطار والشعوب التي زاروها ، فأنارت
هذه الأخبار رغبة واسعة في معرفة هذه الإقطار وشعوبها ؛
ومن هؤلاء الرائدة المسلمين سليمان التاجر ، وأصله من
سمرقند الواقعة على الخليج الفارسي ؛ إذ سافر غير مرة الى
الصين وسواحل الهند ، ودون وصف أسفاره مؤلف مجهول
الاسم في كتاب مشهور ، وذلك في منتصف القرن الثالث
الهجري ، وهذا الكتاب أقدم وصف باللغة العربية للصين
وسواحل الهند .

ثم أن الخليفة المقتدر بالله العباسي أوفد أحمد بن فضلان
سنة ٣٠٩ هـ الى ملك البلغارين النازلين على ضفاف نهر الفلجا ؛
وكتب ابن فضلان وصف رحلته هذه ، وأورد هذا الوصف

أقوت الحموى فى معجمه فى مادة « بلفار » ، وهو أقدم نص
يرى عن روسيا فى العصور الوسطى .

هكذا ابتدأت كتب الجغرافية الإسلامية المتعلقة بالاقطار
والشعوب الأجنبية ، أما جغرافية الاقاليم الإسلامية نفسها ،
فانشأتها عوامل أخرى ، وهى الحاجة الى وصف الطرق المتشعبة
التي تسلكها قوافل الحجاج والتجار وغيرهم ، والى معرفة
إبعادها ، ومراحلها ومنازلها ، والمدن التي تمر بها . ثم أن
موظيف الخراج على كل اقليم اقتضى مسح هذا الاقليم وبيان
قامرة وغامرة ، وأنواع غلاته وحاصلاته ، فبعث ذلك على الكتابة
فى وصف اقاليم الدولة الإسلامية فى تفصيل . ولذا دار اكثر
الكتب الجغرافية التي كتبت فى القرنين الثانى والثالث من
الهجرة حول الوصف الطبغرافى لكل اقليم ، ومن هذه كتاب
« المسالك والممالك » لابن خرداذية ، و« كتاب الخراج » لقدامة بن
جعفر .

ثم نقل بعض المترجمين كتاب « الجغرافية » لبطليموس من
اليونانية فى صدر الدولة العباسية ، فتأثرت الجغرافية الإسلامية
به تأثيرا كبيرا . ونسج على منوال بطليموس محمد بن موسى
الخوارزمى فى كتابه « صورة الارض » ثم طلب الخليفة المأمون
الى الخوارزمى أن يضع لكتابه هذا مصورا جغرافيا ، فقام
بهذا العمل مع تسعة وستين عالما فيما يروى ، وهو أول مصور
جغرافى عربى للدولة الإسلامية واقليمها . واثر كتاب الخوارزمى

بدوره في جغرافى العرب في القرن الرابع الهجرى ، ولا سيما
الاصطخرى في كتابه « مسالك الممالك » ، وابن حوقل في كتابه
« المسالك والممالك » وكذلك المقدسى في كتابه « احسن التقاسيم في معرفة
الاقاليم » ، وزين هؤلاء الجغرافيون كتبهم بالخرائط ، وذكروا
العروض والاطوال ؛ والاقاليم السبعة ، وغير ذلك مما هو
مقتبس من كتاب بطليموس .»

ويعد ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ خاتمة كبار
الجغرافيين الاسلاميين بالشرق ، فهو مؤلف « معجم البلدان »
الذى يعتبر اعظم قاموس جغرافى فى العصور الوسطى ، لانه
كنز معلومات جغرافية واسعة ؛ وذلك فضلا عما فيه من
معلومات تاريخية وأدبية فريدة .

واعتنى اهل الاندلس والمغرب عناية كبيرة بالجغرافية
والرحلات خاصة ، وظهر فيهم جغرافيون لا يقلون شأنًا عن
جغرافى المشرق .»

علم الكلام

قام الى جانب المحدثين والفقهاء طائفة ثالثة من علماء الاسلام
هى جماعة « المتكلمين » ؛ أصحاب علم الكلام ؛ وسرعان ما ظهر
الخلافا واشتدت الخصومة العلمية بين فريق المحدثين والفقهاء
من جهة وفريق المتكلمين من جهة أخرى . وقيل فى تسمية هذا
العلم الجديد انه سمي بذلك ؛ لانه علم نظرى لا عملى ، وسمى

القضا بعلم التوحيد ؛ لانه يقوم على القول بالتوحيد المحض للخالق
وأنفى الصفات عنه سبحانه وتعالى . ويسمى علم الكلام أيضا بعلم
أصول الدين ؛ لانه يبحث فى أصل العقائد من اثبات وجود الله ،
وحسالة القضاء والقدر وغيرهما .

والمعتزلة هم مؤسسو على الكلام وهم الذين حملوا لواءه قرابة
قرن ونصف قرن من الزمان (١٠٠ - ٢٤٠ هـ) . ويرجع أصل
تسميتهم الى واصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس استاذة حسن
البصرى بمسجد البصرة ؛ لاختلافه معه فى الراى ، ولزم هذا
الاسم اتباع واصل بن عطاء وفرقته الجديدة ؛ واطلق عليهم فى
صدر الدولة العباسية اسم المتكلمين . وتتلخص آراء المعتزلة فى
القول بعدم تكفير مرتكب الكبائر ، واعتباره فى منزلة بين المؤمن
والكافر . وقالوا بالقدر ، اى ان الله لا يخلق افعال الناس ، وانما
هم الذين يخلقون افعالهم ، وانهم من اجل ذلك يثابون أو يعاقبون
على عكس ما قال به خصومهم من المحدثين والفقهاء الذين تغالوا فى
سلب الانسان قدرته وحريته فى التصرف . ولذا قال المعتزلة
بسلطان العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ودعاهم الى
وضع هذا المبدأ ما رأوا من جمود بعض الفقهاء على ما ورد من
حديث ولو موضوع ، ووقوفهم عند النصوص ، فاذا لم يجدوا
نصا لم يجروا على ابداء رأى فيما هم فيه .

وقال المعتزلة كذلك بالتوحيد المحض ؛ فنقوا ان يكون لله
فعالى صفات ائولية من علم وقدره وحياة وسمع وبصر غير ذاته ؛

بل ان الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ؛ وليست هناك صفات زائدة على ذاته ؛ وربما دعاهم الى هذا القول ما شاع في عصرهم من ذهاب قوم الى تجسيم الله تعالى ، وأثبتت صفات له كصفات المخلوقين من بصر وسمع ومكان وغير ذلك .

ونزل الاضطهاد بالمعتزلة أول الامر في الدولة الاموية ، غير أنهم أخذوا يعملون على نشر آرائهم بدعاة لهم ، فتقدمت حالهم حتى اعتنق مذهبهم الخليفةتان الامويان يزيد بن الوليد ومروان بن محمد الذى لقب بالجعدى ؛ لآخذه القول بالقدر عن الجعد بن درهم المعتزلى ، وذلك أواخر الدولة الاموية .

ثم انتشر الاعتزال من البصرة الى سائر العراق ؛ وصار له في العصر العباسى الاول فرعان ؛ أحدهما بالبصرة نفسها بزعامة واصل بن عطاء (المتوفى سنة ١٨١ هـ) وأبو الهذيل العنلاف والنظام والجاحظ ، وثانيهما ببغداد بزعامة بشر بن المعتمر (المتوفى سنة ٢١٠ هـ) ، وثمامة بن الاشرس ، وأحمد بن أبى داود . واستمد هؤلاء جميعا من كتب المنطق والفلسفة اليونانية التى ترجمت في العصر العباسى الاول ، وانتفعوا بها في الجدل والاحتجاج لآرائهم ؛ وفي الانتصار للاسلام والرد على الملاحدة ، والزنادقة الذين رفعوا رءوسهم وقتذاك . وبلغ أولئك المتكلمون المعتزلة قمة نفوذهم زمن الخلفاء العباسيين الثلاثة ، المأمون والمعتصم والواثق . ذلك أن المأمون أخذ بقولهم بخلق القرآن ، أى أنه مرتبط بالحوادث التى اقتضت نزوله ؛ وذلك ردا منهم على

المحدثين والفقهاء الذين قالوا بأن القرآن كلام الله ، وكلام الله قديم قدمه سبحانه وتعالى . وبالعالم المأمون في الأخذ بنظرية المتكلمين واضطهد وعذب من لم يقل بخلق القرآن ، وتابعه في ذلك المعتصم والرائق ، وعظمت الفتنة واشتدت المحنة . ثم وضع الخليفة المتوكل حدا لتلك المحنة ؛ اذ نهى الناس عن الخوض في هذه المسألة ؛ وأمرهم بالعود إلى السنة والجماعة ، والأخذ بالتسليم والتقليد .

والخلاصة ان المعتزلة وعلماء الكلام اطلقوا لعقولهم عنان البحث في حدود الدين ؛ وانهم قاوموا بذلك جمود خصومهم ؛ وانهم ردوا على الثنوية والذهرية والملاحدة ؛ وانهم في سبيل افناع خصومهم والزامهم الحجة أسسوا قواعد البحث والمناظرة ، ووضعوا أصول علم البيان والبلاغة العربية . غير انه يؤخذ عليهم انهم صدموا العامة بأرائهم في مسائل قصرت عقولهم عن فهمها ، فلم يجتذبوا أحدا منهم إلى جانبهم ، ومات مذهب المعتزلة نهائيا عندما انفصل عنهم أحد كبرائهم ، وهو أبو الحسن الأشعري (المتوفى ببغداد ٣٣٣ هـ) ، اذ عاد إلى السنة ، وحمل على المتكلمين حملة شعواء ؛ فلم تقم للاعتزال أو علم الكلام قائمة بعد ذلك .

الفلسفة

تأخر نضج الفلسفة عند المسلمين بالقياس إلى العلوم الأخرى ؛ لان الفلسفة اليونانية التي استندوا إليها في فلسفتهم لم تنتقل

كتبها الى اللغة العربية الا في عصر المأمون على وجه العموم .
وحرص فلاسفة المسلمين على التوفيق عموما بين الفلسفة
والدين ، لا الانتصار لاحدهما على الآخر ، واشهر فلاسفة الاسلام
في المشرق الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وجماعة اخوان
الصفاء .

فالكندي (المتوفى حوالي منتصف القرن الثالث) هو أبو يوسف
يعقوب بن اسحق ، العربي الاصل ، يتصل نسبه بملوك العرب
الاقدمين من كندة ؛ ولذلك سمي « فيلسوف العرب » .
ونشأ الكندي بالكوفة مسقط رأسه ؛ وانزله المأمون والمعتصم
والوائق عندهم منزلة عظيمة . وحاول الكندي في مذهبه
الفلسفي أن يجمع بين آراء افلاطون وأرسطو ، واعتبر
الرياضيات الفيثاغورية أساس العلم كله . ولم يكن الكندي فيلسوفا
فحسب ؛ بل اشتغل بالنجوم والكيمياء والموسيقى النظرية والبصريات
أما أبو نصر الفارابي (المتوفى سنة ٣٣٩ هـ بدمشق) ، فهو
تركي الاصل ؛ أصله من مدينة فاراب ، باقليم ما وراء النهر ؛
وزادانت به حاشية سيف الدولة الحمداني بحلب ، ومذهبه
الفلسفي هو المزج بين الافلاطونية والارسطوطاليسية والتصوف
الاسلامي ، مما جعل العلماء يسمونه المعلم الثاني (. والاول هو
أرسطو) . وللفارابي في السياسة « رسالة في آراء أهل المدينة
الفاضلة » ، و « كتاب السياسة المدنية » ، وكلاهما متناثر

يكتتاب الجمهورية لافلاطون ، وكتاب السياسة لارسطو .
وتتلخص آراء الفارابى السياسية فى أن المدنية الفاضلة تشبه
فى تكوينها جسم الانسان ، فالحاكم يشبه القلب يخدمه
موظفون دونه ، وهؤلاء يخدمهم من دونهم ، والغرض من
الاجتماع فى المدينة الفاضلة هو اسعاد اهلها . وللفارابى مثل
الكندى كتب فى الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى ؛
ويحكى عنه أنه حضر مرة مجلس سيف الدولة ، فاخرج عوده
وعزف عليه ، فأضحك كل من فى المجلس ، ثم عزف ثانية
فأبكاهم ، ثم عزف الثالثة فأنامهم ، ثم تركهم نياما وانصرف .

وابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨ هـ بهمدان) هو الشيخ الرئيس
ابو على الحسين امام الفلسفة والطب كذلك فى عصره ، ومولده
بالقرب من بخارى سنة ٣٧٠ هـ . واتفق ان مرض نوح بن
منصور ملك الدولة السامانية ، فاستقدم الطبيب ابن سينا
فبرىء على يده . وكان لهذا الملك مكتبة عظيمة ، فاستوعب
ابن سينا ما فيها من الكتب قراءة ودراسة ، ثم جعل ينتقل
فى البلدان ويؤلف التأليف المتنوعة ، وأشهرها كتاب « القانون »
الذى حوى أهم ما عرف من علوم الطب وخصائص العقاقير
والتشريح وغيرها عند العرب . ومن تأليفه الفلسفية شرح
كتاب النفس وما بعد الطبيعة لارسطو ، وله كتاب الاشارات ،
والقصيدة العينية المشهورة فى الروح . واشتهر ابن سينا عند

الاوربيين باسم افسنا ، وذاعت مؤلفاته بينهم فى الطب والفلسفة بعد ترجمتها الى اللاتينية .

واما جماعة اخوان الصفا ، فهى جماعة فلسفية سرية لها ميول باطنية سياسية . وتكونت هذه الجماعة فى البصرة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ثم صار لها فرع فى بغداد ، ومن اخبارها ان اعضاءها وضعوا اثنتين وخمسين رسالة فى الرياضيات والفلك والجغرافية والموسيقى والاخلاق والفلسفة . وتعتبر هذه الرسائل خلاصة ابحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند ، وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام . وكتابات هذه الجماعة تآثير كبير فى ابنى العلاء المعرى ، وابى حيان التوحيدى ، وابى حامد الغزالى ، وغيرهم من مفكرى القرنين الرابع والخامس من الهجرة .

وتجرد ابو حامد الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) لمحاربة الفلاسفة والرد عليهم بحججهم ومنطقهم ، بعد ان احاط بكل علوم عصره ، فهاجمهم دون هوادة فى كتابه « مقاصد الفلاسفة » ، ثم كتاب « تهافت الفلاسفة » ، ولم تقم للفلسفة بعد ذلك قائمة فى المشرق برغم لعان وميضها فى المغرب والاندىلس ، بفضل ابن رشد وغيره من الفلاسفة الاندلسيين ؛ وابن رشد هو الذى سماه الاوربيون افيروس ، واطلقوا على مذهبه اسم الافيروسية ذات الاثر الكبير فى التطور الفكرى فى جامعة باريس وغرب أوروبا فى القرن الثانى عشر الميلادى .

الفلك والرياضيات

ابتدا اشتغال المسلمين بالفلك بعد ان اطلعوا على ترجمة كتاب « سند هند » الذى جلبه عالم هندى الى بلاط المنصور العباسى (حوالى ٧٧١ م) ، واصبح هذا الكتاب مرجع الباحثين فى الفلك ، بعد ترجمته على يد محمد بن ابراهيم الفزارى ؛ الذى يرجع اليه الفضل كذلك فى استخدام الاسطرلاب اليونانى الاصل فى رصد الكواكب والاجرام السماوية ، ثم وصلت التقاويم الفهلوية الى المسلمين مترجمة الى العربية فى عصر الدولة السامانية ، ولكن المسلمين تأثروا بالفلك اليونانى بعد ترجمة كتاب المجسطى لبطليموس فى القرن التاسع الميلادى .

وانشأ المسلمون المراصد لدراسة الفلك دراسة علمية عملية ، وأولها مرصد جند يسابور وأوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ثم انشأ الخليفة المأمون دارا للرصد فى بغداد ؛ لدراسة حركات الاجرام السماوية . فحقق الفلكيون المسلمون مسائل كثيرة واردة فى المجسطى ، واستطاعوا تقدير الدرجة العرضية الارضية بمسافة طولها $٥٦ \frac{٢}{٣}$ ميل . وامكنهم بذلك معرفة محيط الكرة الارضية ونصف قطرها ، وأسهم الخوارزمى العالم الرياضى المشهور فى هذه العملية

ثم تعددت المراصد الفلكية فى الدولة العباسية ، فصاح أبو عبد الله البتانى ؛ وهو من صائبة حران ، فى مرصد مدينة الرقة ، حساب مدارات القمر وغيره من الكواكب ، وحدد طول

السنة المدارية والفصول ، ومدار الشمس الحقيقي والمتوسط .
ويعد أبو الريحان البيرونى (٩٧٣ - ١٠٤٨ م) ، الذى عاش
في مدينة غزنة بأفغانستان ، أعمق المفكرين الاسلاميين في ميدان
العلوم الفلكية والطبيعية ، فالف لمولاه السلطان مسعود بن
محمود الغزنوى كتابا في الفلك سماه « القانون المسعودى في
الهيئة والنجوم » . والف البيرونى كذلك كتاب « الآثار الباقية
من القرون الخالية » ، وهو دراسة في تقاويم الشعوب القديمة ،
وبحث في غير هذا الكتاب من مؤلفاته نظرية دوران الارض حول
محورها ، ووصل الى تحديد دقيق لخطوط الطول والعرض .
وطاف البيرونى في بلاد الهند ، ودرس أحوالها وعادات أهلها
وعقائدهم ، ووضع في ذلك كتابه العظيم « تحقيق ما للهند من
مقوله » ، وهو الكتاب الذى لم يؤلف مثله في أى لغة من اللغات
غير العربية .

أما عمر الخيام (١٠٣٨ - ١١٢٤ م) الذى اشتهر بانه شاعر
عظيم ، فهو الى جانب نبوغه في الشعر رياضى وفلكى من الطراز
الاول ، وعهد اليه السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى
اصلاح التقويم الفارسى القديم ، في مرصده الذى انشأه بمدينة
الرى سنة ٤٦٧ هـ . وأسفرت بحوث الخيام وأعوانه عن اخراج
تقويم سماه « التاريخ الجلالى » نسبه الى السلطان جلال الدين ،
وهو يفوق في دقته التقويم الجريجورى .

واما الارقام العددية والحساب ؛ فكان وصولهما من الهند

زمن الخليفة العباسي المنصور ، مع كتاب السند هند ، وبذا دخل علم الحساب الهندي بنظامه وأرقامه المعروفة في العربية بالأرقام الهندية ، وكذلك نظام الصفر . غير أن المسلمين ظلوا زمنا يعبرون عن الأرقام بالحروف ، ثم اهتموا الى تقسيم الكسور واستخراج الجذور التربيعية والتكعيبية ؛ فأحلوا الأرقام الهندية نهائيا لسهولة محل الحروف .

وأعظم علماء المسلمين في تاريخ الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨٠ - ٨٥٠ م) ، وهو مؤلف أقدم كتاب عربي في الحساب ، وكذلك أقدم كتاب في علم الجبر ، وهو معروف « بكتاب الجبر والمقابلة » الذي حمل معه اسمه العربي وهو « الجبر » الى الجامعات الأوروبية ، بعد ترجمته الى اللاتينية . وتأثر الخيام بالخوارزمي في علم الجبر ، وزاد عليه حلولاً لكثير من المعادلات الهندسية والجبرية من الدرجة الثانية ، وبواسطة مؤلفات الخوارزمي انتقلت الأرقام العربية الى أوروبا .

العلوم الطبيعية

الكيمياء :

ابتكر العرب في الكيمياء نظام التجربة ، بيد أنهم لم يصلوا في الكيمياء الى نظريات ونتائج حاسمة كالتي وصلوا اليها في الرياضيات . وأسس علم الكيمياء العربي جابر بن حيان بمدينة الكوفة حوالي سنة ٧٧٦ م واتضح من الكتب التي ألفها بنفسه أنه أدرك قيمة التجربة في الكيمياء وأنه

وصف كلا من التكليس والتحويل وصفا علميا ، وانه ادخل تحسينات جديدة على الطرائق القديمة للتبخير والتصفيد والاذابة والبلورة ، وانه عرف تركيب حمض الكبريتيك وحمض النيتريك ، وكيف يمزجها ليخرج منهما ما يعرف بالماء الملكي الذي يمكن أن يذاب فيه الذهب والفضة . وبالاختصار عدل جابر بن حيان نظرية ارسطو في تركيب المعادن، وظلت طريقته قائمة مع شيء من التغيير حتى أوائل عهد الكيمياء الحديثة في غرب اوربا في القرن الثامن عشر الميلادي . وحذا جابر حذو من سبقوه من الكيميائيين المصريين واليونانيين في افتراض أن المعادن الخسيسة يمكن تحويلها الى ذهب أو فضة ؛ ولم يزد الكيميائيون المسلمون بعد جابر بن حيان على ذلك وغيره على الكيمياء العربية الا اليسير ، وظلوا يواصلون البحث عما كانوا يرجون تحقيقه وهو حجر الفلاسفة واكسر الحياة من مختلف المعادن والعقاقير .

الفنانون والعمارة

لم تكن للعرب في جاهليتهم فنون بالمعنى الذي يدل عليه هذا اللفظ ، ماعدا الشعر والخطابة في اللغة العربية الفصحى ، اذ قل اوصاف قصورهم في اليمن ، واوصاف مبانيهم في الحيرة على أنها جميعا شيدت على الفن الفارسي أو الفن البيزنطي . ثم شهد العرب خلال فتوحهم الكبرى من آثار الفرس والروم ما ادهشهم ، ومن هذه ابوان كسرى بالمداين ، وكنائس الشام

ومصر : فحفزهم كل ذلك الى ان يشيدوا في حواضر دولتهم
افخم المباني على نحو ما يلائم مزاجهم العربي ويوافق دينهم
الاسلامى ، فأنشأ الوليد بن عبد الملك المسجد الاموى بدمشق ،
واختط سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة بفلسطين ، وبنى
جامعها المشهور . وسبق على هذا وذلك تشييد عبد الملك
بن مروان قبة الصخرة ببيت المقدس ، ونشأ في كل اقليم
اسلامى كبير مسجد جامع على نموذج المسجد النبوى بالمدينة
وذلك من حيث التصميم والتكوين لا من حيث الزخرفة واحكام
البناء . والملاحظ في عمارة الامويين عموما انها تأثرت بالفن
البيزنطى ، بل تذكر المصادر التاريخية صراحة ان الخلفاء
الامويين استعانوا بالمهندسين والعمال البيزنطيين
في انشاء المساجد والقصور ، ومن هذه القصور
القبة الخضراء التى شيدها معاوية بدمشق ، وقصور المشتى
وقصر عمرة والرصافة التى بناها خلفاء معاوية في شرق الاردن
وبادية الشام بالقرب من مدينة الرقة ، وهى القصور التى
اكتشفت مواضعها واثارها من عهد قريب .

ولم يكن العباسيون اقل اهتماما من الامويين بالعمارة ، فبنى
المنصور بغداد وابتنى فيها هو ومن جاء بعده من خلفاء العصر
العباسى الاول عددا من المساجد والقصور ، وجميعها زال
ولم يبق منه شئ الا وصف المؤرخين . اما سامرا التى اختطها
المعتصم ، ونزلها بجنده التركى ، فلا يزال مسجدها قائما

بمئذنته الشهيرة للدلالة على مدى تأثير الفن العراقي القديم في مباني العباسيين ؛ وذلك فضلا عن الفنون الساسانية والهندية والصينية .

التصوير والنحت :

والمعروف ان علماء المسلمين الاولين اعتبروا تصوير الانسان والحيوان مكروها ، دون ان يفتوا بتحريمه . والظاهر ان خلفاء بنى امية وبنى العباس ترخصوا في ذلك ، اذ توجد بجدران قصر المشتى صور آدمية متقنة ؛ وكذلك بجدران القصر الذي بناه المعتصم في سامرا حسبما ورد في أوصاف المؤرخين . وبنى الخليفة الامين قوارب لنزهته في دجلة على هيئة الاسد والنسر والدلفين ، كما اشتمل قصر المقتدر بالله على تماثيل فرسان متحركة بخيلها تتقدم وتتأخر كما في الحرب ، بل وصلنا بعض الكتب العربية موضحة بالصور ، ومنها كتاب كيلة ودمنة ومقامات الحريري .

الزخرفة والخط العربي :

استعاض جمهور المسلمين عن النحت والتصوير بالزخرفة التي لم يكن عليهم فيها جناح ، احتراماً لتزمت الفقهاء في هلال الصدد ، فزخرفوا المساجد والمباني بأشكال هندسية أو نباتية مؤلفة على نحو يجعلها جميلة في عين الناظر اليها ، كما وجدوا عوضاً ثانياً في الخط العربي بعد ان صار فناً جميلاً على يد خطاطين مشهورين ، ومنهم ابن مقلة وابن هلال وابن السوابة وياقوت

المستعصى . وبفضل العناية بالخط العربى لاغراض الزخرفة
اصبح نسخ المصاحف وتجليدها وتذهيبها فنا قائما بذاته ؛
واستمر ذلك الى اوائل القرن الحالى .

الفنون الصناعية :

وبرع المسلمون فى النسيج وصناعة الخزف والقاشانى والزجاج
وغير ذلك من صناعات البلاد التى تم لهم فتحها . وفى متاحف
العالم الكبيرة ؛ والمتحف العربى بالقاهرة ، ومتحف دمشق ؛
مجموعات من كل صنف رائعة ؛ وهى تدل على درجات متفاوتة
من تأثير الفنون الصناعية البيزنطية والفارسية والقبطية فى فنون
المسلمين ، فى عصر ازدهار الدولة الاسلامية .

الموسيقى :

عرف العرب فى جاهليتهم نوعا من الغناء وهو الحدا يستعملونه
فى اسفارهم فى البوادرى والقفار ، استحثاثا للابل وطرادا للوحشة ؛
كما عرفوا الانشاد لالقاء الشعر خاصة . وورد فى كتب السيرة
انهم عرفوا كذلك النقر على الدف ؛ وهو لون بدائى من الموسيقى .
فلما جاءت الاسرى من الفرس والبيزنطيين والسريان فى صدر
الاسلام الى المدينة نقلوا معهم غناءهم وموسيقاهم ؛ فلقفها منهم
بعض الرجال والنساء من العرب ؛ وانتقلت الالحن الفارسية الى
الغناء العربى . وظهر فى العصر الاموى نوايغ فى الغناء على هذا
النحويين رجال وقيان ، ومنهم المغنى معبد ، والمغنية ذات الخال
وكثير غيرهم .

وذاعت الموسيقى العزبية حتى بلغت الغاية في العصر العباسي الاول ؛ على يد إبراهيم الموصلي وابنه اسحق ، وذلك بتشجيع الخلفاء لهذا الفن الجميل ، رغم معارضة الفقهاء . وتعددت آلات الموسيقى وتنوعت في البلاد الاسلامية ، ومنها الدف والطنبور والعود والرباب والصنج والناى والقيثار والارغول . وبرع في الموسيقى من المسلمين الكندي والفارابي ، واكتملت بهما الموسيقى العربية من التاحتين العملية والنظرية . غير انه مما يؤسف له ان هذه الموسيقى العربية ذهبت أسرارها ، ولم يبق منها الا رموز غامضة في كتاب الاغانى ونحوه ، وذلك لان الموسيقيين المسلمين لم يدونوا الحانهم « بالنوتة » ، كما هي الحال في الموسيقى الحديثة .

حركة الترجمة في الدولة الاسلامية

لم تقم الترجمة في تاريخ الفكر الانساني كله بمثل الدور الذي قامت في الدولة الاسلامية ، في مرحلتين متباعدتين من الزمن ؛ الاولى مدة العصر الاموي والعصر العباسي الاول ؛ اى القرنين الثامن والتاسع . والثانية مدة القرنين الثاني عشر والثالث الميلادي .

وفي المدة الاولى اتصل المسلمون بالسريان ، وشهدوا مدارسهم في انطاكية وقيصرية ونصيبين والرها زمن الامويين . فلما كان زمن العباسيين الاوائل ازداد اقبال المسلمين على دراسة العلوم المتركة بهذه المدارس ، فترجمت للخليفة المنصور كتب في الطب

والنجوم عن السريانية . ثم شجع البرامكة نقل المؤلفات الفارسية والسريانية الى العربية ؛ وجاء المأمون فسلك مسلكا جديدا بإنشاء « بيت الحكمة » في بغداد للدراسة والبحث على مثال مدارس السريان . ثم أنه أحب أن تنقل كتب الفلسفة اليونانية رأسا دون وساطة لغة أخرى كالسريانية أو غيرها ، فأرسل الى امبراطور الدولة البيزنطية وقتذاك يسأله أن ينفذ اليه ما يختار من الكتب القديمة ، فأجابه الى ذلك بعد امتناع . وأمر المأمون بنقل هذه الكتب الى العربية في أسرع وقت وجعل يجرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة .

واقتدى بالمأمون كثير من رجال الدولة ، وجماعة من اهل الوجاهة والثراء من المسلمين ، فتقاطر المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس الى بغداد ، ومنهم النساطرة والعاقبة والصائبة والمجوس والبيزنطيين والبراهمة ؛ وترجموا من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية الى اللغة العربية ؛ وأقبل الناس على الاطلاع على هذه الكتب والبحث فيها ايما اقبال .

وترتب على حركة الترجمة وذيوع الكتب المنقولة الى اللغة العربية أن أتاحت الفرصة للمسلمين تصحيح أغلط القدماء في كثير من المواضع ، كما أضافوا من عندهم اضافات وإبتكارات قيمة ، ولا سيما في الطب والكيمياء والفلك والرياضيات . وانتقل هذا التراث العربى الى الاندلس ، فقام كثير من اليهود الاندلسيين

بترجمة كتب المسلمين في الفلسفة وغيرها الى العبرانية واللاتينية ، ولاسيما زمن الفونس السادس ملك قشتالة (باسبانيا) بعداستيلاء هذا الملك على مدينة طليطلة من بعض ملوك الطوائف المسلمين سنة ١٠٨٥ م . وكان كبير أساقفه طليطلة رجلا واسع الفكر ، اسمه ريموند ، وأحب أن ينتفع المسيحيون من المسلمين ، فأنشأ في طليطلة معهدا للترجمة العربية اللاتينية ، فترجمت كتب ابن رشد وفلاسفة المشرق .

وفي سنة ١٢٢٤ م أسس الامبراطور فردريك الثانى المعروف بشدة ميله الى الثقافة الاسلامية جامعة نابلى ، لنشر الكتب العربية الاسلامية في العالم الغربى المسيحى . وانتشرت هذه الكتب في ترجمتها اللاتينية بين امهات الجامعات الفرنسية والايطالية والانجليزية ، واحداثت اثرا قويا في تفتيق الازهان وتحريرها من قيود رجال الكنيسة وخاصة في ايطاليا ، وبذلك تمهد الطريق الى النهضة الاوربية الكبرى ، وحركة الاصلاح الدينى ، وبهما تبدىء الحضارة العالمية الحديثة .

الفصل الثالث الحركات الاستقلالية في الدولة الإسلامية

الفرق الإسلامية :

نشأت من مسألة الخلافة أهم الفرق الإسلامية ، ثم أثرت هذه الفرق تأثيراً كبيراً في سياسة الدولة ومصائرهما . فالسنة والشيعة والخوارج أسماء اصطلاحية ظهرت في جوف الدولة الإسلامية نتيجة حوادث معينة وانقسامات في الرأي في زمن الخلفاء الأربعة .

السنة :

أما أهل السنة والجماع فهم غالبية المسلمين ، وهم الذين رضوا بما تم في انتخاب الخلفاء الأربعة ، والتزموا أحكام القرآن ، وما سنه الرسول عليه السلام في حياته للدولة الإسلامية من القواعد الدينية والمدنية . ووضع أهل السنة والجماع بذلك أسس الخلافة الإسلامية التي ساروا على مقتضاياتها العامة خلفاء الأمويين والعباسيين والأتراك العثمانيين ، برغم ما طرأ على الخلافة نفسها من نظام ولاية العهد وتوريث الحكم لآبناء الخلفاء أو أخوتهم ، وما دخل عليها من مظاهر ورسوم غريبة على الإسلام .

الشيعة :

أما الشيعة فمنشئوها الرأي القائل بأحقية علي بن أبي طالب

بمَنْصِبِ الْخِلَافَةِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ ، اِذْ رَأَى -بَعْضُهُمْ اِنَّهُ اَفْضَلُ مِنْ اَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ . ثُمَّ اخَذَ اَتْبَاعُ عَلِيٍّ بِنِ ابِي طَالِبٍ وَشِيعَتُهُ يَضَعُونَ النِّظَرِيَّاتِ لِتَبْرِيرِ اَرَاثِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ وَاحْقِيَةِ عَلِيٍّ وَابْنَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ بِهَا ، حَتَّى صَارَتِ الشِّيْعَةُ مَذْهَبًا دِينِيًّا مَنَاهِضًا لِلْمَذْهَبِ السُّنَّةِ .

وَتَلَمَّسُ الشِّيْعَةُ فِي اَحَادِيثِ الرَّسُولِ وَحَيَاتِهِ مَا يُؤَيِّدُ دَعْوَاهُمْ ، فَقَالُوا اِنَّ الْخِلَافَةَ اَوْ اِمَامَةَ الْمُسْلِمِينَ اَمْرٌ لَا يُمْكِنُ اَنْ يَتْرَكَ لِلْاُمَّةِ لِتَبْدِئُ رَايَهَا فِيهِ ، وَاَنَّ الْاِمَامَةَ رُكْنٌ مِنْ اَرْكَانِ الدِّينِ حُدِّدَهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ بِنَفْسِهِ ، وَاَنَّ النَّبِيَّ اَشَارَ اِلَى عَلِيٍّ بِنِ ابِي طَالِبٍ بِاعْتِبَارِهِ خَلِيفَةً وَاِمَامًا مِنْ بَعْدِهِ . وَاسْتَشْهَدُوا بِنُصُوصٍ مِنَ الْاَحَادِيثِ وَالْقُرْآنِ يَنْقُلُونَهَا وَيُشْرَحُونَهَا ، فَقَالُوا اِنَّ كَلَامَ مِنْ اَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ مُفْتَضِّلٌ لِلْخِلَافَةِ ، وَاَنَّ عَلِيًّا هُوَ الْاِمَامُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ، وَاَنَّ عُثْمَانَ كَمِيَّةٌ مَجْهُولَةٌ . وَغَالَى بَعْضُ الشِّيْعَةِ فِي تَبْرِيرِ احْقِيَةِ عَلِيٍّ بِالْخِلَافَةِ ، حَتَّى اَضْفَى عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ صِفَاتِ التَّقْدِيسِ وَالْاَلُوْهِةِ ، وَاخْتَلَفَ الشِّيْعَةُ فِي تَرْتِيبِ الْاِئِمَّةِ بَعْدَ عَلِيٍّ بِنِ ابِي طَالِبٍ ، وَنَشَأَتْ بَيْنَهُمْ فِرْقٌ عَدِيدَةٌ ، لِكُلِّ مِنْهَا رَايَا الْخَاصِّ . وَكَانَ اَهْمُ هَذِهِ الْفِرَقِ الزِّيْدِيَّةُ اَتْبَاعُ زَيْدِ بِنِ عَلِيٍّ بِنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ بِنِ الْحُسَيْنِ اِبْنِ عَلِيٍّ بِنِ ابِي طَالِبٍ ، وَفِرْقَةُ الْاِمَامِيَّةِ الْاِثْنَا عَشْرِيَّةِ الَّتِي تَقُولُ بِاِثْنَيْ عَشَرَ اِمَامًا بَعْدَ عَلِيٍّ بِنِ ابِي طَالِبٍ ، وَالْاِمَامِيَّةُ السَّبْعِيَّةُ الْمَعْرُوفَةُ كَذَلِكَ بِاسْمِ الْاِسْمَاعِيلِيَّةِ نَسَبَةً اِلَى اِسْمَاعِيلَ بِنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ ، وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ مِنَ الشِّيْعَةِ هِيَ الَّتِي يَتَزَعَّمُهَا اَغَا خَانَ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ . وَانْضَمَّ اِلَى هَذِهِ الْفِرَقِ اَحْيَانًا بَعْضُ الْعَنَاصِرِ

المعادية للدولة الاسلامية ، متخذة من الدعوة لآل البيت ستارا تخفى وراءه أهدافها الحقيقية ، وتفكيك عرى الدولة .

وناضلت فرق الشيعة الامويين والعباسيين ، ونجحت في تأسيس دويلات لها رغم مالمقته من عسف واضطهاد . فعلت شوكة الزيدية في طبرستان واليمن ، وظل اتباع الائمة الاسماعيليه يكافحون سرا حتى قوى نفوذهم على عهد عبيد الله المهدي ، مؤسس الدولة الفاطمية بشمال افريقيا ومصر . اذ جهر بالدعوة الى الشيعة ، ونجح في تأسيس دولة شيعية جعلت الخلافة الاسلامية خلافتين متناضلتين زمنا طويلا ، احدهما الخلافة العباسية ومقرها بغداد ، والاخرى الخلافة الفاطمية ومقرها القاهرة .

الخوارج :

في اثناء النزاع بين على ومعاوية ظهرت طائفة الخوارج ، عقب وقعة صفين سنة ٦٥٧م ، اذ اختلف انصار على بن ابي طالب في قبول تحكيم كتاب الله ، وهو التحكيم الذي طالب به معاوية بن ابي سفيان حسما للنزاع وايقافا للقتال ، وذلك عندما احس بقرب الهزيمة في واقعة صفين . ولذا لم يوافق فريق من المحاربين من جند على بن ابي طالب على اجتماع ابي موسى الاشعري ، ممثلا لعلى بن ابي طالب ، مع عمرو بن العاص ، ممثلا عن معاوية ابن ابي سفيان ، للتفاوض والتحكيم في الخلاف . واشتهرت

هذه الفئة التي رفضت التحكيم باسم الخوارج ، لخروجها على صفوف جيش على بن ابي طالب .

ورفض الخوارج التحكيم بتاتا ، ونادوا بأن الخلافة حق لكل مسلم حر ، ولو كان عبدا حبشيا ، وأنه لا يجوز لخليفة ان ينزل عن منصبه بعد انتخابه ، ولكن يصح عزله أو قتله اذا جار او اساء استخدام سلطته . واشتهر الخوارج بالتعصب لمبادئهم والتحمس الشديد لها ، حتى حاربهم على بن ابي طالب ، وقضى على حركتهم مؤقتا في وقعه النهروان سنة ٦٥٩ م . لكن احدهم واسمه عبد الرحمن بن ملجم اغتال عليا بن ابي طالب ، انتقاما لما حدث في هذه الواقعة . وتفرق الخوارج في البلاد الاسلامية ، ولا سيما في البحرين والاحساء بجنوب شبه جزيرة العرب ، وأخذوا يدعون الى مبادئهم السياسية ودأبوا على قض مضاجع الدولة الاسلامية ، فثاروا في وجه الخلفاء الامويين ، غير معترفين بأحقيتهم في الخلافة ، وهاجموا الخلفاء العباسيين كذلك .

وظل الخوارج مصدر المتاعب للخلافة ، اذ انضم اليهم كثير من اهل الولايات ، اعجابا بنظريتهم الجمهورية في انتخاب الخليفة، واتخذوا من مبادئهم سستارا لتحقيق مآربهم في الخروج على الخلافة . وغدا للخوارج فرق عديدة في البلاد الاسلامية أهمها الازارقة اتباع نافع بن الازرق ، والاباضية اتباع عبد الله بن اباض التميمي ، والصفرية اتباع زياد بن الاصفر . واتسع نفوذ الفرقتين الاخيرتين في تونس ببلاد المغرب (شمال افريقيا) .

وتمهدت بثوراتهم المتكررة الطريق أمام الدول المستقلة التي قامت بتلك البلاد .

المرجئة :

ثم ظهرت فرقة المرجئة ، وهى حزب سياسى وسط معتدل . فف اصحاب هذا الحزب أن يغمسوا أيديهم فى الفتن والآراء التى اثارها كل من الخوارج والشيعة . وترجع نواة هذه الفرقة الى طائفة من الصحابة الذين امتنعوا عن الدخول فى النزاع الذى قام بعد مقتل عثمان بن عفان حول الخلافة ، فلم يميلوا الى جانب دون آخر . واشتهروا بالمرجئة لانهم ارجأوا الحكم على اتباع الخوارج والشيعة واهل الفتنة والقتل من المسلمين الى يوم القيامة ، حين يفصل الله فيما شجر بينهم من خلاف .

وبحثت فرقة المرجئة أمورا دينية تهدف الى تحديد معنى الايمان والكفر ، والمؤمن والكافر . وجاءت أبحاثهم بمخالفة للآراء الدينية التى نادى بها الخوارج والشيعة لتبرير دعوتهم السياسية . فلم يوافقوا الخوارج فيما ذهبوا اليه من تكفير الخلفاء ، ولم يؤمنوا بما قاله الشيعة من أن امامة على بن أبى طالب ركن أساسى من أركان الدين . واتفق رأيهم الدينى مع مذهبهم السياسى ، وهو عدم الجزم بكفر انسان أو إيمانه ، لان الله هو الذى يزن عمله فى الميزان .

المعتزلة :

ونشأت فرقة أخرى تنادى بتحكيم العقل فيما نشب بين المسلمين من خلاف حول الخلافة . واشتهرت هذه الفرقة باسم المعتزلة ، وبنت نظيرتها السياسية على الآراء الفلسفية التي شاعت في صدر الاسلام حول حرية الانسان ، وهل هو مخير او مجبر في أعماله . اذ انتشر بين الناس اذ ذاك مذهبان ، أحدهما ينادى اتباعه بأن الانسان حر الإرادة ، له قدرة على أعماله ، ويطلق عليهم اسم القدرية . والآخر يرى أتباعه أن الانسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة وأن الله كتب عليه أعمالا لا بد أن تصدر عنه ، ويسمون بالجبرية .

ثم ذابت هاتان الفرقتان في معترك التفكير السياسي ، وقامت على أثرهما فرقة المعتزلة ، التي تربط تعاليمها بما قادى به القدرية . ولذا قال المعتزلة أن للانسان قدرة تدفعه على أداء الافعال دون قيد من الله تعالى . لكن شاع عليهم اسم المعتزلة عند ما تعرض زعيمهم واصل بن عطاء لمناقشة المسائل السياسية التي تداولها الخوارج والمرجئة حول معرفة المصيب والمخطيء في الفتنة التي تلت مقتل عثمان بن عفان . اذ اختلف واصل بن عطاء في آرائه عن قول استاذة الحسن البصرى الفقيه المشهور ، واعتزل هو وأتباعه ، وانتبدوا بطائفتهم مكانا خاصا بالمسجد حيث قامت هذه المجادلات ، واشتهروا باسم المعتزلة .

والتزم واصل بن عطاء رأيا وسطا بين الخوارج والمرجئة ،
لا هو يابس ولا هو لين . اذ قالت الخوارج أن مرتكب الذنوب
كافر ، على حين قالت المرجئة انه مؤمن . فذهب واصل
واتباعه الى أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن ، بل هو
في منزلة بين المنزلتين . فمرتكب الكبيرة لا يعد مؤمنا لأن الإيمان
صفة من صفات الخير التي لا تتوافر له ، وهو ليس بكافر
أيضا ، لانه متمسك بسائر الشعائر الاسلامية الاخرى مثل
الشهادة والصلاة وغير ذلك من الامور التي لا يمكن انكارها .

وطبق المعتزلة نظريتهم على المشاكل التي ثارت حول
الخلافة ، فأباحوا انتقاد الصحابة واعمالهم ، ومناقشة صحة
انتخاب الخلفاء وتولييتهم السلطة . وعلا مركزهم على عهد
الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ هـ - ٨١٣ م) الذي اعتنق
مذهبهم وآراءهم . فاستخدم المعتزلة للقضاء على الآراء
الجامدة التي كادت تخلق كل حركة اجتماعية أو سياسية ،
وتهدد بتقويض دعائم الدولة .

أثر الفرق الاسلامية في الاحوال السياسية والاجتماعية :

بلغت الفرق الاسلامية اقصى نشاطها زمن العباسيين ،
وقسمت الناس طوائف وأحزابا حسب مذاهبها . وزاد في هذا
الانقسام أن كل فرقة من الفرق الكبيرة السالفة انقسمت
بدورها فرقا فرعية صغيرة عديدة . فانقسم المعتزلة الى نحو
ثلاث عشرة فرقة ، والخوارج الى عشرين ، والشيعة الى

ما يقرب من الثلاثين والمرجئة الى نحو سبع فرق . واشتد
الجدل والنزاع بين طوائف الفرق السالفة ، واصبح المجتمع
الاسلامى ميدانا لصنوف الآراء المختلفة .

وأثر هذا الخلاف بين هذه الفرق الاسلامية فى الشؤون
الداخلية ، اذ وجدت الحركات الانفصالية المختلفة ولا سيما
فى اطراف الدولة الاسلامية البعيدة متنفسا لها ، ذلك ان تعاليم
هذه الفرق انتشرت فى كثير من أقاليم الدولة بعيدا عن السلطة
المركزية ، وكذلك فى البلاد التى اشتهرت بتعصبها لقوميتها
القديمة ، مثل فارس . وتعد ثورات الخوارج مثالا مبتكرا من
هذه الحركات الانفصالية التى تولدت عن مسألة الخلافة وذلك
أيام الدولة الأموية . ثم ان الخوارج نشروا بين أتباعهم ان
الخلفاء العباسيين لا يصلحون للخلافة ، وان أحدا من أولئك
الخلفاء لم يستوف الشروط التى يجب استيفاؤها لهذا
المنصب ، ولذا يجب الخروج عليهم وعزلهم . ووضحت هذه
الآراء السياسية الانفصالية منذ عهد أول الخلفاء العباسيين ، وهو
أبو العباس المعروف باسم السفاح ، اذ قامت عدة ثورات
اقليمية ، ولا سيما فى عمان ، وخراسان وبلاد المغرب الأدنى
(تونس) .

واذا نجح الخلفاء العباسيون فى اخماد فتن الخوارج ، فان
مابذله فى هذا السبيل استنزف من قوتهم ، وهىأ للفرق
الاسلامية الاخرى أن يزداد نشاطها والخلافة العباسية
مشغولة بهذه الفتن . فاستطاع الشيعة نشر تعاليمهم فى كثير

من بلاد الدولة الإسلامية ، مثل فارس ، وأرسلوا الدعاة لنشر مذهبهم في البلاد الأخرى التي مهدتها ثورات الخوارج لدعوتهم .
وضرب الشيعة أوضاع الأمثلة في أثر الفرق الإسلامية في الشؤون السياسية بنجاحهم في تأسيس دولة لهم بالمغرب وامتدت هذه الدولة فيما بعد إلى مصر والشام (الدولة الفاطمية) .

وهكذا أدى نمو الفرق الإسلامية إلى انكماش الخلافة العباسية في بغداد . وتأثرت الحماسة الدينية للجهاد والفتوح الجديدة . فوقفت الفتوح الإسلامية ، وانصرف جهاد المسلمين إلى إخماد الفتن السياسية والدينية الداخلية . ولم تسلم الدولة الإسلامية من آثار الجدل السياسي والديني ، وانتهى بها الأمر إلى التفكك والانقسام إلى ممالك ودول عديدة .

وأحدثت الفرق الإسلامية آثارا اجتماعية كبرى في المجتمع الإسلامي ، لأن كلا من الجدل والاختلاف في الآراء ساعد على حرية الفكر ، ومران الناس على تقبل الآراء والنظريات بصدر رحب . وأفاد المجتمع الإسلامي من هذه الحرية الفكرية ، فإن اتساع رقعة الدولة وتكوينها من عناصر مختلفة في الجنس والعقليات وبقايا الديانات السالفة تطلب حرية الجدل والمناظرة لتفهم الدين إلى الناس ، والدفاع عنه دفاعا سلميا منطقيا أمام هجمات العقائد الناشئة .

وأثر المعتزلة تأثيرا كبيرا في المجتمع الإسلامي بالقياس إلى قهرهم من الفرق ، إذ وجد اتباع هذه الفرقة أناسا دخلوا في

الدين الاسلامى من اليهود والنصارى والمجوس دون أن يتخلصوا تماما من معتقداتهم القديمة ، ولا عمل لهم الا اثاره الشكوك حول بساطة الدين الاسلامى . وانبرى المعتزلة لمجادلة أولئك الذين لم يريدوا للاسلام خيرا ، ونشأت عن مجادلاتهم أسس علوم الكلام والبلاغة والجدل والمناظرة . وفتح المعتزلة كذلك النافذة الاولى التى دخل منها فلاسفة المسلمين الى علوم اليونان . اذ دفعهم الجدل الى استقراء الكتب اليونانية المترجمة الى العربية مباشرة او عن طريق غير مباشر ، وعملوا على فهم مافيهها من منطق وفلسفة للرد على خصومهم الذين تسلحوا بالفلسفة اليونانية .

ومهما يكن من شأن الفرق الاسلامية وأثرها الاجتماعى ، فان جدلها اثار بلبلة فى الافكار ، وادى الى قيام مذاهب أخرى متأثرة بالفلسفة اليونانية ، وهذه المذاهب وسعت هوة الخلاف بين اقاليم الدولة الاسلامية . ولم تستطع السلطة المركزية ببغداد القضاء على عوامل التفكك التى خلقتها هذه الفرق ، وانتهى الامر الى قلة نفوذها وسطوتها فى مختلف الولايات .

عوامل التفكك السياسى

الشعوبية :

ساعدت عوامل أخرى على تفكك الدولة الاسلامية ، ومن هذه ماهر معروف باسم الشعوبية . وهى كلمة تطلق على الروح

الانفصالية التي سادت الشعوب العريقة في المدينة قبل الاسلام ، ومحاولتها الخروج على العرب المسلمين ، أصحاب السلطان . والفرس أول الدعاة الى هذه الحركة الشعبية ، اذ حقدوا على العرب سطوتهم وسيطرتهم على بلادهم ذات الحضارة القديمة ، ووجدوا متنفسا لتحقيق مآربهم السياسية في الفتنة التي ظهرت عقب مقتل عثمان بن عفان ، بقيام الشيعة والخوارج . فاحتضن الفرس دعوة الشيعة المنادية بحق بيت الرسول في الخلافة ، وخرجت من بلادهم الثورة التي أطاحت بالدولة الاموية ، وكفلت للعباسيين عرش الخلافة الاسلامية .

وأدرك الخلفاء العباسيون الأولون أهداف أهل فارس فلم يسمحوا لهم بتحقيق مطامعهم الانفصالية ، مع أنهم الذين ساعدوا الدعوة العباسية الاولى على الانتشار في بعض جهات من بلادهم ، لا سيما في خراسان ، وهي الجزء الشمالي الشرقي من فارس . بيد أن الفرس ظلوا ينافسون العرب ، وانتهزوا فرصة الشقاق بين بعض الخلفاء العباسيين لنشر دعوتهم . وانضج نشاط الفرس وعلو مركزهم على عهد الخليفة المأمون العباسي . اذ استعان بهم علنا في التخلص من اخيه الامين وأنصاره من العرب (١٩٨هـ / ٨١٣م) وجعل منهم قادة للجيش واشتهر من أولئك القادة الفرس طاهر بن الحسين الذي عينه المأمون والياعلى خراسان . ثم لم يلبث هذا القائد أن أغفل الخلافة العباسية واسقط اسم الخليفة من خطبة الجمعة ، وأسس هو واخلافه الدولة الطاهرية

(٢٠٢ - ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ - ٨٧٢ م) التي غدت أول دولة فارسية مستقلة عن الخلافة العباسية في آسيا .

ضعف الخلافة في بغداد :

ثم أدى التنافس بين الفرس والعرب الى اتجاه الخليفة المعتصم العباسي الى التخلص من هذين الحزبين معاً ، والاعتماد على الاتراك في ادارة الدولة . فاشترى الاتراك من بلاد ماوراء النهر ، ولقنهم التعاليم الاسلامية واللغة العربية ، واتخذ منهم حرسه الخاص ، بعد أن أقصى الفرس والعرب عن خدمته وجيشه ، وقد ارباب الكفريات منهم مختلف المناصب في الدولة . وظن الخليفة المعتصم أن الاتراك أقل خطراً على الخلافة من الفرس والعرب .

غير أن نفوذ الاتراك لم يلبث أن طغى على عهد المعتصم نفسه ؛ فلم يحترموا الخلافة وضائق بهم بغداد وأهلها ، فانتقل المعتصم بهم الى سامرا ، وجعل منها عاصمة الخلافة . واستخف الاتراك بالخلفاء بعد وفاة المعتصم ، فعزلوا الخليفة الذي لا يرضون عنه ، وقتلوا الخليفة الذي يعترض أعمالهم . وغدا الاتراك أصحاب الكلمة العليا في سامرا وبغداد ، ومنحهم الخلفاء ادارة معظم الولايات الاسلامية ، وتركوا لهم الحرية في تصريف شئونها . وادى ذلك الى تفكك الدولة الاسلامية ، اذ فضل بعض السادة الاتراك البقاء في بغداد ، وأوفدوا نواباً عنهم في ادارة هذه الولايات

وصاروا بذلك ولاية متغبين عن ولاياتهم ، وهو أسوأ أنواع الولاية .
وتطلع أولئك النواب واشباههم من الولاية الى الاستقلال بهذه
الولايات لضعف الرقابة عليهم ، ولم يلبثوا أن جعلوا مناصبهم
وراثية في أبنائهم . فنشأت دويلات عديدة لايربطها بالخلافة
العباسية سوى تبعية اسمية ، واخرى مستقلة عنها تمام
الاستقلال او تكاد . ومن امثلة هذه الدويلات دولة الطولونيين ثم
الاخشيديين بعدهم في مصر .

مشكلة ولاية العهد :

ثم أن الخلفاء العباسيين دأبوا على نظام تولية العهد لأكثر من
واحد ، سواء من أبنائهم أو من أقاربهم من آل بيت الرسول .
وادی ذلك الى كثير من النزاع الداخلى والشقاق بين الاخوة ،
على نحو ماحدث بعد موت الخليفة الرشيد سنة ١٩٣هـ / ٨٠٩م ،
ذلك أن الرشيد عهد بالخلافة من بعده الى اولاده : الامين ثم
المأمون ثم المؤتمن - وثالثهم هذا هو الذى صار المعتصم فيما
بعد ، كما قسم البلاد الاسلامية بينهم كأنما هى ارث من أب الى
أبنائه . فلما تولى الامين عمد الى اقضاء اخيه المأمون عن ولاية
العهد ، ونشب بينهما صراع قويّ فيه شوكة الفرس أصحاب
المأمون ، وضعفت سلطة العرب أصحاب الامين .

ثم انتشرت العداوة والبغضاء بين أفراد البيت العباسى ،
ولا سيما بين ولى العهد واخوته واقاربه ، فلم يكد ولى العهد
يصل الى عرش الخلافة حتى عمل على التنكيل بهؤلاءاولئك .

على أن ذلك لم يقطع دابر العداوة والبغضاء ، فضلاً عن المنافسة ، بل أصبحت هذه المنافسة خطراً على كيان الدولة عندما استبد الاثراك بالسلطة من دون الخلفاء . اذ دخل الاثراك في الدسائس والمؤامرات بين أبناء الخلفاء . وذاعت الفوضى عندما ولى الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٢هـ / ٨٤٧م) اولاده الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد ، اذ قدم المتوكل ابنه الثاني وهو المعتز على المنتصر في ولاية العهد . واقتصر الجند الترك هذه الفرصة ، وشجعوا المنتصر على قتل أبيه فقتله . وتولى الخلافة بعده .

وأصبح بذلك مركز الخليفة ضعيفاً ، ولا هيبة له في العاصمة نفسها . وغدا الخليفة نفسه تحت رحمة قادة الجند من الترك الذين أصبحوا وزراء الدولة ، وليس له في الامر شيء سوى اطاعة أولئك الوزراء الذين استبدوا بالحكم والادارة معاً . وجعلوا مصالحهم الشخصية فوق وحدة الدولة .

صعوبة المواصلات :

ومما زاد في ضعف الخلافة ضخامة الدولة الاسلامية وتعدد اجزائها وصعوبة اتصال هذه الاجزاء بالحكومة المركزية . فاستطاع ولاية العباسيين ، ولا سيما ولاية البلاد النائية عن بغداد ، أن يستقلوا بشئونهم دون خشية بطش سريع أو عقاب عاجل . ومن الواضح ان صعوبة المواصلات وطول المسافات

يساعد على تحقيق مطامعهم ، فلم تصل جيوش الخلافة في كثير من الاحيان الا بعد فوات الاوان .

ثم ان الخلفاء العباسيين منحوا قادة الجيوش المتوجهة للقضاء على الفتن في الولايات البعيدة سلطات واسعة ، واستغل بعض أولئك القادة هذه السلطات ، فعمل الواحد منهم على الاستقلال بالولاية الموفد اليها . ولذا غدا سلطان العباسيين ضعيفا في معظم اطراف الدولة الاسلامية ، ولا سيما في شمال افريقيا وأرض الاندلس . وشهدت هذه الاطراف أول انفصال وتفكك ينادى في كيان الدولة الاسلامية منذ السنوات الأولى لقيام الخلافة العباسية ، وتعمرت جهود الخلفاء العباسيين في ازالة ذلك بسبب صعوبة المواصلات ، فلم يستطيعوا القضاء على بذور الانقسام السياسى الاول الذى نبت في أرض اسبانيا . لم أضحى تفكك الدولة الاسلامية واضحا ، وسرت عدوى الانفصال والاستقلال من أرض اسبانيا الى غيرها من ولايات الخلافة العباسية .

قيام الدول المستقلة

الاندلس

الإمارة الأموية في إسبانيا :

رأى العباسيون منذ أول إعلان خلافتهم . سنة ١٣١ هـ / ٧٥٠م أن استمرارهم في الخلافة يتطلب القضاء على أبناء البيت الأموي . غير أن أحد أفراد بني أمية ، واسمه عبد الرحمن بن معاوية - وهو حفيد هشام عاشر الخلفاء الأمويين - استطاع الهرب من المذبحة التي أقامها الخليفة أبو العباس لتنفيذ هذه السياسة . ودخل عبد الرحمن بن معاوية فلسطين ، ثم انتقل منها سريعا إلى شمال أفريقيا ، حيث لجأ إلى قبائل أخواله من أهل تلك البلاد ، وأخا ينتقل من مدينة إلى أخرى - من برقة إلى مراكش ، حتى دخل مدينة سبتة سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٥م ، فاستقر بها قليلا . وفي سبتة ، على الطرف الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، أخذ عبد الرحمن الأموي يفكر في إحياء الدولة الأموية . وتطلع إلى الأندلس الإسلامية لتحقيق ذلك ، وهي البلاد التي فتحتها جيوش إسلامية زمن الأمويين منذ سنة ٧١١م . واستقرت بها بعد الفتح الإسلامي طوائف من أهل الشام وجنوده الموالين للبيت الأموي . لذا أرسل عبد الرحمن أحد أتباعه ليجمع كلمة أنصار بني أمية من أولئك الجند . ورحب الزعماء الأندلسيون

بدعوة عبد الرحمن الاموى ، وراوا فيه شخصا جديرا بتولى زعامتهم بدلا من الحاكم العباسى البغيض اليهم .

وعبر عبد الرحمن البحر الى شاطئ الاندلس ، ونزل بمكان اسمه المنكب ، وهناك انضم اليه انصار بنى أمية ، فاستولى على مدن البلاد الجنوبية دون مقاومة . ثم استولى عبدالرحمن على قرطبة عاصمة ولاية الاندلس سنة ١٤١ هـ / ٧٥٦ م ، بعد فرار الحاكم العباسى منها . وأعلن نفسه أميرا ، كما أصدر عفوا عاما غداة دخوله قرطبة ليمنح نفسه فى البلاد . وتم بذلك - بعد عشر سنوات فقط من اعتلاء العباسيين عرش الخلافة فى بغداد - انفصال ولاية الاندلس رسميا عن الخلافة العباسية .

تأمين الامارة المستقلة :

ظل عبد الرحمن الاموى يعمل دائما مدة حكمه التى بلغت ثلاثة وثلاثين عاما على تأمين مركزه فى أجزاء دولته . فأخمد الفتن التى نشبت بين بعض القبائل العربية فى الاندلس ، واعد البلاد لدفع محاولات العباسيين المنتظرة لاجراجه من الاندلس ، والواقع أن الخليفة ابا جعفر المنصور (١٣٦ هـ / ٧٥٤ م) عزم على اخراج عبد الرحمن الاموى والقضاء على دولته . ولذا عين العلاء ابن مغيث واليا على الاندلس ، وارسله على رأس جيش سنة ١٤٦ هـ / ٧٦١ م الى اسبانيا . ولكن الامير عبد الرحمن الاموى

هزم هذا القائد العباسي وقتله ، ووضع رأسه في ملح وكافور ،
ولفها في علم العباسيين الاسود اللون ، وارقق معها كتاب التعمين
العباسي . ثم امر احد التجار بالقاء هذه الرأس في طريق الخليفة
المنصور الى الحج بمكة .

ولم يحاول المنصور العباسي ان يعين أحدا آخر على
الاندلس ، او يرسل جيشا لحرب الامير عبد الرحمن الاموي .
بل فضل ان يستميله اليه ، واعترف له بلقب « صقر قریش » .
واكتفت الخلافة العباسية ببقاء عبد الرحمن الاموي بعيدا عنها في
أمارته ، اذ قال الخليفة المنصور « الحمد لله الذي جعل بيننا وبين
ذلك العدو بحرا »

صد هجمات الفرنجة :

ولم تقتصر مشاكل عبد الرحمن الاموي على ما حاط أمارته
من خطر من ناحية الخلافة العباسية ، بل هددته
دولة الفرنجة (فرنسا الحالية) ، فضلا عن بقايا
المقاومة المسيحية الاسبانية التي انكمشت الى حين في الشمال
الغربي من شبه جزيرة أيبيريا . ولذا عمد الخليفة المنصور
العباسي الى عقد حلف مع بين (Pepin) ملك الفرنجة للهجوم على
بلاد الاندلس . وارسل اليه سفراء وهدايا عديدة ، ولكن الحلف
لم يدخل في دور التنفيذ العملي . على ان الامير عبد الرحمن لم
يفعل خطوة مملكة الفرنجة على أية حال ، فاستعد لاي هجوم
يأتي من جانبها . وتحققت مخاوفه عندما بعث شرلمان ، ملك

الفرنجة ، بجيش الى اسبانيا سنة ٧٧٧ م لمساعدة زعماء العرب
المناوئين لسلطان الامويين . لكن الجيش الفرنجى اضطر الى
التقهقر بعد ان عجز عن فتح مدينة سرقسطة سنة ٧٧٨ م وقفل
عائدا الى بلاده . وعند عبور جيش الفرنجة مضائق جبال البرانس
هجمت على مؤخرته قبائل البسقاوية المسيحية سكان تلك الجبال
وانزلت به خسائر فادحة . وسقط قائد الفرنجة المدعو «رولاند»
قتيلا .

وخلد الفرنجة فيما بعد ذكرى هذه الهزيمة التى أنزلها
المسيحيون بجيوش مسيحية فى اغنية رولاند التى تعد من طلائع
الادب الفرنسى فى العصور الوسطى ، وشاعت هذه القصيدة أيام
الحروب الصليبية بين اوروبا والشرق ، وحلا لمؤلّفها ان يعزو
هزيمة رولاند ومقتله الى المسلمين . وهى فرية عمد مروجوها
لاستثارة حماسة الاوروبيين ضد المسلمين .

على أن ارتداد الجيش الفرنجى عن اسبانيا أثبت للملوك أوروبا
منعة الامارة الاسبانية المستقلة . وقضى على اية محاولة للهجوم
عليها مرة اخرى . اما العلاقات الودية بين الخلافة العباسية ومملكة
الفرنجة فلم تنتج شيئا سوى تبادل الهدايا . اذ عمّد الخليفة العباسى
هارون الرشيد الى تجديد الصلات التى بدأها جده ابو جعفر
المنصور مع دولة الفرنجة ، فكتب الى شارلمان بذلك . وظلت امارّة
الاندلس مهابة مدة عبد الرحمن الاموى ، وبدت دولته عند وفاته
سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وطيدة الاركان، وعاشت بعده قرنين وثلاثة

ازباع قرن من الزمان .

على ان اسبانيا الاسلامية دخلت في القرن الحادى عشر الميلادى دورا طويلا من التفكك الداخلى بين اجزائها ،على يد ملوك مسلمين اطلق عليهم التاريخ اسم ملوك الطوائف . ومازال هؤلاء الملوك يتناحرون فيما بينهم حتى قضى عليهم الاسبانيون المسيحيون ، وزال سلطان المسلمين نهائيا من اسبانيا عندما انهزمت جيوش هيبدا الله ملك غرناطة سنة ١٤٩٢م .

الحضارة الاسلامية الاندلسية

استطاع عبد الرحمن الاموى ان يكفل للاندلس حكومة اسلامية مستنيرة مستقرة ،رائدها التسامح الدينى . فنعمت اماره الاندلس بادارة صالحة ، وتمتعت بحضارة زاهرة نافست حضارة العباسيين فى بغداد ، وفاقته حضارات الدول الاوربية المعاصرة لها وبلدت مظاهر العصر الجديد عندما كفل الامويون لسكان الاندلس ، على اختلاف طبقاتهم ، وسائل الرخاء والطمانينة ، وهياؤا لهم الجور الصالح للعمل والانتاج .

واظهر الامويون مقدرة عالية فى الادارة ، اذ اشتملت الاندلس على القبائل العربية التى جاءت مع الفتح الاسلامى ، كما اشتملت على جماعات من المسيحيين واليهود من سكان البلاد قبل الفتح الاسلامى ، وهؤلاء وأولئك فضلا عن جماعات من البربر المسلمين سكان شمال افريقيا ، وهذه جاءت الى اسبانيا مع الجيوش

الاسلامية . غير ان العرب والبربر مالبثوا ان تنازعوا فيما بينهم ،
واتاحوا للسكان الاصليين من المسيحيين فرصة النيل من المسلمين
وسياذتهم على البلاد . ومع هذا ظلت الامارة الاموية بالاندلس
مهيبة الجانب ، وقضى الامويون في حزم على القلاقل الداخلية ،
وكسبوا بتسامحهم ولاء السكان المسيحيين . وامعنت طائفة كبرى
من اولئك السكان المسيحيين في تقليد المسلمين في حياتهم ونظمهم ،
وصاروا طبقة اجتماعية عرفت باسم المستعربين ، واعتنق بعضهم
الاسلام اقتناعا او ضمانا للدخول في وظائف الدولة .

نظم الحكومة :

وسار الامويون في حكم الاندلس وفق نظم لا تختلف كثيرا عن
نظم العباسيين ، فالامارة وراثية في أبناء البيت الاموى ، واتخذ
كل منهم لنفسه لقب امير ، اذ لم يظهر لقب خليفة او امير المؤمنين
للامويين في الاندلس الا في عهد عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر
(٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) . ذلك ان عبد الرحمن الثالث هذا رأى ان
مركزه في قرطبة لا يقل عن مركز خلافة العباسيين في بغداد ، بل
يفوق خلافة الفاطميين التي قامت في شمال افريقيا قبل انتقالها
الى مصر . ولذا عقد عبد الرحمن مجلسا من العلماء ورجال الدولة
سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م للنظر في هذا الرأى ، وتم اعلانه خليفة امويا
بالاندلس في تلك السنة .

وسار الخليفة في حكم البلاد عن طريق الوزراء ، واشتهر الوزير
الاول في الاندلس باسم الحاجب ، وهو الذى يتلقى التعليمات من

الخليفة ، ويبلغها الى سائر الولاة والموظفين . وتمتع القضاة في
الاندلس بمركز كبير سام . وتسمى رئيس القضاة باسم « قاضي
الجماعة » وأقام في قرطبة . ومن أهم وظائف الدولة كذلك وظيفة
المحتسب ، ومهمة صاحبها لا تختلف عن مهام الحسبة في
الدولة العباسية ، أو غيرها من الدول الاسلامية .

وانقسمت الاندلس الى ست مقاطعات ، لكل منها حاكم له
سلطة مدنية وعسكرية ، ويسمى بالوالي ، واختصت بعض المدن
الكبرى بولاية يعينون لها وحدها . وغدت الاندلس بذلك تنعم
بحكومة مستقرة ، وتقدمت أحوالها الاقتصادية والعلمية والفنية .
العاصمة الاندلسية :

ووضحت مظاهر ذلك التقدم العام في قرطبة عاصمة
الاندلس . وتقع هذه المدينة في سهل خصيب واسع ، على سفح
جبال الشارت (وهى سرامورينا) ، بحيث تطل على الشاطئ
الأيمن لنهر الوادى الكبير . ونالت قرطبة شهرة عالمية أثارت
الاعجاب في قلوب الوافدين عليها من الشرق الاسلامى والغرب
المسيحى ، اذ ازدادت بشبكة من القنوات المائية لتغذية أحيائها
بالمياه الجارية الى المدينة من المرتفعات المحيطة بها ، وكثرت بها
ايضا المساجد والفنادق والخوانيت والطرق الرصوفة ذات
الاضاءة الحسنة .

وإفاض المعاصرون في الاشادة ببهاء قرطبة ، فقال احدهم :
« ان المسافر يستطيع ان يسير عشرة أميال في طرقها على ضوء

المصاييح » . وذكر آخر « ان المدينة امتدت أربعة وعشرين ميلا طولا ، وستة اميال عرضا ، وامتلات كل هذه المساحة بالقصور والجوامع والمنازل والحدائق ، على ضفاف الوادى الكبير . » وتعددت ضواحي قرطبة حتى بلغت سبعا وعشرين ضاحية ، ونزل بهذه الضواحي اهل الطبقة الغنية ورجال الدولة ، ولكل ضاحية جوامعها وأسواقها وحماماتها » . وزارت راهبة سكسونية من المانيا مدينة قرطبة ، فوصفتها بأنها « جوهرة العالم » .

وحرص خلفاء بنى امية على تجميل عاصمتهم بالمباني الشاهقة والحدائق والجوامع كذلك . فأنشأ عبد الرحمن الداخل منية الرصافة خارج قرطبة ، وجلب الماء الى هذا القصر ، وأدخل في حديقته انواعا من أشجار الفاكهة ، لم تعرفها الاندلس قبلا ، مثل الخوخ والرمان . وأسس عبد الرحمن قبيل وفاته الجامع الكبير في قرطبة ، ليباهى به حرم الكعبة بمكة والمسجد الاقصى ببيت المقدس . واتم خلفاؤه بناء هذا الجامع ، حتى أصبح اعظم جوامع الاسلام .

قصر الزهراء :

واشتهرت قرطبة كذلك بالقصر الملكى المعروف بالزهراء ، وهو القصر الذى نمت حوله المباني والعمائر حتى صار اسمه علما على مدينة كبيرة . وبنى الخليفة عبد الرحمن الثالث هذا القصر سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م ، وسماه بهذا الاسم ، نسبة الى محظية

من محظياته . وتابع الخلفاء الأمويون بعد عبد الرحمن تجميل القصر حتى غدا أروع بلاط بين دول أوربا ، تأتى إليه السفارات من امبراطور الدولة البيزنطية وملوك ألمانيا وإيطاليا وفرنسا .

وتولى حراسة الزهراء حرس الخليفة المكون من المماليك المجلوبين من شتى بلاد أوربا ، وهم من أجلاب البلاد الجرمانية والسلافية (الصقالبة) وغيرهم من الفرنجة ، يشتررون بالمال ويلحقون بخدمة الخليفة . واشتهر هذا الحرس باسم « الصقالبة » لكثرة الجنس الصقلى بينهم . وغدت جماعات هذا الحرس الملوكى أداة الخليفة فى المحافظة على أمن الدولة واستقرارها .

ودلت قرطبة بقصورها ومباهجها وضواحيها على غنى الدولة ، والمعروف أن إيرادات الخليفة عبد الرحمن الثالث بلغت ٦٢٤٥٠٠ دينار . وجاء هذا الإيراد الوافر من الزراعة والصناعة والتجارة .

الزراعة :

أما الزراعة فى أسبانيا الإسلامية فنالت عناية كبيرة من المسلمين ، اذ حفروا القنوات وغرسوا الكروم ، وجلبوا من الشرق الإسلامى ولاسيما الشام ومصر أنواعا من النباتات والفواكه ، مثل الارز والمشمش والخوخ والرمان والبرتقال وقصب السكر . ووصل العرب الى مستوى غال فى علم فلاحه

الأرض بالاندلس بفضل ما زرعوا من حقول تجريبية ، وما درس علماءهم من علوم النبات . فلاءموا بين التربة والطقس لزراعة أنواع النبات .

ولا تزال بعض حداثق أسبانيا في الوقت الحاضر تشهد بالرقى الزراعى الذى تدين به البلاد الى المسلمين . ومن أروع حداثق أسبانيا زمن الامويين جنة العريف التى ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وهى الحديقة التى نسقت على شكل مدرجات ترويهما القنوات التى تهبط مياهها من مستويات مرتفعة ، ولا يزال فى موضع الحديقة بعض اشجار الريحان والسرو حتى العصر الحاضر .

الصناعة :

وازدهرت الصناعات فى أسبانيا كذلك على عهد المسلمين ازدهارا كبيرا . فانتقلت صناعة دبغ الجلود من مراکش الى أسبانيا ، وغدت قرطبة مقر هذه الصناعة الجديدة . وجلب المسلمون دودة القز الى أسبانيا ، وصارت صناعة الحرير رائجة فى كثير من المدن مثل مالقة والمرية ، فضلا عن قرطبة . وشجع المسلمون الصناعات الوطنية مثل صناعة الزجاج والنحاس والخزف .

واستثمر المسلمون مناجم الحديد والرصاص بالقرب من قرطبة ، ونشطت على أثرها صناعة السلاح . وكذلك أدخل المسلمون صناعة زخرفة المعادن وتذهيبها وتفضيضها . وغدت

مدن أسبانيا عامرة بالمنتجات الصناعية التى أقبل التجار على شرائها والمتاجرة فيها بأنحاء العالم .

التجارة :

ذلك أن منتجات أسبانيا الصناعية زادت عن حاجاتها المحلية فصدرت الفائض منها الى الخارج ، وغدت اشبيلية وهى احدى الثغور النهرية تصدر الزيتون والزيت ، وتستورد الاقمشة من مصر ، والدقيق والجوارى من أوروبا وآسيا . واشتملت صادرات مالقة على التين والسكر . وبلغت حركة النشاط التجارى أشدها مع الاسكندرية وبغداد والقسطنطينية . وقام الاندلسيون بكثير من الكشوف بحثا عن أسواق تجارية ، واتسعت حركة التجوال والرحلة .

التعليم :

وتجلى ازدهار الحضارة فى الاندلس فى ميدان العلم فبلغ عدد مدارس قرطبة سبعا وعشرين مدرسة ، تلقى فيها الناس العلم بالمجان . كما اشتهرت جامعة قرطبة التى اتخذت مقرها فى الجامع الكبير بعظمة علمائها وسعة معارفهم ، وهى تسبق فى تأسيسها الجامع الازهر فى القاهرة ، والمدرسة النظامية فى بغداد . ووفد الى جامعة قرطبة كثير من اساتذة الشرق للتدريس بها ، فضلا عن اساتذتها من الاندلسيين ، مثل ابن القوطية المؤرخ وابو على القالى اللغوى .

واجتذبت جامعة قرطبة الطلاب من المسيحيين والمسلمين على السواء من أوروبا وأفريقيا . وامتاز علماء الاندلس بحب البحث والارتحال في طلب العلم . فرحل كثير منهم الى مصر والشام والعراق وفارس وبلغ بعضهم بلاد ما وراء النهر والصين في طلب العلم والمعرفة .

فضل الحضارة الإسلامية الاندلسية على أوروبا :

بلغت حضارة المسلمين في اسبانيا مرتبة رفيعة في القرن الحادى عشر الميلادى ، واخذ تيارها يتدفق في القرن التالى على أوروبا . ومعنى هذا أن التيارات الفكرية التى جلبها المسلمون الى اسبانيا من دمشق وبغداد والقاهرة جعلت أوروبا متصلة بمنابع العلوم والفنون في الشرق . ذلك أن غرب أوروبا ظل منعزلا عن الحضارة البيزنطية بشرق أوروبا ، وهى الحضارة الوثيقة الاتصال باليونانيين والرومانيين الاقدمين ، فضلا عن الحضارة الاسلامية - لان العداء المذهبى بين الكنيسة الكاثوليكية في غرب أوروبا والكنيسة الارثوذكسية في شرقها قلل الاتصال الحضارى بين اتباعهما ، وحجب حضارة اليونان القديمة عن ممالك غرب أوروبا ، ومن ثم غدا مجيء طلاب غرب أوروبا الى جامعات اسبانيا الاسلامية هو السبيل الى اطلاعهم على مؤلفات اليونان الاقدمين مترجمة الى العربية ، ومنها الى اللاتينية .

ومما ساعد على انطلاق الحضارة الاسلامية في غرب أوروبا

ان ملوك أسبانيا المسيحيين عند ما استولوا على الاراضى
الاسلامية وانتزعوا بعض مدنها الهامة مثل طليطلة ، حفظوا
ما فيها من نور المعرفة أملا فى بقاء التقدم الحضارى فى دولهم
الجديدة . فشجع الفونسو السادس ملك قشتالة يهود
طليطلة على تكريس جهودهم العلمية على نحو ما ساروا عليه
ايام تبعيتهم للمسلمين . وشجع هذا الملك كثيرا من العلماء
المسلمين كذلك على الانتقال الى ممتلكاته المسيحية وأتاح لهم
بذلك نشر التفكير الفلسفى الاسلامى وايصال التراث اليونانى
القديم الى غرب أوروبا .

الدولة المستقلة فى مصر

الفاطميون

ساعد موقع مصر الجغرافى وبعدها عن مركز الخلافة
العباسية فى بغداد على تفكير بعض ولاتها فى العصر العباسى على
الاستقلال بها . وأول أولئك السرى بن الحكم الذى استطاع
أن يجعل ولاية مصر فى أبنائه من بعده ، مع بقائها تابعة اسميا
للخلافة العباسية . واتخذ السرى بن الحكم لنفسه سنة
٢٠٠هـ / ٨١٥م عاصمة فى مدينة تنيس بشرق الدلتا
وخطا احمد بن طولون بعد ذلك خطوة واضحة حين
استقل سنة ٢٦٣هـ / ٨٧٧م بشئون مصر الداخلية

والخارجية ، ما عدا الاموال التى أدتها الخزانة المصرية سنويا لبيت مال الخلافة العباسية فى بغداد . وبنى أحمد بن طولون لدولته عاصمة جديدة اسمها القطائع ، وهى جهة حى الصليبة بالقاهرة فى الوقت الحاضر ، وأنشأ بها جامعا نسب الى اسمه ، وهو نموذج رائع من نماذج الفن المعمارى الاسلامى ، كما بنى مستشفى يبدو انه الاول من نوعه فى البلاد المصرية .

وظلت مصر على استقلالها هذا زمن أبناء أحمد بن طولون ، الذين يجمعهم اسم الدولة الطولونية ، ثم عادت مصر الى التبعية للخلافة العباسية سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م . غير أنها ما لبثت أن عادت الى الاستقلال مرة أخرى على يد محمد بن طغح الاخشيد وأبنائه (سنة ٣٢٣ هـ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٨٩ م) ومن الملاحظ أن الدولة الاخشيدية جعلت لنفسها كذلك عاصمة جديدة بين القطائع والقلعة الحالية .

قيام الدولة الفاطمية

وبينما تلك الحوادث تجرى ، قامت فى شمال افريقيا حركة شيعية تنتسب الى فاطمة بنت النبى ، حتى صارت هذه الحركة تنتسب الى اسمها . وأسفر ذلك عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧ هـ ، ٩٠٩ م .

وتفصيل ذلك أن الدعوة الشيعية غدت منذ قيام الدولة العباسية سريّة ، بسبب امعان معظم الخلفاء العباسيين فى اضطهادهم

واتخذ بعض دعاة الشيعة مقرا لهم في اليمن لقربها من الحجاز ، ملتقى الحجاج المسلمين . وفي أحد مواسم الحج تعرف احد اولئك الدعاة واسمه أبو عبد الله الشيعي بجماعة من الحجاج من قبيلة كتامة من سكان شمال أفريقيا ، ونجح في استمالتهم الى العقيدة الشيعية ، وصحبهم بعد انتهاء موسم الحج الى بلادهم .

وتولى حكم شمال أفريقيا وقتذاك من قبل العباسيين أفراد اسرة الاغالبية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٩٠٩ م) ، التي لم تنجح في تأليف القلوب حولها ، وأذت الخلافة العباسية بمحاولة الاستقلال عن بغداد . فوجد أبو عبد الله الشيعي ميدانا لتأليف قلوب الناس بشمال أفريقيا لدعوته ، وما زال يعمل سرا حتى أضحت قوة عسكرية بفضل ما اجتمع حوله من الكارهيين للاغالبية من مختلف القبائل العربية والبربرية . واستطاع أبو عبد الله أخيرا أن يقضى على الاغالبية نهائيا سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م ، وأن ينادى بأحد سلالة علي بن أبي طالب ويدعى سعيد بن الحسين اماما ، ولقبه عبيد الله المهدي .

واتخذ عبيد الله المهدي عاصمة له في رقادة عاصمة الاغالبية ، وهي ضاحية من ضواحي القيروان . ثم قويت شوكته وكثر اتباعه ، فانتقل سنة ٩٢٠ م عن رقادة الى مدينة بناها لنفسه وسماها المهديّة نسبة اليه ، وهي على ساحل تونس ، على مسافة ستة عشر ميلا من الجنوب الشرقي لمدينة القيروان الحالية . وبدأ عبيد الله المهدي يعمل من عاصمته الجديدة على امتداد سلطانه

نحو مختلف البلاد المجاورة غربا ، مثل الجزائر ومراكش ، وشرقا نحو برقة وليبيا ومصر . وأعلن نفسه خليفة فصار بالعالم الاسلامي ثلاث خلافت ، وهى العباسية ببغداد ، والاموية بقرطبة ، والفاطمية بمدينة المهدي .

وسار أبناء عبيد الله المهدي على نهج سياسته التوسعية ، حتى استطاع أحدهم وهو المعز لدين الله فتح مصر . وكانت مصر تعاني وقتذاك ضنكا وجديبا أواخر حكم الاخشيديين . فأرسل المعز لدين الله قائده جوهر الصقلي ، وتم له الاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٦ ، بفضل ضعف الاخشيديين الذين رغب بعضهم بالفاطمين ، وذلك فضلا عن ضخامة الجيوش الفاطمية وحسن استعدادها . وأسس جوهر الصقلي مدينة القاهرة تلك السنة قبل قدوم الخليفة المعز لدين الله اليها سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، وغدت القاهرة بذلك عاصمة للدولة الفاطمية وأجزائها الممتدة من مراكش الى آخر الاطراف المصرية .

الخلافة الشيعية :

وأدى استقرار الخليفة الفاطمي بالقاهرة الى اشتداد المنافسة بين الفاطميين والعباسيين . فأخذ المعز لدين الله الفاطمي وخلفاؤه يعملون على امتداد دولتهم شرقا حتى اشتملت على الشام ، ثم استقر نفوذ الفاطميين هناك على عهد العزيز بالله (٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م) ، اذ ورث الفاطميون ممتلكات الاخشيديين في الحجاز

والشام ، وغدا اسم الخليفة الفاطمي يذكر في خطب الجمعة من جميع المساجد من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر واليمن ومكة ودمشق .

وضعف شأن الخلافة العباسية ضعفا شديدا في ذلك الوقت ، حتى ان اسم الخليفة الفاطمي ذكر في بعض مساجد العراق نفسها . اذ اغتصب البساسيري أحد قادة الاثراك في بغداد جميع مظاهر السلطة من الخليفة العباسي ، وذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧هـ / ١٠٣٥م) في مساجد العاصمة العباسية مدة اربعين جمعة متتالية ، نكاية في العباسيين . وحذت مساجد واسط والبصرة حذو مساجد بغداد ، فأعلنت اسم الخليفة الفاطمي من منابرها . وترتب على ذلك كله ضعف الخلافة العباسية وحرية خلفائها بين قادتهم العسكريين من الترك ، حتى أن الخليفة القائم العباسي كاد يتنازل عن خلافته للفاطمين . وبذا وصلت الخلافة الفاطمية الى مركز الصدارة في العالم الاسلامي ، وغدت الدولة الوحيدة صاحبة النفوذ والسلطان في شرق البحر الابيض المتوسط . وبلغ اسطولها مبلغا كبيرا من السيطرة والتفوق على اسطول الامبراطورية البيزنطية في العدد والضخامة وحسن الاستعداد . وتحدى الفاطميون خلافة الامويين بالاندلس ، وحاولوا بسط نفوذهم على القسم الغربي من البحر الابيض المتوسط .

انهيار الدولة الفاطمية :

غير أن الدولة الفاطمية على عظمتها واتساع مساحتها وعنايتها

بالترفيه عن الشعوب الخاضعة لها ، لم تستطع أن تجتذب إليها أهل السنة ، بل ابتعد عنها علماء السنة وفقهاؤها ، حتى اذا جاء الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م وادعى الألوهية لنفسه أخذت الدولة الفاطمية تفقد هيبتها في قلوب الناس . وأساء الحاكم بأمر الله الى نفسه والى دولة آبائه وإبنائه بعده باصراره على الدعاية للمذهب ، واضطهاد الطوائف التى أصرت على مخالفته ، بل امتد اضطهاده الى الاقباط واليهود . وبدل على ذلك اغتياله ليليا في صحراء المقطم على يد رجل سنى ، بإيعاز من سيدة الملك اخت الحاكم .

ومع هذا استطاعت الخلافة الفاطمية ان تعيش مدة طويلة بعد الحاكم بأمر الله ، اذ عمدت الى استجلاب مختلف الاجناس من السودان والبربر والترك والارمن لتقوية جيوشها ، فهيأت بذلك اسباب كراهيته ولا سيما في مصر . ومع ان الرحالة الفارسى ناصرى جسر وشهد أثناء زيارته لمصر سنة ١٠٤٥ م بما فى القاهرة من بهاء ونظام وثروة على عهد الخليفة المستنصر ، فان الاحوال لم تلبث ان تغيرت بسبب منافسة اجناس الجيش وثوراتهم ، واستهتارهم بالامن اللازم لنمو النشاط الاقتصادى والثقافى للدولة الفاطمية . ثم طرأ على الدولة الفاطمية غلاء فى عهد الخليفة المستنصر هذا ، وظل هذا الغلاء سبع سنوات أعقبها طاعون ، حتى سمي الماصرون هذا الغلاء باسم الشدة العظمى . ومع حدوث غلاء فى عهود سالفة لا يام الشدة العظمى فانه يبدو أن ما حدث أيام

الغلاء على عهد المستنصر أزال مابقى من هيئة الدولة الفاطمية .

ولم ينقذ الدولة سلسلة الوزراء القادرين المعروفين باسم الوزراء العظام ، وهم يبدأون من بدر الجمالى على عهد الخليفة المستنصر ، وينتهون بشاور على عهد الخليفة العاضد . ذلك ان خطرا خارجيا اخذ يستولى على انتباه أولئك الوزراء من ناحية الدولة السلجوقية ومملكة بيت المقدس الصليبية ، اذ أزال السلاجقة سلطان الفاطميين من معظم الشام ، وأتم الصليبيون القضاء نهائيا على نفوذ الفاطميين فى تلك البلاد . وذهب كذلك سلطان الفاطميين عن شمال افريقيا ، لاستقلال ولائهم هناك ، ولم يبق للدولة الفاطمية سوى مصر .

وزاد الموقف سوءا فى الدولة الفاطمية حين اخذت مملكة بيت المقدس الصليبية تطمع فى مصر نفسها، مع بقاء الخطر السلجوقى ماثلا كذلك فى صورة جديدة قوامها الدولة الزنكية ، التى تفرعت من الدولة السلجوقية بقيام الاتابك عماد الدين زنكى فى الموصل وحلب . واستولى نور الدين بن عماد الدين زنكى على دمشق سنة ١١٥٤ م ، وعمد الى سياسة منع الصليبيين من امتداد نفوذهم الى مصر ، ثم تطورت هذه السياسة الى تنافس بين مملكة بيت المقدس الصليبية ونور الدين بن زنكى عندما اضطرب الموقف الداخلى فى مصر . ذلك أن الوزير الفاطمى ضرغام سمح للصليبيين بالتدخل فى شئون الدولة الفاطمية، بل رضى بأن يدفع لهم مبلغا سنويا من المال ضمانا لمساعدتهم له ضد منافسه فى

منصب الوزارة وهو شاور والى الوجه القبلى ، وان بعد الوعود
الكثيرة نظير هذه المساعدة . ولم يستطع شاور الا ان يطلب بدوره
المساعدة من نور الدين ، وسرعان ما أصبحت مصر ميدانا لحملات
وحروب بين جيوش الصليبيين والجيوش النورية . أما الصليبيون
فقداء جيوشهم الملك آمورى الاول ، على حين قاد الجيوش
النورية شيركوه الايوبى والشاب يوسف ، وهو الذى عرفته
الحوادث باسم صلاح الدين ، وهو ابن نجم الدين ايوب أخى
شيركوه .

وتم النصر لجيوش نور الدين بقيادة شيركوه بعد مقتل ضرغام
وطلب شيركوه من الوزير شاور ان يفى بما قدمه من وعود مقابل
مساعدته على غريمه ، لكن شاور تكث بوعوده ، وراوغ وماطل
حتى قرر شيركوه التخلص منه ، وتم ذلك على يد الشاب صلاح
الدين . ورأى الخليفة الفاطمى العاضد وقتذاك ان ينقل الموقف
بتعيين شيركوه وزيرا ، فقام فى الوزارة مدة ثلاثة أشهر ، وتوفى
بعدها سنة ١١٦٩ م . فرأى الخليفة العاضد ان يسند الوزارة
الى الشاب صلاح الدين ، أملا أن يكون فى ذلك تمهيد للتخلص من
الجيوش النورية ، لكن مواهب صلاح الدين عكست الآية ، اذ تولى
صلاح الدين الوزارة ، وطلب الى سيده نور الدين ان يرسل اليه
أهله ، كما طلب نور الدين من تابعه صلاح الدين ان يعمل على
إلغاء الدولة الفاطمية الشيعية . واستطاع صلاح الدين بفضل
الخطط التى حبكها أهله ولا سيما أبوه ايوب أن يلغى الخطية

الفاطميين من منابر القاهرة سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ، والخليفة
العاقد مريض لا يدرى شيئاً . وتوفى العاقد سنة ٥٦٧ هـ /
١١٧١ م ، ويقال انه توفى دون أن يعلم بذلك الحادث . وهكذا
انتهت الخلافة الفاطمية في غير جلبة أو ثورة أو حرب ، وهى
الخلافة التى عجزت الدولة العباسية عن ازالتها بالحرب أو السياسة .

الحضارة الفاطمية

اما حضارة الدولة الفاطمية فأول مظهر من مظاهرها انشاء
القاهرة . ووضع جوهر الصقل أساس هذه المدينة
الحصينة الى الشمال من الفسطاط والقطائع ومدينة
الاخشيديين ، فبدأت من باب زويلة الى باب الفتوح فى العصر
الحاضر ، واشتملت على ما هو الآن حى الجمالية وباب الشعيرة
والموسكى والغورية وباب الخلق ، وغيرها .

واحيطت القاهرة الفاطمية بسور تناوله التجديد مرات عديدة
باتساع رقعتها ، وأصبحت دار خلافة تنافس دار الخلافة
العباسية ، أى بغداد .

الجامع الأزهر :

ولما أتم جوهر تأسيس القاهرة رأى أن يبنى جامعاً تقام
فيه شعائر المذهب الشيعى ، تجنباً لاثارة شعور أهل السنة .
فوضع الحجر الاساسى للجامع الأزهر المعروف سنة ٣٥٩ هـ /

٩٧٠ م ، وانتهى جوهر من بناء هذا الجامع الكبير بعد سنتين تقريبا ، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في رمضان سنة ٣٦١ هـ . ولم يلبث أن تطور الجامع الأزهر الى جامعة تلقى فيها الدروس والمحاضرات في علوم الدين على المذهب الشيعي ، وذلك بإشارة يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بن المعز لدين الله ، سنة ٣٧٨ هـ ، ليكون للدولة الفاطمية مركزا علميا يفد اليه الطلاب من ممتلكاتها لدراسة العلوم الدينية ومبادئ الشيعة .

واجتذب الخليفة العزيز وخلفاؤه الطلاب الى جامعتهم وقدمو اليهم المأكّل والمسكن . ولم يفقد الجامع الأزهر مكائنه العلمية بعد زوال الخلافة الفاطمية ، اذ تولاه سلاطين مصر من المماليك بالرعاية والعناية ، وحفظوا له هيئته وسمعته .

قصور الفاطميين :

وابدع الفاطميون في بناء القصور الفخمة ، وتنظيم البلاط الخلفي على نسق فاخر . فبنى جوهر الصقلي أثناء تأسيس القاهرة قصرا للخليفة المعز لدين الله . واهتم ابنه الخليفة العزيز كذلك بتشيد القصور ، وبنى لنفسه قصرا غربى مدينة القاهرة . وبنّت الملكة تغريد أم الخليفة العزيز قصر القرافة والحقّت به بستانا وحماما فاخرا . وتردد الناس من عليّة القوم على هذا القصر طلبا للراحة . واسست هذه الملكة كذلك « منازل العز » ، وهو قصر فخم على النيل ، دأب ابنها الخليفة العزيز وخلفاؤه على الاستجماع فيه طلبا للراحة .

واهتم الخلفاء الفاطميون بتزيين قصورهم أبهى زينة ، فأنشأ الخليفة العزيز قاعة الذهب التي جعلها مقرا لمجلس الحكومة ، ومكانا لاستقبال الوفود ، وزينها بالسور والطنافس الحربية ، وكلها من رسم ولون واحد . واتخذ الخليفة العزيز مقعده في صدر هذه القاعة خلف ستارة لا ترفع الا بعد انعقاد المجلس واكتمال عدد الحاضرين .

واشتهر الفاطميون فضلا عن ذلك ببناء « المناظر » ، وهي الأماكن التي تشرف على الجهات التي يقيم فيها الحفلات الرسمية أو تقع في نواح هادئة تصلح للاستجمام والراحة . ومن أمثلة هذه المناظر ، منظره المقس التي استعرض الخلفاء منها الاحتفال بسميرالاساطيل الحربية في النيل ، ومنظره باب الفتوح لاستعراض الجيوش الفاطمية حين خروجها من القاهرة أو عودتها إليها .

الاعياد والمواسم :

وبالغ الفاطميون في الاحتفال بالمواسم الاسلامية والاعياد وغيرها من المواسم غير الاسلامية كذلك ، واشتهر احتفال الفاطميين بيوم عاشوراء ومولد النبي وليلة النصف من شعبان ، ويقال ان العرائس المصنوعة من السكر ، والحلوى السمسامية والسكرية وغيرها من هدايا الموالد المصرية في العصر الحاضر ترجع الى أيام الفاطميين .

ومن أعياد الفاطميين غير الاسلامية خميس العهد الذي

يحتفل به النصارى قبل الفصح بثلاثة أيام ، ويوم القطاس ؟
وعيد الميلاد عند المسيحيين .

واهتم الفاطميون كذلك بإحياء المواسم المصرية القديمة مثل
عيد النيروز ، وهو أول السنة القبطية . اذ دأب الناس في
مستهل شهر توت على إبقاء النيران مشتعلة ليلة النيروز ، مع
رش الطرقات والبيوت بالماء تبركا بقدوم فيضان النيل .
ووزعت الحكومة الرواتب الإضافية على موظفيها احتفالا بهذا
العيد القومى .

غير أن القاهرة الفاطمية ظلت مدينة حربية ليس للمصريين
فيها سوى أعمالهم في الصناعة وخدمة قصور الخلفاء ، والوظائف
الكتابية الصغرى ، والابتهاج بالموكب الخليفة وليالى الوقود
وهى لىالى أول رجب وليلة النصف منه ، وليلة أول شعبان
وليلة النصف منه كذلك وليالى رمضان .

ومما يدل على موقف المصريين من الدولة الفاطمية أن هذه
الخلافة زالت فى صمت وسهولة ، وأن صلاح الدين الأيوبي لم
يجد مقاومة عندما قام بإلقاء الخطبة للخليفة الفاطمى فى صلاة
الجمعة . وعندما زالت الدولة الفاطمية ظل المصريون على موقفهم
الهادئ ، أما بقايا الفاطميين فأخذت تدبر المؤامرات لاسترداد
سلطانها .

الدولة الايوبية

صلاح الدين :

ولد صلاح الدين يوسف الايوبي سنة ١١٣٨م بمدينة تكريت على نهر دجلة شمالى بغداد وسامرا ، واتصل والده نجم الدين ايوب وعمه شيركوه بالأتابك زنكى ، فنشأ صلاح الدين فى ظل البيت الزنكى ، وتعلم علوم أولاد الامراء ، وهى حفظ القرآن ودرس الفقه والأدب ، والتدريب العسكرى والفروسية والفنون الحربية المختلفة . واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه فى الحملات التى أنفذها السلطان نور الدين لمنع الصليبيين من الاستيلاء على مصر اواخر أيام الدولة الفاطمية . وأسفرت هذه الحملات النورية عن قيام شيركوه ، ثم صلاح الدين فى الوزارة بالقاهرة ؛ ولم يكد صلاح الدين يستقر فى شئون وظيفته المزدوجة ؛ وهى قيامه وزيرا فى دولة شيعية لا خليفة لها ، ونائبا لمملكة صاحبها نور الدين ، حتى أخذ رجال القصر الفاطمى يحيكون له المؤامرات . ثم توفى نور الدين سنة ١١٧٤م فاستطاع صلاح الدين أن يعلن نفسه سلطانا على مصر وعلى جميع اجزاء مملكة نور الدين تدريجا . ووافق الخليفة العباسى على سلطنته ، والتفت صلاح الدين الى كثير من الاعمال الداخلية فى مصر ، فبنى القلعة الحالية ، وأحاط القاهرة والفسطاط معا بسور واحد % وشجع على إقامة معاهد الدراسة الفقهية التخصصية وهى المعروفة

بالمدارس ، ومنها مدرسة الامام الشافعى التى زارها الرحالة ابن جبير سنة ١١٧٩ م ، ووصفها فى مذكراته وصفا طيبا .
وانشأ صلاح الدين فى مصر كذلك مستشفى ، هو الثانى من نوعه فى مصر فى تلك العصور .

ثم اتجه صلاح الدين الى حرب الصليبيين ، وتابع سياسة الجهاد ضدهم حتى انتصر عليهم انتصارا حاسما فى حطين سنة ١١٨٧ م ، بل استولى على كثير من مدنهم بعد ذلك ، حتى لم يبق لهم بالشام سوى صور وعكا وانطاكية وطرابلس وبعض المدن الداخلية .

ضعف الدولة الايوبية :

غير ان ابناء البيت الايوبى فى مصر والشام اختلفوا فيما بينهم بعد صلاح الدين وتحاربوا حروبا انتحارية كثيرة . واستعان ملوك الايوبيين سواء بالشام أو مصر بأجناد من الممالك المجاورة من مختلف البلاد المجاورة . وازداد نفوذ أولئك الجند المماليك بسبب استمرار الحروب بين ابناء البيت الايوبى ، حتى أضحت أولئك الجند المماليك أصحاب الاراضى والاملاك والسلطة والنفوذ والحكم والادارة ، فضلا عن القوة الحربية . وأولئك المماليك هم الذين دفعوا الصليبيين عن مصر ، والسلطان وقتذاك الصالح ايوب (سنة ١١٤٩ م) .

ثم توفى السلطان الصالح ايوب وتولى شئون الدولة بعده زوجته شجر الدر ، وأصلها مملوكة لهذا السلطان . ثم جاء

توران شاه بن الصالح أيوب ، واختلف مع زوجة أبيه .
فحرضت شجر الدر زعماء المماليك على التخلص منه بقتله
حريقا غريقا في فارسكور سنة ١٢٥٠ م . وبدا انتهت الدول
الايوبية وقامت دولة المماليك في مصر .

دولة سلاطين المماليك

واقام المماليك شجر الدر سلطنة ، وعينوا احدهم وهو اينك
التركمان الى جانبها . غير ان الخلافة العباسية صاحبة السيادة
الاسمية على مصر لم ترض بتعيين شجر الدر سلطانة على
البلاد ، فاقام المماليك ابيك سلطانا ، وخلعت شجر الدر نفسها ،
وتزوجت من ابيك ، بعد ان انفردت بمقاليد البلاد مدة بلغت
ثمانين يوما فقط . وبعد ابيك (١٢٥٠ م - ١٢٥٧ م) اول
سلاطين المماليك وجرى المصطلح التاريخي على تقسيم عهد
المماليك الى قسمين ، وهما دولة المماليك البحرية (١٢٥٠ -
١٣٩٠ م) ودولة المماليك البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧ م) .
والمماليك البحرية من حرس السلطان الصالح الايوبى . أما
البرجية فنشأوا حرسا للسلطان المملوكى قلاوون (١٢٧٩ -
١٢٩٠ م) . وجاء هؤلاء وأولئك من اجناس مختلفة ، فمنه :-
التركي والشركسى والمغولى والايطالى والاملاى واليونانى .

وتداوله عرش مصر من سلاطين المماليك المعروفين باسم
المماليك البحرية اربعة وعشرون سلطانا ، ومن المماليك المعروفين

باسم الممالك البرجية ثلاثة وعشرون سلطانا . ولم يحترم الممالك مبدأ الوراثة للعرش لانهم اعتبروا أنفسهم اسوياء ، لا فضل لملوك على آخر الا بالشجاعة والسياسة والمقدرة على استمالة التابعين من الممالك .

وبلغت مصر مبلغا عظيما من القوة والثروة والابهة على عهد سلاطين دولة الممالك الاولى والثانية ، وصدت كثيرا من الاخطار الجسيمة التى هددت البلاد الاسلامية عامة ، والشرق العربى خاصة . فقضى الممالك على الخطر المغولى الذى أزال الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ م ، واخرجوا جيوش الصليبيين من الشام . واضحت دولة سلاطين الممالك هى القوة العظمى الوحيدة المدافعة عن كيان العالم الاسلامى ، وآخر الدول المستقلة التى عاشت بمصر .

واصاب الممالك الترف والعافية بعد أن استقر الامر لهم وتدفقت عليهم الثروات الواسعة بسبب التجارة . فذهب الضعف فيهم وكثرت فئاتهم وأحزابهم ، وتضاربت مصالح هذه الفئات والاحزاب ، على حين تطووت الدولة العثمانية التركية فى ذلك الوقت من قوة الى قوة فى آسيا الصغرى والبلقان ، حتى غدت ترى نفسها جديرة بالسيادة العظمى على العالم الاسلامى ، ولذا حاربت دولة سلاطين الممالك وقضت عليها فى مصر سنة ١٥١٧ م .

الحضارة المصرية زمن المماليك

نظام الحكم :

سار سلاطين دولة المماليك الاولى والثانية على وتيرة اسلافهم وسادتهم الايوبيين . فالسلطان المملوكى رأس الادارة المصرية والموجه لشئون البلاد . واتخذ المماليك لفظ سلطان جريا وراء العرف الذى ساد الدولة الايوبية فى تلقيب حكامها بالسلاطين ، على أن السلطان المملوكى لم يختلف عن سائر مماليك الدولة ، اذ نشأ مثلهم وعاش فى نظامهم الحربى ، وكثيرا ما منعت نفسه بلفظ المملوك امعانا فى الدلالة على أن وظيفة السلطان لم ترفعه من سائر اخوانه من المماليك .

وعلى الرغم من محاولة بعض السلاطين أن يجعلوا منصب السلطنة وراثيا فى ابنائهم بعدهم ، لم ينجح مبدأ الوراثة الا احيانا . اذ اعتمد السلطان على قوته الحربية ، وكثيرا ما اغتصب قادة الجيش المملوكى الاقوياء منصب السلطنة لانفسهم ، فالجيش المملوكى هو الاداة المحركة للشئون السياسية فى البلاد ، وهو جيش اقطاعى يأخذ الامير المملوكى منه اقطاعا من الارض مقابل ما يقدمه من الجند والخدمات الحربية فى حروب السلطان . فيقوم امير مائة مثلا بتقديم مائة جندى يكون هو على رأسهم ، ويقوم امير خمسين بما يناسب اقطاعه ، اى خمسين جنديا يذهب بهم الى جيش السلطان ، وهكذا .

وسار النظام الادارى فى السلطنة المملوكية على قواعد المركزية الدقيقة ، فالسلطان هو الذى يختار رؤساء الدواوين الكبرى فى القاهرة ، ويعهد اليهم بالاشراف على الادارات المحلية فى الاقاليم . وتعددت الدواوين الحكومية على عهد سلاطين المماليك ، وأهمها ديوان الانشاء الذى تشبهه وزارة الخارجية فى العصر الحديث ، وأهم اختصاصاته تنظيم العلاقات الخارجية للدولة . وديوان الجيش وهو الديوان الذى يقوم على توزيع الاقطاعات وضبطها ونقلها من أمير مملوكى الى آخر . وديوان الاحباس وهو يقوم بما تقوم به وزارة الاوقاف اليوم . وديوان الخاص ويشرف على الشئون المالية التى تتعلق بالسلطان . وديوان النظر وتشبهه وزارة المالية فى العهد الحاضر . ومن المعروف أن هذه الدواوين وغيرها من أدوات الجهاز الحكومى قامت زمن الفاطميين ، غير أنه زاد عليها ما أدخله سلاطين الايوبيين والمماليك من تنظيم فى ادارتها واختصاصاتها .

واشتهر رئيس كل ديوان باسم الناظر أو صاحب ويليّه نائب يسمى مستوفى الصحبة ، لملازمته الناظر فى أعماله ، ثم يليه موظفون آخرون وهم المعروفون باسم المستوفين وكتاب التوقيع وكتاب الدرج والمشددين والكشاف .

انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة .

داب سلاطين المماليك منذ أيام السلطان أيك على الرجوع الى

الخلافة العباسية في بغداد للحصول على تفويضها لهم بالسلطنة وليكسبوا حكمهم صبغه شرعيه في مصر . ثم تبدلت هذه السياسة تماما بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد على يد هولاء و جنوده . وفكر السلطان قطز ثالث سلاطين المماليك في إعادة الخلافة العباسية الى بغداد . لكن حدث أن اغتيل السلطان قطز وتولى يبرس السلطنة بالقاهرة ، فاستدعى يبرس الى القاهرة أحد أبناء البيت العباسي ، واسمه أبو القاسم سنة ١٢٦١ م ، وعقد مجلسا عاما حضره جميع رجال الدولة وكبار التجار والناس بالقاهرة ، وشهد جماعة من العربان امام ذلك الجمع أن ابا القاسم هو ابن الخليفة الظاهر العباسي ، وبذا تمت له البيعة بالخلافة ولقب بالمستنصر . ولما تمت البيعة قلدا الخليفة السلطان يبرس البلاد الاسلامية وما يضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من البلاد . واخذ يبرس بعد ذلك يجهز الخليفة بالمال الوافر والجند الكثير لاسترجاع بغداد من المغول . غير أن هذا الخليفة مات قتيلا على يد التتار قبل أن يصل الى بغداد . فعقد يبرس النية على اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة . واستدعى عباسيا ثانيا لمبايعته بالخلافة . فلما تمت البيعة وتلقب الخليفة الجديد بلقب الحاكم بأمر الله ، أمر السلطان يبرس بالدعاء له في خطبة الجمعة ، وخطب له فيما بعد من منابر دمشق والمدينة والقدس . وهكذا احييت الخلافة العباسية بالقاهرة ١٥

وأفاد الممالك من الوضع الجديد ، اذ صار سلاطينهم منذ أيام السلطان بيبرس الى الفتح العثماني لمصر يتمتعون بمقام سام في العالم الاسلامي ، باعتبارهم حماة الخلافة ، والمتمعون ببيعتها . وصارت القاهرة مركز الخلافة تأتي اليها وفود الملوك من البلاد الاسلامية القريبة والبعيدة تطلب تقليدها السلطة في بلادها .

الاحوال الاقتصادية والاجتماعية :

وساعدت هذه الادارة على تنشيط التجارة التي أفادت من موقع مصر الجغرافي على الطريق العالمى بين الشرق والغرب واستطاع الممالك بذلك الحصول على أموال كثيرة بالقياس الى ما حصل عليه الفاطميون قبلهم من هذا الطريق .
أما العناية بالزراعة وأحوال الفلاحين فاقترص اهتمام السلاطين والممالك فيها على استغلال الارض دون مصلحة الفلاح ، وعاشوا بعيدين عن الاراضى ما عدا أيام الخروج للصيد أو تربية الخيل في الربيع ، شأن الملاك المتغيبين الذين لا يعرفون عن أرضهم شيئاً سوى محصولاتها من عرق الفلاح .

والواقع أن الممالك عاشوا طبقة منفصلة تمام الانفصال عن سائر سكان سلطنتهم بمصر والشام ، ووصفهم المعاصرون بأنهم أرباب السيف تميزا لهم عن أرباب القلم ، أى طائفة الموظفين المدنيين في مختلف دواوين السلطنة وولاياتها ودور

القضاء والحسبة ومعاهد العلم . وجاءت هذه الطائفة من الموظفين من المصريين والشاميين الذين ظلوا كذلك طبقة منفصلة عن الممالك وعامة السكان من التجار وأرباب المهن . وعاشت هذه الطبقات الثلاث بمعزل عن الفلاحين وأهل الريف الذين لم يعرفوا عن القاهرة أو الاسكندرية شيئاً ، وقنعوا بتأدية أعمال الزراعة وواجبات النظام الاقطاعى السائد فى البلاد وربما عاش الفلاح طول حياته دون أن يرى صاحب الارض التى يزرعها مرة واحدة . على أن هذا النظام الطبقي ظل جامدا ماعدا بعض حوادث الزواج والاختلاط بين بضعة من الممالك وأصحاب القلم من العلماء أو القضاة وغيرهم من كبار الموظفين المدنيين .

ومع هذا غلبت مظاهر القناعة على أهل البلاد ، بسبب ما أفادوا من أجور ومكافآت مقابل ما قاموا به للممالك أرباب السيف والموظفين أرباب القلم من صناعة الاسلحة والاقمشة والملابس والوانى والأطعمة . ثم أن العصر المملوكى امتلأ بأنواع الملاهى مثل لعب الكرة بالصولجان (البولو) ، وسباق الخيل ، ومواكب النصر وحفلات الاعياد الاسلامية والمسيحية .

العلوم والفنون :

، واستطاع الممالك بفضل حصولهم على الاموال الكثيرة توجيه عنايتهم الى العلوم والفنون . وتجلى بذخ سلاطين الممالك وثرأؤهم فى ميدان العمارة ، حرصا على الظهور بالتقوى

والصلاح معظم الاحيان . اذ امتلأت مصر بالمساجد والمدارس والمدافن التى تزين مآذنها وقبابها سماء القاهرة والاسكندرية حتى العصر الحاضر . وعنى المماليك بتزيين عمائرهم وقصورهم بالمصاييح والنوافذ ذوات الزجاج الملون فى أشكال زخرفية بديعة .

وتجلى التقدم العلمى فى ميدان الطب والتاريخ . فاشتهر فى دمشق على عهد الممالك ابن أبى أصيبعة ، اعظم مؤرخى الطب فى العالم العربى (١٢٠٣ - ١٢٧٠ م) وهو طبيب باطنى درس الطب فى دمشق والقاهرة . ولف كتابه المشهور « عيون الانباء فى طبقات الاطباء » ويدل المستشفى الذى بناه قلاوون وهو « المارستان المنصورى » على مبلغ تقدم الطب على عهد الممالك . واحتوى هذا المستشفى على اجنحة خاصة لمعالجة الامراض المختلفة، مثل الحمى والرمد ، واقامت به مدرسة لتعليم الطب . ولا يزال مبنى مستشفى قلاوون قائما الى العصر الحاضر ، حيث جعلته وزارة الاوقاف مستشفى للعيون بالقاهرة .

وحفل عصر الممالك بطائفة من كبار المؤرخين ومنهم ابن واصل وابن ابيك الصفدى وابن دقماق والذهبى والمقرئى والعينى وابن حجر والسيوطى وابن اياس . وحفظت مؤلفاتهم الكثير من اخبار دولة الممالك والوان الحضارة فيها . وكثرت فى ذلك العصر المؤلفات المعروفة باسم الموسوعات واشهرها « نهاية الارب » للنويرى ، « وصبح الاعشى » للقلقشندي .

تهاية دولة المماليك :

يرجع علو المستوى الحضارى فى مصر زمن سلاطين المماليك الى التجارة الدولية التى قامت مصر فيها بدور الوسيط بين الشرق والغرب ، حتى غدا بعض التجار المصريين اصحاب فروع تجارية بالحبشة والسودان واليمن والهند والصين . وادرك سلاطين المماليك اهمية هذه التجارة ، ففرضوا الضرائب الجمركية العالية على الصادرات والواردات . وصرفوا من حصيلة هذه الضرائب على عمائرهم وقصورهم وحروبهم .

ثم اخذت هذه التجارة تتحول تدريجا عن مصر والبحر الاحمر بعد أن كشف البرتغاليون طريق الوصول الى الهند والخليج الفارسى بالطواف حول افريقيا ورأس الرجاء الصالح ، والسفر بحرا من اوربا الى الهند بهذا الطريق مباشرة . ومن ثم فقد المماليك اعظم مواردهم المالية السهلة . فصارت الاحوال الاقتصادية تدريجا من رخاء الى ضيق ، ومن غنى الى فقر . وعجز السلاطين عن النهوض بمرافق البلاد ، فأصاب دولتهم الجمود وتمردت الجيوش على السلاطين ، واصبح كيان الدولة مهلدا ، حتى اذا هجمت جيوش العثمانيين على مصر ، زالت سلطة المماليك فى سرعة قمر منتظرة .

الدول المستقلة في فارس والعراق

تولدت في فارس حركة استقلالية منذ ايام الفتوح الاسلامية الاولى . ووضحت هذه الحركة وضوحا متقطعا حتى اواخر الدولة الاموية . ثم اشترك الفرس في الدعوة لبني عباس ، لعلهم يصيبون بذلك شيئا من الاستقلال بشئونهم أو السيادة على الدولة الاسلامية كلها . لكن هذه الحركة انتكست بافاقة أول الخلفاء العباسيين - وهو أبو العباس الذي أطلق عليه بعض المؤرخين اسم السفاح - لهذه المآرب الانفصالية فقتل أباسلمة الخلال ؛ كما قتل الخليفة الثاني ، وهو أبو جعفر المنصور أبامسلم الخراساني ، والمعروف أن كلا من هذين الزعيمين الفارسيين كان من أركان اقامة العباسيين في الخلافة . ثم تخلص رابع الخلفاء العباسيين ، وهو هارون الرشيد من النفوذ الفارسي كله ، وما انطوى عليه من روح استقلالية ، بقتل البرامكة ومصادرة أموالهم سنة ٨٠٣ م . وتم القضاء على ذلك النفوذ الفارسي حين استجلب المعتصم (٢١٨هـ/٨٣٣م) جنودا من الترك ليكونوا جيشه من دون الفرس أو العرب وأسس لذلك سامرا سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م وجعلها عاصمة جديدة للخلافة العباسية ، بعيدة عن النفوذ الفارسي وبقياه في بغداد .

غير أن العباسيين لم يستطيعوا القضاء على الحركات الاستقلالية الفارسية وغيرها من الحركات الشعبية ، نظرا لاتساع رقعة الدولة . ومن امثلة ذلك قيام طاهر بن الحسين ، الذي ولاه المأمون على خراسان سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م قبل خلافة المعتصم ، اذ استطاع هذا الوالي وابناؤه من الطاهريين أن يؤسسوا لانفسهم دولة شبه مستقلة دون ان ينفصلوا انفصالا تاما عن الخلافة العباسية . وظلت هذه الدولة قائمة حتى سنة ٢٥٩ هـ ، وقامت اشباهاها بمختلف الاقاليم العباسية ، ومنها الدولة الصفارية والدولة السامانية ، والدولة البويهية ، وكلها قامت في بلاد فارس .

بنو بويه

ورثا بعض أمراء هذه الدول المستقلة الى السيطرة على العراق نفسها مقر الخلافة العباسية وضمها الى سلطانتهم ، متخذين لانفسهم لقب أمير الامراء . ومن أولئك بنو بويه ، وأصلهم فيما يقال يرجع الى ملوك ساسان الفارسيين ، الذين تشرّدوا الى اقليم الديلم الواقع في المنطقة الجبلية جنوبى بحر قزوين . وتزعم قبائل البويهيين فى خلافة الراضى العباسى أبو شجاع بويه . وفى سنة ٣٢٢هـ/٩٤٣م جمع أبو شجاع هذا رجال قبيلته وتوغل بهم فى جنوب فارس . وهدف الى تأسيس دولة له على حساب الولاة المسلمين المتنازعين فيما بينهم . ولم يستطع هؤلاء الولاة له دفعا ، فاحتل أبو شجاع شيراز ، وجعلها عاصمة لدولة

جديدة . ثم امتدت حركاته الى الاهواز (وهى الآن خوزستان)
ثم الى اقليم كرمان .

وفى سنة ٣٢٤هـ / ٩٤٥م - وهى السنة العاشرة لقيام الدولة
الاخشيدية فى مصر - اتجه أحمد بن أبى شجاع بويه نحو بغداد
بقوة حربية ، فلم تستطع حاميتها المكونة من الحرس التركى
مقاومته ، ودخل أحمد المدينة فى سهولة ويسر . واستقبل
الخليفة المستكفى زعيم بنى بويه وأنعم عليه بلقب « معز الدولة »
تشريفا له وبرهانا على الاعتراف بسطوته . ولم يكتف أحمد
بويه بهذا اللقب ، الذى لم يعد أن يكون مرادفا للقب « أمير
الامراء » . فأصر على ذكر اسمه مع اسم الخليفة فى خطبة
الجمعة ، وأن يسك اسمه فى العملة أيضا . وبلغ معز الدولة
مركزا عاليا ، وأصبح الحاكم الفعلى فى بغداد دون أن يتعرض
للخليفة ، غير أنه لم يلبث أن كشف عن نياته نحو المستكفى ،
فقبض عليه وسمل عينيه سنة ٩٤٦م ، وإختار بدله المطيع
خليفة . ودل الخليفة الجديد على انه جدير باسمه ، اذ أمسى
مطيعا لكل ماأراده البويهيون منه ، وبات أداة طيعة فى أيديهم .

وبلغ البويهيون أقصى قوتهم أيام عضد الدولة الذى اتخذ
لنفسه لقب شاهنشاه (أى ملك الملوك) ، على حين اكتفى
بنو بويه قبله بألقاب التبجيل والتفخيم مثل عماد الدولة وركن
الدولة . ومن ثم فاق عضد الدولة أسلافه قوة وعظمة ، وتزوج
من ابنة الخليفة الطائع ، ودلت ألقابه وأعماله على نفوذ واسع

بوجبروت شديد . وظلت شيراز عاصمة للبويهيين منذ وصولهم إليها . وبدأت العراق كأنها ولاية تابعة لها ، بعد أن تحول محور الارتكاز والقوة في الخلافة العباسية الى هذه المدينة .

ثم استطاع عضد الدولة أن يضم الى سلطانه مختلف الدويلات الصغيرة المجاورة التي ظهرت على عهده في فارس والعراق ، وبدأ هذا أعظم حاكم في الدولة الاسلامية . واهتم عضد الدولة ببغداد رغم بقاء بلاطه في شيراز فاتخذ لنفسه وخلفاؤه من بعده قصورا في العاصمة العباسية القديمة ، وغدت هذه القصور بجمعها اسم « دار الخلافة » وأنشأ عضد الدولة كثيرا من العمائر في بغداد ، مثل المستشفى المشهور باسم « البيمارستان العضدي » نسبة اليه ، واحتوى هذا المستشفى على أربعة وعشرين طبيا ، وصارت هذه المجموعة هيئة للتدريس والأبحاث الطبية ، فضلا عن علاج المرضى . وتغنى الشعراء مثل المتنبي بعظمة عضد الدولة ، وأهدى المؤلفون مؤلفاتهم اليه ، مثل العالم النحوي أبى على الفارسي صاحب كتاب « الإيضاح » .

وأورث عضد الدولة أبناءه بعده سياسة مرسومة لتشجيع العلم ، فبنى ابنه شرف الدولة دار الرصد ببغداد ، وأسس بها بهاء الدولة ، أخو شرف الدولة ، مجمعا علميا سنة ٩٩٣م بمساعدة وزيره الفارسي سابور بن اردشير . واحتوت مكتبة هذا المجمع على ١٠٠٠٠ كتاب ، انتفع بها ابو العلاء المعري أيام تلمذته في

بغداد . وازدهرت في عهد شرف الدولة جماعة اخوان الصفا ، وهي
احدى الفرق الفلسفية في الدولة الاسلامية .

غير أن الدولة البويهية أخذت في الانهيار بسبب النزاع على
السلطة بين الاخويين بهاء الدولة وشرف الدولة . وامتد هذا
النزاع الى سائر أفراد الاسرة ، وعجل بالقضاء على البويهيين ،
لان مذهبهم الشيعي جعلهم بغضين الى السنيين من اهل بغداد .
ولذا أخذت هذه الدولة تنكمش تدريجا بسبب حركة السلاجقة
وزعيمهم طغرل بك الذى لم يلبث أن قام بمثل ما قام به زعيم
البويهيين ابو شجاع قبلا أزاء الخلافة العباسية حتى قضى على
البويهيين سنة ١٠٥٥ م .

السلاجقة

والسلاجقة قبيلة من قبائل الغز التركية رأسها زعيم اسمه
سلجوق ، وقبيلته من برارى القرغيز في التركستان ، واستقر
به الترحال في بخارى ؛ حيث اعتنق الاسلام على المذهب السني .
وانتشر الاسلام بين السلاجقة الذين لم يلبثوا أن أخذوا على انفسهم
الدعوة للسنة ضد الشيعة ، فأخذ سلجوق يغير على الدول الشيعية
القائمة في فارس مثل الدولة السامانية . ثم أعد سلجوق إبنائه
واحفاده للغزو والفتح ، واستطاع طغرل أحد أحفاده أن يستولى
سنة ١٠٣٧ م على اقليم خراسان ، في الشمال الشرقى من
فارس . واستمر طغرل في تقدمه في بلاد فارس والعراق حتى

تصدع بيت بنى بويه في شيراز وبغداد . وفي سنة ١٠٥٥ م وقف طغرل على رأس جماعة من جنده الغز الأتراك أمام أبواب بغداد ، كما وقف أحمد بن أبو الشجاع بويه قبله . فسلمت المدينة له دون مقاومة ، واستقبل الخليفة طغرل زعيم السلاجقة كما استقبل أحمد أبو شجاع من قبل .

الدولة السلجوقية في عز أيامها : -

ولم يلبث الخليفة القائم العباسي أن اعترف بطغرل سلطانا ، ومنحه لقب « ملك الشرق والغرب » . وتدفقت القبائل التركية على العراق بعد نصره طغرل وتوحيده الذي جعله صاحب الأمر في بغداد . واستغل السلاجقة مركزهم في بغداد إلى جانب الخلافة العباسية ، فعمدوا إلى توسيع سلطانتها . على أن السلاجقة لم يستهدفوا تقوية مركز الخليفة العباسي نفسه ، وإنما عمدوا إلى نشر للمذهب السني الذي دانت به الخلافة العباسية ، ومجاربة الفاطميين الشيعة ، أملا في إعادة الوحدة للدولة الإسلامية .

وتولى البأرسلان السلجوقي ، ابن أخى طغرل ، سنة ١٠٦٣ م القيادة العليا للجيش السلجوقي ، فسير شعبة منها نحو الشام ، وشعبة ثانية إلى بلاد العرب ، وكلاهما تابع للدولة الفاطمية الشيعية ، وسير شعبة ثالثة قام هو على رأسها نحو أرمينيا وآسيا الصغرى من أملاك الدولة البيزنطية - وآسيا الصغرى هي بلاد الروم على قول المؤرخين المسلمين . واستولت

الجيوش السلجوقية على حلب سنة ١٠٧٠ م ، وانتزعت مكة والمدينة بعد ذلك بقليل ، على حين انتصر ألب أرسلان على الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجين سنة ١٠٧١ م فى وقعة منكرت (ملازكرد) فى الشمال الشرقى من بحيرة فان ، وأباد معظم الجيش البيزنطى حتى باتت آسيا الصغرى تحت رحمته فانتشرت جيوشه فيها الى اقرب البسفور والدرديل . ومن هذه الفتوح تأسست دولة السلاجقة الروم فيما بعد .

ورغم اتساع الدولة السلجوقية ، واستئثار سلاطينها بالسلطة الفعلية فى بغداد ظل أولئك السلاطين فى مدينة أصفهان . ولم ينتقلوا الى بغداد ويتخذوها عاصمة الا سنة ١٠٩١ م على عهد ملكشاه السلجوقى . وفى عهد هذا السلطان بلغت الدولة السلجوقية أقصى عظمتها ، فبنى ملكشاه المساجد ، وأنشأ الخانات (الفنادق) على طرق القوافل لراحة المسافرين ، وعبد طريق الحجاج الى مكة وزوده بالحراس . وأمر ملكشاه بتجميل بغداد وتنظيمها ، فحرم تصريف المياه المتسربة من الحمامات العامة الى نهر دجلة ، وجعل لهذه المياه اماكن لتصرفها .

وساعد ملكشاه فى ادارة مملكته ، التى أضحت ممتدة من مدينة قشغر الى بيت المقدس ، وزيره الفارسى « نظام الملك » ، وهو من أعظم شخصيات التاريخ الاسلامى . والف نظام الملك كتابا فى فن الحكم يعرف باسم « سياسة نامه » ، ورعى الشخصيات المشهورة فى العلوم والآداب ، فتمتع عمر

الخيام ، الشاعر الفارسي والفلكي الكبير بعطفه ، وتوج الوزير مجده بإنشاء المجامع العلمية في بغداد ، وأشهرها المدرسة النظامية التي تم بناؤها سنة ١٠٦٧ م . ومن تلاميذ هذه المدرسة السعدي الشاعر الفارسي الكبير ، مؤلف بستان السعدي ، وعماد الدين الاصفهاني وبهاء الدين بن شداد ، وهما اللذان خدما صلاح الدين والدولة الايوبية في مصر ، وعبد الله بن تومرت ، الذي أسس دولة الموحدين في إفريقيا ، وأبو اسحق الشيرازي مؤلف كتاب المذهب والتنبيه ، وهو أول شيوخ النظامية . ومن تلاميذ النظامية كذلك أبو حامد الغزالي ؛ وهو الذي تولى كرسى الاستاذية بها مدة .

تفكك دولة السلاجقة :

غير أن عظمة الدولة السلجوقية استندت الى شخصية سلاطينها ، ولذا أخذت هذه الدولة في التفكك بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ م وعدم قيام شخصية تقربه ، هذا فضلا عن حروب أبناء البيت السلجوقي . ومن ثم تطلع أبناء البيت السلجوقي الى الاستقلال بما يملكونه من ولايات اقليمية ، كان الدولة ارث ينبغي تقسيمه انصبه بين أبناء الاسرة . وغدت الدولة السلجوقية مضطربة الاحوال لكثرة الحروب الداخلية فحلت محلها دول الاتابكة بالعراق وفارس كما حلت دولة الاتراك العثمانيين محل سلاجقة الروم بآسيا الصغرى سنة ١٣٠٠ م .

الدولة الحمدانية

الحمدانيون في الموصل والشام :

تتطلب معرفة احوال هذه الدولة رجوعا الى أيام الاتراك أصحاب وظيفة « أمير الامراء » في بغداد ، واستبداد أولئك الامراء بالسلطة من دون الخليفة العباسي . ذلك أن بعض القبائل العربية التي سكنت بادية الشام ووادي الفرات استغلت ضعف الخلافة العباسية واستقلت بالمدن والقلاع الواقعة في أرضها ، ومن أمثلة ذلك ماقامت به قبيلة تغلب ، اذ استطاعت بفضل أبناء زعيمها حمدان بن حمدون أن تؤسس دولة لها في شمال العراق ، وأن تتخذ من مدينة الموصل عاصمة لها (٣١٧ - ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ - ٩٦١ م) .

وتعصبت هذه الدولة للعروبة ، وساءها استبداد الاتراك بالخلافة العباسية . فجاء زعيمها الحسن بن عبد الله الحمداني الى بغداد ، ومعه اخوه ، المناصرة الخليفة المتقي بالله (سنة ٢٣٠ هـ / ٩٤١ م) . وكافا الخليفة هذا الزعيم الحمداني بأن عينه في وظيفة « أمير الامراء » ومنحه لقب ناصر الدولة . ثم منح الخليفة المتقي أخا ناصر الدولة الحمداني كذلك لقب سيف الدولة . على أن الاتراك استطاعوا بزعماء قائدهم توزون أن يطردوا الحمدانيين من بغداد وأن يحملوهم على العودة الى الموصل سنة ٣٣١ هـ ٩٤٢ م .

وتطلع سيف الدولة بعد خروج الحمدانيين من بغداد الى القيام بمغامرة حربية تزيد من شأن دولته بالموصل . فسار سنة ٣٢٣ هـ / ٩٤٤ م الى شمال الشام واستولى على حلب ، واخرج منها حاكمها التابع للدولة الاخشيدية ، صاحبة السيادة اذ ذاك على مصر والشام . واصبح سيف الدولة بذلك صاحب حلب ، على حين اصبح البويهيون وقتئذ اصحاب الامر في بغداد . وظلت الدولة الحمدانية وعاصمتها حلب قائمة في شمال الشام حتى سنة ١٠٠٣ م .

وخلقت الدولة الحمدانية في حلب آثارا جليلة في تاريخ الحضارة الاسلامية ، وفي مجد المسلمين ، رغم قصر مدتها . ويعزى الفضل في ذلك الى مؤسسها سيف الدولة الحمداني ، فهو من انصار العلم ، شغوف بعقد المجالس الادبية الزاخرة بالفلاسفة والشعراء . ولما اجتذبت مجالس سيف الدولة من المشهورين في تاريخ الحضارة الاسلامية ابو الطيب المتنبي الشاعر ، والمؤرخ العظيم للأدب والموسيقى ابو الفرج الاصفهاني ، صاحب كتاب الاغانى ، والخطيب الفصيح ابن نباتة الذى ألهم عظمته حماسة مستمعها الى الاشتراك في الجهاد ضد الدولة البيزنطية ، وهذا فضلا عن الفارابي الفيلسوف المشهور .

علاقة الحمدانيين بالبيزنطيين :

واتسعت دولة الحمدانيين سواء في الموصل أو في حلب على طول منطقة الاطراف الاسلامية المتاخمة لاراضى الدولة البيزنطية



في جنوب آسيا الصغرى . وتكونت منطقة الاطراف بين الحمدانيين والبيزنطيين من سلسلتى جبال طوروس بمعاقلا وحصونها ذات المكانة الحربية الاستراتيجية . وحرص كل من المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة لمساعدة جيوشهم على الهجوم أو الدفاع . واشتهرت هذه السلسلة من الحصون منذ أيام الخليفة هارون الرشيد باسم اقليم العواصم والثغور .

واتقسم هذا الاقليم الى قسمين : أحدهما في الشمال الشرقى واسمه ثغور الجزيرة للدفاع عن شمال العراق ، والآخر في الجنوب الغربى واسمه ثغور الشام . وظلت الاغارات سنويا بين المسلمين والبيزنطيين في هذه المنطقة الهامة ، فلما ضعفت الخلافة العباسية طمع أباطرة الدولة البيزنطية في الاستيلاء على اقليم الثغور ، والهجوم منه على سائر اراضى المسلمين . ومن ثم غدا قيام الدولة الحمدانية في شمال العراق والشام حاجزا صد هجمات البيزنطيين في وقت أضحت الدولة الاسلامية فيه نهبا للفوضى والقلقل الداخلية ، وليست لديها قوة حربية كافية .

وخلد سيف الدولة الحمداني اسمه في حروبه المتكررة ضد البيزنطيين والتصدى لآعمالهم العدائية على ارض المسلمين . فبدأ سيف اغاراته على آسيا الصغرى سنة ٩٤٧ م دون ان يهمل سنة واحدة في تجهيز حملة حربية لذلك الغرض ، وبذا

استولى على كثير من الحصون البيزنطية مثل مرعش وغيرها من مدن الحدود، وعاصرت حركات سيف الدولة قيام أعظم أمبراطورين عسكريين عرفتهما الدولة البيزنطية ، وهما نفقور فوقاس وحنا شمشق . وبلغت الدولة البيزنطية على عهد هذين الأمبراطورين أقصى قوتها الحربية . ذلك أن نفقور فوقاس استطاع أن يستولى على حلب نفسها عاصمة سيف الدولة سنة ٣٥١ هـ / ١٦١ م ، غير أن القوات البيزنطية انسحبت منها بعد ثمانية أيام بسبب المقاومة الحمداية . أما الأمبراطور حنا شمشق فاتجه الى الاستيلاء على بيت المقدس ، وتوغل كثيراً في أراضى الشام . ولكنه عاد سريعاً لغاراته الخاطفة بفضل مقاومة الحمدايين في حلب ومقاومة الفاطميين في سائر الشام . وتولى شئون الدولة الحمداية اذ ذاك سعد الدولة بن سيف الدولة (٩٦٧ - ٩٩١ م) .

لكن الدولة الحمداية دخلت بعد ذلك في مرحلة أسيفة من النزاع الداخلى ، وانتهت هذه المرحلة بانتهاء الدولة الحمداية بعد أن قامت حارسة على أطراف الدولة الإسلامية في وقت لم يدرك الخلفاء العباسيون في بغداد قيمة الدفاع عنها . ولجأ بعض المتنازعين على السلطة من الحمدايين الى الخلافة الفاطمية القائمة في مصر والشام وقتذاك ، على حين ظلت الخلافة العباسية غارقة في الضعف والفوضى .

الاسلام في الهند

الفتوح الاسلامية في الهند :

امتدت الفتوح الاسلامية الاولى في الهند زمن الامويين الى مدينة الملتان باقليم السند ، ثم توقفت بعد ذلك حتى قيام الخلافة العباسية ، ووصلت الحملات الاسلامية على عهد الخليفة المأمون واخيه المعتصم الى منطقة كشمير .

فتوح محمود الغزنوى :

على ان المرحلة الهامة في فتح الهند على عهد العباسيين قامت على ايدي الغزنويين ، الذين استقلوا بشؤونهم عن الخلافة العباسية في بغداد (من ٩٦٢ - ١١٨٦ م) ، واتخذ الغزنويون عاصمة لهم في مدينة غزنة ببلاد الافغان ، الواقعة على هضبة مرتفعة مشرفة على السهول الشمالية للهند عن طريق ممر كابل .

واستغل محمود بن سبكتكين الغزنوى (٩٩٩ - ١٠٣٠ م) هذا الموقع الجغرافى لعاصمته وعمد الى توسيع رقعة دولته في الهند . وخاض في المدة مابين سنتى ٣٩٢ ، ٤١٥ هـ (١٠٠١ - ١٠٢٤ م) غمار مالاىقل عن سبع عشرة حملة على الهند ، وبدا تم الاستيلاء على سائر اقليم البنجاب ووطد نفوذ المسلمين في ارض السند وبلاد كشمير .

واستهل محمود بن سبكتكين انتصاراته بهزيمة جيبال ملك البنجاب ، ثم قضى فيما بعد على حركات المقاومة التى اضطلع بها ابن الملك جيبال . وعاد محمود الغزنوى من غزواته محملا بالغنائم التى جلبها من المعابد الوثنية . ونال شهرة عالية حسده عليها المعاصرون له ، لنجاحه فى نشر الاسلام فى بقاع جديدة . فأطلق المعاصرون عليه لقب (الغازى) ، وغدا هذا الاسم بعده علما للقائمين بنشر الاسلام . وأصبح محمود الغزنوى مؤسس دولة واسعة ضمت رقعة كبيرة من أرض الهند ، ومهد لحكم المسلمين الفعلى فى تلك البلاد الجديدة . ويوافق هذا مدة قيام السلاجقة فى فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى .

غير أن بلاد الهند تعرضت بعد موت محمود بن سبكتكين لما تعرضت له سائر بلاد الدول الاسلامية المستندة الى شخصيات مؤسسيها . فنشأت دويلات اسلامية مستقلة بأرض الهند ، واقتسم هذه الدويلات خلفاء محمود الغزنوى . ولما زال سلطان الغزنويين نهائيا من شرق الافغان وذهبوا من غزنة سنة ١١٥٠ م ، اتجهت أسرة محمود الغزنوى الى مدينة لاهور بالهند وجعلتها عاصمة للبقية الباقية من ممتلكاتهم .

وتطلعت الدولة الغورية التى خلفت الغزنويين فى بلاد الافغان الى بسط نفوذها على الهند ، فاستطاع ملوكها بعد سلسلة من الحروب أن يستولوا على ممتلكات الغزنويين سنة ٥٩٩ هـ /

١٢٠٢ م . لكن الهند دخلت بعد زوال سلطان الاسرة الغورية في دور جديد من حياتها ، قوامه استقلال بعض الحكام المسلمين بشئونها ، واتخاذهم ألقاب ملوك الهند . ونال بعض أولئك الملوك وثائق تفويض بالحكم من الخليفة العباسي في بغداد ، ومن أولئك شمس الدين ألتماش الذي حكم الهند مستقلا مدة بلغت خمسة وعشرين عاما (١٢١١ - ١٢٣٥ م) .

المغل

قيام دولة المغل بالهند :

وتعرضت الدول الاسلامية التي قامت بالهند لهجمات تام بها المغل ، الذين يختلفون كل الاختلاف عن المغول ودولتهم التي أسسها جنكيزخان وخلفاؤه في جوف آسيا والصين وايران وشمالى بحر قزوين . ومؤسس دولة المغل بالهند هو بابر ظهر الدين حفيد ميران شاه بن تيمورلنك المشهور . وتولى بابر حكم فرغانة بعد وفاة أبيه سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م . ثم أخذ يعمل على توسيع رقعة بلاده في الجهات المجاورة لدولته ، فاستولى على سمر قند سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٨ م . ثم اضطر بابر ازاء هجمات أعدائه من المغول في تلك الجهات الى ترك الدولة التي ورثها عن أبيه . فعبر جبال هندكوش الى الهند ، تحده الامال لتأسيس دولة هناك ، تعوضه عما فقده من سلطان ، وزحف بما تبقى له من قوات على إقليم البنجاب .

سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م ، واستولى على لاهور ، وانزل بالسلطان
ابراهيم صاحب دلهى هزيمة فادحة ، ادت الى استيلاء بابر على
دلهى نفسها واخضاع الاجزاء الشمالية من الهندستان
لسلطانه

واتخذ بابل مدينة اجرا حاضرة لدولته ، واضطر الى محاربة
زعماء الاقاليم المجاورة له ، وتوفى سنة ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م قبل
أن يخضع مملكتى البنجاب وجوجارات .

وتابع همايون بن بابر حروب والده ، فعمد الى اخضاع
مملكة جوجارات غير أن ملك البنجاب حمله على التقهقر نحو
الغرب حتى اضطر همايون الى الهرب الى السند ، والتجأ الى
فارس .

واخذ همايون يستعيد سلطانه فى الهند ، فاستولى على دلهى
سنة ١٥٥٥ م حيث توفى هناك فى يناير سنة ١٥٥٦ م . وترك
هومايون لابنه «اكبار» البالغ من العمر وقتذاك اربعة عشر عاما اتمام
استرداد ممتلكات ابيه فى الهند . وفى سنة ١٥٥٦ م استرد السلطان
اكبار سيادته على معظم الهندستان ، وتابع بعد ذلك اخضاع المدن
الكبرى حتى استولى على كشمير كلها سنة ١٥٨٧ م .

وعمد السلطان اكبار الى تأمين حدود بلاده من الجنوب
فاستولى على اطراف هضبة الدكن سنة ١٦٠١ م ، دون ان
يتوغل داخل هذا الاقليم . واتيجه اكبار بعد ذلك الى اصلاح

قواته داخليا ، واشتهر باصلاحاته المالية ، ومال الى جماعة الهندوس ، وعاملهم معاملة طيبة ، واهتم بدراسة الفرق الاسلامية ونظرياتها ، ولكن سرعان ماسثم جردها وانصرف الى ترجمة بعض الكتب الهندوسية المقدسة .

وبلغت دولة المغل الاسلامية في الهند اوج عظمتها على عهد جهان كير وشاه جهان ، فازدهرت بها فنون البناء والعمار ، وآية ذلك القصر المعروف باسم تاج محل ، والمسجد الكبير في مدينة اجرا ، فضلا عن القصور المرمرية في دلهي . وفي سنة ١٦١٥ م ارسل جيمس الاول ملك انجلترا سير توماس راو الى بلاط السلطان جهان كير ليطلب منح انجلترا حقوقا تجارية في الهند ، فاعتذر جهان كير وقتذاك خوفا من سيطرة الهولنديين على البحار في المحيط الهندي . ثم حدث بعد ذلك ان استجاب جهان كير لالاحاح الانجليز ، بعد أن شهد بنفسه صعوبة منع السفن الانجليزية عن سواحل الهند للتجارة والاستعمار ، وهذا هو بداية دخول شركة الهند الشرقية الانجليزية في ميدان التجارة بالهند والشرق الاقصى ، بعد ان حصلت من حكومتها على امتياز بذلك .

وظلت رقعة دولة المغل تنمو وتوسع على عهد سلاطينها حتى ايام اورنجزيب (١٦٥٩ - ١٧٠٧ م) اذ اتجهت انظار هذا السلطان الى هضبة الدكن ، فقام بعدد من الحملات واحرز انتصارات باهرة على امرائها المسلمين ، لكنه رغما عن هذه الانتصارات ظلت معاقل

الدكن وجبالها الداخلية مستعصية على اورنجزيب . على ان دولة
المغل بلغت عند وفاة اورنجزيب أقصى اتساعها اذ امتدت من
كابل الى مصبات نهر الكنج ، ومن سورات عبر حيدرآباد الى مدراس ،
وبدت الهند جميعها عدا رأس هضبة الدكن خاضعة اسميا للمغل .

ثم بدأت دولة المغل في الانحلال بعد وفاة اورنجزيب ، اذ
خلفه سلسلة من الابطارة الضعاف الفاسدين . وثار القوي
الخاضعة للمغل واعلنت عليهم العصيان ، مثل الراجبوتيين ،
وابت الاعتراف بسلطانهم . واستقلت هذه القوى بالبلاد
التابعة لها ، ومهدت الاحوال في مقاطعات
كلكتا وبومباي ومدراس لاستقرار النفوذ الاوربي الذي مثلت
طلائعه هناك شركة الهند « الانجليزية » . وفي سنة ١٧٥٧ م .
وقعت وقعة بلاسي ، وكذلك وقعة بوكسار سنة ١٧٦٤ م ، اللتان
وضعتا حدا لشبح سلطنة المغل ، وباتت هذه السلطنة ظلا لا قيمة له .
وخضع اخر السلاطين الثلاثة في دولة المغل لنفوذ شركة الهند الشرقية
البريطانية ، ونالوا منها العطاءات والاموال . وتوفى اخر اولئك
السلاطين وهو بهادر الثاني في المنفى سنة ١٨٦٢ م ، بعد ان فقد
عرشه في ثورة اشعلها ضد المستعمرين البريطانيين .

الفصل الرابع

العالم الاسلامى بين الصليبيين والمغول

أهمية العالم الاسلامى

الموقع :

يتضح مما تقدم هنا بشأن الدولة السلجوقية الكبرى ان قيام هذه الدولة فى القرن الحادى عشر الميلادى أعاد الى المسلمين بعض الهيبة التى بددتها مظاهر الضعف فى الخلافة العباسية . وبفضل السلاطين السلاجقة غدت دار الاسلام - وهو ماجرى عليه المصطلح عند الفقهاء فى تسمية الدولة الاسلامية - قبلة أنظار العالم مرة أخرى . فالناظر الى خريطة العالم الاسلامى على عهد السلطان السلجوقى ملكشاه (٤٦٦ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢ م) يرى ارتباط أواسط آسيا حتى تركستان مع الجزء الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وانفراد هذه الرقعة الجغرافية بعودة الروح الاسلامية الاولى سواء من ناحية التوسع الحربى ، أو من ناحية النشاط العلمى .

وجاورت هذه الدولة السلجوقية السنية غربا دولة الخلافة الفاطمية الشيعية ، التى سيطرت على جهات من العالم الاسلامى

لا تقل أهمية عن ممتلكات السلاجقة . فامتد سلطان الفاطميين على مصر وجنوب الشام حيث يلتقى أعظم بحرين فى العالم القديم ، وهما البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . وعلى الرغم من العداء الذى استحکم بين السلاجقة والفاطميين لاختلافهما حول المذهب السنى والشيعى ، لم تستطع إحدى الدولتين أن تقضى على جارتها مع كثرة الحروب بينهما ، ولذا بدت كل منهما ذات مكانة هامة فى العالم الإسلامى ، فضلا عن الدولة الأموية بالاندلس ، وهى دولة عظيمة الهيبة والمدنية فى الجزء الجنوبى الغربى من أوروبا . وهكذا بدأ العالم الإسلامى فى نظر العالم الأوروبى المسيحى على الأقل ، يقبض بطرفيه على أوروبا من الشرق والغرب .

أما أهم دول أوروبا وقتذاك ، فأولهما الإمبراطورية الغربية الألمانية ، التى اشتملت على ألمانيا الحالية وإيطاليا وأجزاء من بلجيكا وهولندا والنمسا والمجر ، وهى التى صار اسمها الرسمى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وإمبراطورها وقتذاك هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦ م) . وقامت فى فرنسا مملكة قوية تولى عرشها ملوك من أسرة هيوكاييه ، التى اشتهر منها وقتذاك الملك فيليب الأول (١٠٦٠ - ١١٠٨) . وفى إنجلترا أسس النورمانيون مملكة قوية تولى عرشها اذ ذاك الملك وليم الثانى (١٠٨٧ - ١١٠٠ م) . وفى اسبانيا المسيحية قامت ممالك نافار

وأرجونة وقشتالة ، وهى الممالك التى نهضت لحرب المسلمين
بالإندلس أجيالا عديدة .

وفى أقصى الشرق الاوربى قامت الدولة البيزنطية ، التى هزم
السلاجقة امبراطورها رومانوس ديوجينيس فى وقعة منكرت سنة
١٠٧١ م . وتولى عرش الدولة البيزنطية بعد هذه الوقعة الفاصلة
الامبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٨ م) . وهو الذى
ارسل استغاثة للبابا جريجورى السابع لصد الزحف السلجوقى ،
وعبأ الشعور فى غرب أوروبا للحروب الصليبية .

طرق التجارة :

ومما زاد فى هيبة العالم الاسلامى وقتذاك سيطرة المسلمين
على الميزان التجارى بين الشرق والغرب ، اذ كفل الموقع الجغرافى
للمسلمين اشرافا على حركة التبادل التجارى الدولى رغم تعدد
القوى السياسية التى تولت امورهم . ذلك أن التيار التجارى
الرئيسى فى العالم تدفق فى العصور الوسطى من الشرق الاقصى
والهند الى البحر الابيض المتوسط ، حيث هيمنت مصر والشام
وآسيا الصغرى وإيطاليا على جميع الطرق التجارية ، واجاد
التجار المسلمون معرفة المسالك البرية والبحرية الآتية من هذه
البلاد ، وظهرت الكتب الواصفة للمحطات والمدن الهامة القائمة عبر
هذه الطرق ، واتخذت هذه التجارة الشرقية أربعة طرق رئيسية
للوصول الى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط (انظر

الخريطة ص ٢٤٣) . وجاء أحد هذه الطرق من شرق آسيا مارا بتركستان ثم بحر قزوين (بحر الخزر) حيث تنفرع الى فرعين ؛ اتجه أولهما شمالا الى نهر الفلجا (نهر اتل) ، ومنه الى البحر الاسود ، ثم انتهى الى القسطنطينية ، أما الفرع الآخر فसार جنوبا ، مخترقا شمال فارس ، ومر بأرمينية الى طرايزون على البحر الاسود ومن هذين الفرعين انتقلت التجارة من موانئ البحر الاسود عبر البسفور والدرديل الى البحر الابيض المتوسط .

اما الطريق الثانى فجاء كذلك من آسيا ، مارا بالهند وأفغانستان واواسط فارس الى بفياد ونصيبين ودمشق . وبدأ الطريق الثالث من الخليج الفارسى ، ثم اتبع طريق الفرات ، حيث تشعب شعبتين ، اخترقت أحدهما سوريا والاخرى آسيا الصغرى .

اما الطريق الرابع والاخير ، فكان بحريا من أوله الى آخره ، أى من الخليج الفارسى فى ايران الى البحر الاحمر فى مصر .

واشرف المسلمون على هذه الطرق الواقعة كلها فى أرضهم ، عدا أجزاء من الطريق الاول . وغدت هذه الطرق متصلة ميسورة سواء فى غرب آسيا أو مصر وشمال افريقية ، اذ اهتم السلطان السلجوقى ملكشاه بتعبيد الطرق وتأمينها ، واقامة الفنادق لراحة المسافرين فيها ، كما اهتمت الدولة الفاطمية بمختلف الطرق المؤدية الى مصر ، حتى أصبح التاجر يستطيع الانتقال من اطراف الصين الى الشام دون حراسة بفضل نفوذ السلاطين المسلمين وسطوتهم .



وجاءت السفن الأوربية الى موانئ المسلمين بشواطئ البحر الأبيض المتوسط - اى الاسكندرية ودمياط وطرابلس الشام - للحصول على منتجات الشرق الاقصى وغيرها مما تحتاج اليه من منتجات البلاد الاسلامية . وقامت الامبراطورية البيزنطية بدور العميل الاول مع الدولة الاسلامية ، تستورد منها المتاجر وتولى تصريفها الى سائر بلدان أوروبا الغربية ، وتحمل من منتجات أوروبا الى المسلمين وقتذاك كميات كبيرة من الفراء والعسل والجلود والاسلحة . وحرصت الامبراطورية البيزنطية على استمرار سيطرتها التجارية على دول غرب أوروبا باحتكار الصناعات المعتمدة على الواردات الشرقية ، مثل صناعة الحرير وصقل المجوهرات والنقش على العاج . وأشرف التجار اليهود على ما تبقى بعد ذلك من تجارة دول أوروبا الغربية سواء مع المسلمين أو البيزنطيين . فذكر أحد الجغرافيين المسلمين ، وهو ابن حرداذبة ان التجار اليهود جاءوا من اقليم بروفانس في بلاد الفرنجة (فرنسا) ، ومعهم الجوارى والغلمان والفراء والسيوف وسافروا بها بحرا الى الفرما في مصر ثم نقلوها على ظهور الدواب الى القلزم (السويس) ، ومن هناك استأنفوا رحلتهم بحرا الى السند والهند والصين . وعاد أولئك التجار بمنتجات الشرق الاقصى الى الفرما مرة أخرى ، ومنها ركبوا البحر الى بلاد الفرنجة أو الى القسطنطينية .

ثم تطورت وسائل اتصال أوروبا بالبلاد الاسلامية والشرق

الاقصى منذ بداية القرن العاشر الميلادى ، اى منذ اخذت المدن الإيطالية التابعة اسميا للدولة البيزنطية ، تسعى للاستقلال بشؤونها التجارية ، وتعمل للاتصال مباشرة بالدول الاسلامية . ولم يأت القرن الحادى عشر حتى تخلصت المدن الإيطالية تماما من سيطرة البيزنطيين على تجارة الشرق ، وحلت هذه المدن ولا سيما البندقية محل القسطنطينية فى المركز الرئيسى للتبادل التجارى مع العالم الاسلامى . وساعد هذا الانقلاب التجارى فى بلاد اوروبا على توسيع الحروب الصليبية المعروفة واطالتها ، لان الاطماع التجارية التى استولت على مدن اوروبا اختلطت بالحماسة الدينية التى أشعلت هذه الحروب الصليبية ، لتخليص الاراضى المسيحية المقدسة بفلسطين من أيدي المسلمين .

الاماكن المقدسة :

واصل هذه الحروب الصليبية انه منذ استولى المسلمون على فلسطين ، فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، اشرقت الخلافة الاسلامية على الاماكن المسيحية بها مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصرة والجليل . واثارت هذه السيادة الاسلامية غضب الحجاج الاوروبيين ، منذ كثرت اعداد الوافدين منهم على بيت المقدس . على أن الحج فتح باب علاقات سياسية بين الدولة الاسلامية وبعض الدول المسيحية الكبرى فى اوربا مثل دولة الفرنجة الكارولنجية إذ حرصت هذه الدولة على تدعيم صلاتها بالاماكن المقدسة ، لتستمد

منها مركز الرعامة في العالم المسيحي . فبعث شرلمان امبراطور الفرنجة (٨٠٠ م) ، ومنافس الامبراطورية البيزنطية ، سفارة الى الخليفة العباسي هارون الرشيد لتسهيل زيارة الحجاج الفرنجة لبيت المقدس . وأرسل هارون الرشيد سفارة اسلامية الى شرلمان ، وبعث معها مفاتيح كنيسة بيت المقدس ، مفضلا اياه على قسطنطين السادس امبراطور البيزنطيين واصبح شرلمان في نظر المعاصرين حامى المسيحيين الذاهبين الى الاماكن المقدسة .

ولقيت الاماكن المقدسة وحجاجها الوافدون اليها من المسيحيين عناية كبيرة من السلطات الاسلامية الممثلة للخلافة العباسية . ولما استولى الفاطميون الشيعة على اقليم الشام سنة ٦٩٦م حفظوا سياسة الخلافة العباسية في العناية باماكن الحج المسيحية وظل الحجاج المسيحيون يلقون معاملة حسنة واذلهم السلاجقة كذلك بالعناية بعد امتداد الدولة السلجوقية على بلاد الشام سنة ١٠٧١ م واستيلائها على بلاد المقدس . لكن تفكك الدولة السلجوقية وكثرة حروبها الداخلية ، وقلة الامن فيها بسبب هذه الحروب ، حرم الحجاج المسيحيين من الاطمئنان على انفسهم واموالهم . فعادوا الى بلادهم ووصفوا المتاعب التي يلقونها في كثير من المبالغة ، وقادوا بتخليص الاراضي المقدسة من المسلمين . وغدت الروايات المختلفة عاملا من العوامل التي اثارت الناس في أوروبا نحو الحروب الصليبية .

الحروب الصليبية

الدعوة اليها في أوروبا

الكنيسة :

منذ صارت بيت المقدس في أيلاى السلاجقة ، أحست أوروبا المسيحية بأن الاماكن المقدسة انتقلت الى يد دولة اسلامية عسكرية صارمة . وفي أثناء تفكك الدولة السلجوقية وحروبها وسوء معاملة الحجاج بعد ذلك أخذت بعض السلطات الاوروبية ، ومنها البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٦ م) تروج اخبار هذه المعاملة السيئة . ووصلت بعض هذه الاخبار من ناحية الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع سنة ١٠٧٣ م اذ استغاث بالبابا ، لصد تيار السلاجقة الذى تدفق على آسيا الصغرى بعد انتصارهم فى وقعة منزكرت .

ورأى البابا فى هذه الاخبار وسيلة لاعلاء شأن الكنيسة ، وإعادة وحدتها بين الشرق والغرب ، لأن الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية انفصلت عن كنيسة روما منذ ثمانية عشر عاما قبل وقعة منزكرت . وشجعه على مشروع إعادة هذه الوحدة بين الكنائس المسيحية أن بعض البطارقة البيزنطيين نادى بأن للكرسى البابوى فى روما مركز الصدارة ، وأن البابا هو الحكم والفصل فيما ينشب بين الكنائس المسيحية من خلاف ، مع أنهم لا يرضون بمسألة ادعته روما لنفسها من السيادة عليهم .

والسلطان المطلق . لذا بدأ الطريق ممهدا لتأكيد الزعامة التي فقدتها البابوية بسبب الانفصال السابق عندما استغاث الامبراطور البيزنطى بالبابا جريجورى السابع .

غير ان البابا جريجورى السابع نادى وقتذاك بنظرية سمو البابوى ، اذ رأى أن الكنيسة هى القوة العليا ، يستمد منها الاباطرة والملوك وسائر الحكام السلطة والنفوذ . وفكر فى الدعوة الى اعداد حملة صليبية من دول غرب أوروبا لتحقيق مآرب شتى ، وهى طرد السلاجقة من آسيا الصغرى ، واعادة البيزنطيين الى ممتلكاتهم بها مقابل عودة الاتحاد بين الكنيستين الشرقية والغربية . لكن سمو البابوى ادى الى وقوع خلاف شديد بين البابا جريجورى وامبراطور ألمانيا هنرى الرابع ، ونشبت بينهما مشكلة التقليد العلمانى (١) حول تمسك كل منهما بحق تقليد الاساقفة لوظائف الاسقفية . فقامت بينهما حروب ، ذهبت فى اثنائها استغاثة الدولة البيزنطية هباء . على أن صيحات الحجاج المسيحيين ايقظت الشعور فى غرب

(١) العلمانى نسبة الى العلم ، والمقصود بذلك موظفو الدولة من غير رجال الدين . أما سبب مشكلة التقليد العلمانى فهو استخدام امبراطور ألمانيا للاساقفة فى وظائف الدولة ، فأراد البابا أن يكون تقليد الاساقفة مسألة دينية لأنهم تابعون له ، على حين أراد الامبراطور ان يكون تقليدهم لمناصبه الدينية من قبله باعتبار انهم يتولون وظائفهم فى دولته .

أوروبا لمحاربة المسلمين . وجدد الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين سنة ١٠٩٥ م الاستغاثة مرة أخرى بالبابا اربان الثانى ، بعد أن وضح له ان الامبراطورية لاتستطيع أن تعيش بدون أقاليم آسيا الصغرى التى باتت فى أيدي السلاجقة ، فمن تلك الاقاليم الاسيوية جندت الامبراطورية خيرة جنودها ، فضلاعن أنسواحها زودت الاسطول البيزنطى بعدد كبير من السفن والبحارة ، ونجح اربان الثانى فيما عجز جريجورى السابع عن تحقيقه ، اذ اخترمت فى رأسه وهو فى مدينة كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ م - لتسوية بعض المسائل الخاصة بالملكية الفرنسية - ان يدعو لاعداد حملة تستهدف طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وتخليص الاراضى المقدسة كذلك من أيدي المسلمين . واستطاعت البابوية بذلك أن تصبح القوة الاولى ، والعامل الفعال ، الذى حول استغاثة الامبراطور البيزنطى لحماية الدولة البيزنطية فقط ، الى حرب صليبية عامة مقدسة .

الاقطاع :

ولبى الامراء الاوربيون دعوة البابوية ، وهم الطبقة الحربية العسكرية ؛ واصحاب الاقطاعات الكثيرة من الارض والنفوذ السياسى الكبير . ويرجع نفوذ هؤلاء الامراء الى ماهو معروف فى غرب أوروبا بالنظام الاقطاعى ، الذى جعل المجتمع الاوروبى ثلاث طبقات وهى طبقة رجال الدين ؛ وطبقة المحاربين ؛ وطبقة الفلاحين . فرجال الدين هم المشرقون على الكنيسة والعبادة

والمحافظة على الدين ، والمحاربون وظيفتهم الحرب وما تستلزمه من اقتناء الجيوش والصرف عليها واعدادها للقتال ، والفلاحون هم الذين يعملون في أرض أصحاب الاقطاع من الامراء واتباعهم من الفرسان .

وسرى اسم الفرسان على طبقة المحاربين عموما لاعتمادهم في ذلك العصر على الخيل في القتال ، ولبس الفارس الزرود الثقيلة والخوذات ، وغيرها من الملابس المصنوعة من الحديد . ولا يدخل الواحد في طبقة الفروسية الا بعد اجتياز شعائر خاصة تتولاها الكنيسة والسيد الاقطاعي الذي سوف يصبح الفارس من اتباعه . فالشخص الذي يتم تدريبه الحربي ويصبح مرشحا للفروسية ، يحضر حفلا تحت اشراف الكنيسة للاعتراف بأهليته للاتحاق بطبقة الفرسان ، وقبل الحفل يقتسل المرشح بماء تباركه الكنيسة ، ثم يحيى ليلته بالصلاة ، حتى اذا أقبل الصبح قصد الى الكنيسة حيث يعترف بما سلف من ذنوبه وخطايا ، ويتلو عليه القس واجبات طبقته ، وأهمها الدفاع عن الدين ، وإيواء الارمل واليتيم فضلا عن الخدمة العسكرية في حروب السيد الاقطاعي ، ولو جاءت هذه الحروب ضد ملك البلاد . وبذلك يصبح الفارس جنديا من جنود الله . والفرسان الذين اشتركوا في الحروب الصليبية ضد المسلمين من هذه الطبقة الاقطاعية المحاربة .

واذ انتشرت الحروب الاقليمية بين السادة الاقطاعيين وملوكهم في غرب أوروبا ، فان الكنيسة رأت في الدعوة الى

الحروب الصليبية وسيلة لصرف هذه الطبقة وإتباعها من
الفرسان عن الشحنة الى خدمة الدين . ورأى أصحاب الاطماع
الواسعة من السادة الاقطاعيين وفرسانهم في نداء الكنيسة فرصة
للذهاب الى الشرق ووسيلة لتأسيس امارات أو اقطاعات لهم
هناك ، والتخلص بذلك من المتاعب الاقتصادية التي نتجت عن
المزاحمة الاقطاعية في مختلف الممالك الاوربية . وذهب معاولئك
السادة وفرسانهم الى الحروب الصليبية كثير من الناس فرارا
من البؤس والفقر ، أو حبا في خدمة المسيحية .

الامارات البحرية الإيطالية :

ولقى الصليبيون من المدن البحرية الإيطالية مساعدة كبيرة
في تموينهم وحملهم على ظهور السفن الى الشام . ولم تستهدف
مدن إيطاليا ان تخدم الدين فحسب ، بل أسهمت في اعداد
الحملات الصليبية لتحقيق أغراضها التجارية كذلك ، مثلما تجلى
في مطاعم البندقية وجنوة وبيزا وأملفي . ثم اشتدت المنافسة
بين المدن الإيطالية أبان الحروب الصليبية ، اذ جهدت كل منها
في توسيع سلطانها وتدعيم نفوذها التجاري في بلاد الشرق
الاسلامى والمسيحي ، واستطاعت البندقية بفضل موقعها
الجغرافى على رأس البحر الادرياتي أن تتوغل تجارتها في قارة
أوربا ، وبذا اجتذبت اليها متاجر البلاد المحيطة بها . وسارت
اساطيل البندقية الى مصر والشام ، واستبدلت بمنتجات
أوربا حاصلات الشرق من التوابل والعطور وغيرها . ويرجع

هذا النشاط التجارى فى البندقية الى ما قبل زمن الحروب الصليبية ، ومن دلائل ذلك معاهدة الامبراطور البيزنطى الكسيوس الاول مع البندقية سنة ١٠٨٢ م على منح التجار البنادقة حرية التنقل للتجارة بين انحاء امبراطوريته دون دفع جمارك أو مكوس ، مقابل مساعدة البندقية للامبراطورية فى حربها ضد النورمانيين - حكام جنوب ايطاليا وقتذاك . اما زمن الحروب الصليبية فعملت البندقية وكذلك جنوة وبيزا واما فى على الاتصال مباشرة بالشرق الاسلامى ومتاجره . ولذا قدمت اساطيلها لمساعدة الجيوش الصليبية فى استيلائها على مدن الشام ، ونقل الحجاج مقابل الحصول على امتيازات تجارية فى الامارات الصليبية فى الشام . وأصبح لكل من هذه المدن أجزاء خاصة بتجارها فى مختلف المدن والموانئ الشامية ، وبذا غدا العامل التجارى سببا من الاسباب الكبيرة التى أدت الى استمرار الحروب الصليبية .

تكوين الامارات اللاتينية فى الشرق

اما الصليبيون الذين اجتمعوا من مختلف البلاد الاوربية لتخليص الاراضى المقدسة بالشام ، فجعلوا مدينة القسطنطينية نقطة لالتقاء جيوشهم قبل العبور الى آسيا الصغرى والشام . وقبل وصول هذه الجيوش الصليبية اجتمع بالقسطنطينية سنة ١٠٩٦ م أعداد شتى من الرجال والنساء فى غير نظام أو خبرة بالقتال ، وعبرت الى الشاطئ الاسيوى بزعامة رجل اسمه

بطرس الناسك لـ قباد معظم أولئك الناس ، ماغدا بطرس نفسه ،
على ايدى السلاجقة المسلمين . ثم وصلت الجيوش الصليبية
الى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ م بقيادة زعمائها ، وهم جودفري دى
بويون دوق لورين ، واخيه بلدوين ، وروبرت كونت فلاندرز ،
وريموند التولوزي ، وبوهمند النورمانى . فآخذ الامبراطور
الكسيوس كومنين على أمرائها قسما تعهدوا فيه بأن يسلموا
اليه البلاد البيزنطية التى يستردونها من السلاجقة فى آسيا
الصفرى وبدا سهل لهم عبور البوسفور فى مايو سنة ١٠٩٧ م ،
بعد أن أمدهم بالمؤنة والعتاد والمعلومات الجغرافية اللازمة .
وعجل الامبراطور باقصاء جيوش الصليبيين عن القسطنطينية ،
بسبب عبثهم بالمدينة ، فضلا من عبثهم بالبلاد البيزنطية فى
البلقان قبل وصولهم الى القسطنطينية .

وبدا الزحف الصليبي على آسيا الصفرى والشام فى وقت
ليست فيه قوة اسلامية تستطيع الوقوف في وجه الجيوش الصليبية ،
فال دولة السلجوقية الكبرى باتت بعد وفاة سلطانها ملكشاه سنة
١٠٩٢ م دويلات متناثرة لارابطة بينها سوى الحروب المستمرة .
ففى دولة السلاجقة الروم - أى آسيا الصفرى - حكم السلطان
تقيج أرسلان الصغير السن ، وهو أول من لقي ضربات الصليبيين
سنة ١٠٩٧ م . وفى الشام والعراق لم يوجد حاكم ذو نفوذ
واسع ، بل استبد بمختلف المدن الشامية والعراقية مجموعة من
الأتابكة المتنازعين ، وهم الموظفون الذين قاموا على تربية أبناء

السلاطين وتعينوا الى جانبهم في ولاياتهم ، فلما تفككت الدولة السلجوقية الكبرى صار اولئك الاتابكة اصحاب الدويلات في مدن الشام والعراق .

اما الخلافة العباسية في بغداد فلم يكن لها حول ولا قوة ، وضاعت صرخات المسلمين لاستنهاض الخليفة العباسي المستظهر بالله (١٠٩٤ م / ٤٨٧ هـ) . وكذلك لم يكن باستطاعة الخلافة الفاطمية وهي صاحبة بيت المقدس وغيرها من المدن بجنوب الشام ، ان تقوم بعمل كبير ضد الصليبيين . اذ عاش الخليفة الفاطمي بالقاهرة مسلوب السلطان ، بسبب الحزبية العسكرية وتنازع المصالح والاطماع بين الوزراء الفاطميين . ومن الواضح ان هذه العوامل الكثيرة سهلت على الصليبيين هزيمة المسلمين كما سهلت عليهم تأسيس امارات صليبية .

امارة الرها :

وعندما اخذت الجيوش الصليبية تسير من آسيا الصغرى الى الشام ، تفرعت عنها فرقة بقيادة بلدوين واغارت على مدينة الرها . وفي اوائل سنة ١٠٩٨ م احتل بلدوين هذه المدينة الهامة واسس بها اول امارة لاتينية - اى صليبية - في الشرق . وتولى بلدوين شئون هذه الامارة التي ظل بها مدة ، على حين استمرت الجيوش الصليبية في زحفها الرئيسي على الشام .

امارة انطاكية :

ثم حاصر الصليبيون مدينة انطاكية في شمال الشام واستطاع

بوهيموند النورمانى فى يونيو سنة ١٠٩٨ م أن يقتحم هذه المدينة العظيمة بسبب خيانة أحد حراس أبراجها من الجند الأرمن ، اذ ادلى الجبال ليلا من أعلى الاسوار ، وسهل للصليبيين دخولها بعد حصارها الطويل . وتولى بوهيموند النورمانى تأسيس الامارة اللاتينية الصليبية الثانية فى هذه المدينة ، وسارت القوات الصليبية الرئيسية جنوبا الى بيت المقدس « اورشليم » بقيادة جود فرى دى بويون .

الاستيلاء على بيت المقدس :

ومن انطاكية سار جودفرى لتحقيق الهدف الاول للصليبيين وهو الاستيلاء على بيت المقدس . فوجد مدينة الرملة الواقعة فى طريقه خالية من الجند الفاطمى . فاستمر فى زحفه حتى بلغ ابواب بيت المقدس (اورشليم) ، (وفى يونيو سنة ١٠٩٩ م) . وسارت جموع الصليبيين حفاة الاقدام حول اسوار المدينة ، امعانا فى اظهار التقوى ، ونفخوا الابواق ليقاع الرعب فى الحامية الفاطمية المصرية المرابطة بها . وفى اليوم الخامس عشر من يوليو دخل الصليبيون مدينة بيت المقدس ، بعد أن وعدوا أهلها بالامان وحفظ الارواح . ولكنهم تكثروا بوعودهم وانزاعوا بسكانها مذبحه كبرى ، دون رعاية لعهد الامان .

ولم يرض رجال الدين من الصليبيين أن تقوم فى بيت المقدس مملكة ، وهى البلد الذى قام فيه المسيح داعيا الى الابتعاد عن

زخرف الحياة ، فاستقر الراى على أن يكون جودفرى رئيسا وحاميا لبيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، لا ملكا فى الدولة الصليبية هناك .

مملكة بيت المقدس :

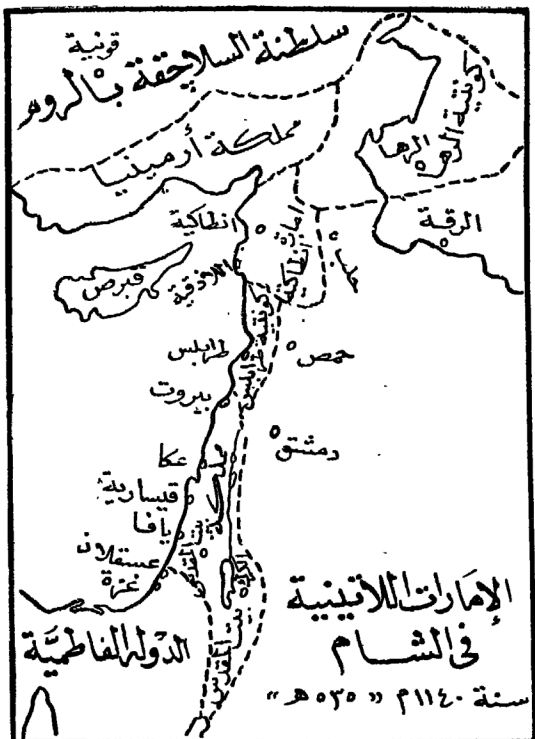
ولما مات جودفرى جاء أخوه بلدوين أمير الرها ، ونودى به ملكا على بيت المقدس يوم عيد الميلاد ، فى سنة ١١٠٠ م ، بعد أن تغير موقف رجال الدين من نظام الحكم فى المملكة الصليبية ، ولذا فالملك بلدوين الأول هو المؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس . وبدأ بلدوين عهده باخضاع المدن الساحلية ليعظم مواسلاته مع أوروبا ويمنع سفن الاسطول الفاطمى من استخدام هذه الموانى . ولقى بلدوين ، كما لقي أخوه جودفرى قبله ، مساعدات كبيرة من المدن الإيطالية البحرية ، مثل بيزا وجنوة والبندقية . فاستولى بمساعدة أسطول جنوة على أرسوف وقيصرية الشام سنة ١١٠١ م ، على حين سقطت فى يده عكا المنيع بعد ذلك بثلاثة أعوام ، بفضل مساعدة أساطيل البندقية وجنوة . ثم استطاع بلدوين أن يحاصر بيروت برا وبحرا سنة ١١١٠ م ، وبعد حصار دام أحد عشر أسبوعا دخل بلدوين هذه المدينة وذبح كثيرا من أهلها .

ووسع بلدوين مملكته جنوبا للحصول على ميناء على البحر الأحمر ابتغاء الاستيلاء على جزء من التجارة مع الهند . فبنى

إلى الجنوب من البحر الميت سنة ١١١٥ م حصن الشوبك ،
ليتحكم أولا في طريق القوافل من دمشق الى مصر والحجاز .
ثم حاول بلدوين غزو مصر أكثر من مرة ، أولا عن طريق الطور ،
وثانيا عن طريق العريش . ومات سنة ١١١٨ م أثناء محاولته
الثانية داخل الاراضى المصرية ، قرب مكان لا يزال يحمل اسمه
محر فا حتى العصر الحاضر ، وهو ساحة البردويل ، على البحر
الابيض المتوسط شرقى بور سعيد الحالية . وبلغت مملكة بيت
المقدس زمن بلدوين أقصى اتساعها الجغرافى فامتدت من العقبة
على البحر الميت الى بيروت على نهر العاصى .

امارة طرابلس :

بينما تتحول امارة بيت المقدس الى مملكة بقيام بلدوين حاكما ،
تأسست دولة لاتينية رابعة في طرابلس الشام ، بالاضافة الى
الرها وانطاكية وبيت المقدس . وتطلع الى ذلك المشروع الكونت
ريموند التولوزى . وبدأ هذا القائد حصار طرابلس سنة ١١٠١ م ،
وعزلها عن المنطقة الاسلامية المحيطة بها بأن بنى حصنا على تل
مجاور لها . وطال الحصار على هذه المدينة . وفى اثناء هذا
الحصار الطويل استعان ريموند بأسطول مكون من أربعين سفينة
من جنوا ، واستولى على ثغر جبيل سنة ١١٠٤ م جنوبى طرابلس
غير أن ريموند مات سنة ١١٠٥ م ، قبل أن يحقق غرضه ، ولم
تسقط طرابلس الا سنة ١١٠٩ م فى يد ابنه . وصارت امارات
طرابلس والرها وانطاكية تابعة اسميا لمملكة بيت المقدس .



ادارة مملكة بيت المقدس والامارات اللاتينية الصليبية :

جاء الصليبيون من غرب اوروبا الى الشام بنظم اقطاعية اوروبية ، فطبقوا هذه النظم ما استطاعوا على الممتلكات التي صارت في ايديهم . ولم تتجاوز مساحة هذه الممتلكات جميعا الجزء الشمالى من الشام والسهل الساحلى الضيق ، ومن خلفها امتداد شاسع من الاراضى الاسلامية . ولم يفصل هذه الامارات اللاتينية عن اى بلد من بلاد المسلمين اكثر من مسيرة يوم واحد على ظهور الخيل . ولذا ادخل الصليبيون فى ممتلكاتهم النظام الاقطاعى الاوروبى . فمنحوا اتباعهم اراضى واقطاعات تحولت بالتدريج الى ملكية دائمة . ولم تلبث المساوىء الاقطاعية ان انتشرت فى الامارات الجديدة ، فكثر للنزاعات المحلية والمشاكل الداخلية بين الصليبيين انفسهم بالشام ، وتحالف بعضهم مع المسلمين من جيرانهم ضد المنافسين لهم من الصليبيين . وزاد هذه المشاكل خطورة اشتداد الخلاف احيانا بين الزعماء الصليبيين حول ولاية الحكم ، وانقسامهم احزابا تحارب بعضها بعضا .

الجهاد الاسلامى

حركة الافاقة الاسلامية على عهد عماد الدين زنكى ؟

تطورت الحركة الاسلامية لطرده الصليبيين الى جهاد نهضت به

دول الاتابكة في شمال العراق والشام ، وظهر من أمراء هذه الدول أتابك قوى ، هو عماد الدين زنكى أمير الموصل (١١٢٧ - ١١٤٦ م) . واستطاع زنكى بمواهبه أن يتولى أولا إدارة مدينة واسط ومدينة البصرة ، ثم استولى على إمارة الموصل ، وبلغ بذلك رتبة الاتابكية .

ثم بسط زنكى سلطانه على حلب كذلك ، وغدا مؤسس دولة كبيرة تهدد ممتلكات الصليبيين في شمال العراق والشام . واستهل زنكى أعماله ضد الصليبيين بحصار مدينة الرها ، وهى المعقل الاول للصليبيين في شمال العراق ، والخطر الذى هدد بغداد عاصمة الخلافة العباسية . وبعد حصار دام أربعة أسابيع استولى زنكى على الرها سنة ١١٤٤ م ، وسمى هذا الفوز « نصر الأنصار » ، اذ ترتب على سقوط إمارة الرها في يده ازالة الوند الصليبي الذى شق البلاد الاسلامية نصفين . ووضع زنكى حامية في الرها لتأمين فتوحاته في هذه المنطقة الهامة ، وبدأ زحفه على معاقل الصليبيين الأخرى المجاورة ، واعانه في معظم حروبه أخوان من أهل كردى في خدمته ، وهمانجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه . على ان زنكى مات قتيلا سنة ١١٤٦ م على يد أحد مماليكه ، بتحريض من بعض أعدائه المسلمين ، وهويحاصر قلعة جعير . وترك لابنه نور الدين محمود اتمام الدور الاول من الجهاد ضد الصليبيين ، وخلف له سياسة مرسومة واضحة المعالم .

نور الدين محمود بن زنكى :

جعل نور الدين عاصمته مدينة حلب ، وبلغت الدولة على أيامه أعظم مجدها واتساعها ، اذ استطاع عقب توليته الحكم ان يتخلص في سرعة من الفتن الداخلية التى تلت مقتل والده . واصطدم نور الدين بمحاولة الصليبيين لاسترداد الرها ، اذ ادى استيلاء المسلمين على هذا المعقل الهام الى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية (١١٤٧ - ١١٤٩ م) . وتولى قيادة الجيوش الصليبية كتراد الثالث ملك المانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، غير أن اختلاف المصالح الشخصية حول هذه الحملة الى حصار دمشق بدلا من استعادة الرها . وقاوم الاتابك طغتكين أمير دمشق هذا الحصار الصليبي سنة ١١٤٨ م ، وظل الصليبيون امامها عاجزين عن اقتحامها رغم اشتراك فرسان الهيئتين المسيحيتين اللتين تأسستا لمساعدة الصليبيين في الشرق ، وهما الداوية والاسبتارية . وارسل نور الدين زنكى قوات لنجدة طغتكين ، فاضطر الصليبيون الى رفع الحصار ، وعاد لويس وكتراد الى أوروبا ، بعد فشل الصليبيين في تحقيق شيء من أغراضهم في دمشق والرها .

التسابق بين نور الدين والصليبيين للاستيلاء على مصر :

راى نور الدين بعد فشل هذه الحملة الصليبية ضرورة الاستيلاء على دمشق ، تحقيقا لتوحيد الجبهة الاسلامية التى بدأها أبوه ، ولا سيما بعد أن امتدت ممتلكات

الصلبيين الى مدينة عسقلان سنة ١١٥٣ م . وفي سنة ١١٥٤ م استولى نور الدين على مدينة دمشق دون قتال ، حين وقعت المدينة مستعدة للدخول في طاعته ، لان القائد العام لجيوشها وهو نجم الدين ايوب ، ابوصلاح الدين ، من رجال الاتابك زنكي ، ولان قائد جيش نور الدين هو شيركوه اخو نجم الدين ايوب . ولان قائد جيش نور الدين هو شيركوه اخو نجم الدين ايوب . ابو صلاح الدين .

وأدى هذا التغير في الموقف الحربى الى اتجاه انظار كل من نور الدين في حلب والصلبيين في بيت المقدس الى مصر . اذ رأى نور الدين أن استيلاء الصليبيين على عسقلان فتح الطريق أمامهم الى مصر ، على حين وضع للصلبيين أن استيلاء نور الدين على دمشق أتاح له تطويق مملكة بيت المقدس من الشمال ، وأنه سوف يتحول الى مصر لتطويق المملكة الصليبية من الناحية الجنوبية كذلك . وجاءت أحوال الخلافة الفاطمية نفسها عاملاً ساعد نور الدين على الفوز بمصر والاستيلاء عليها ، اذ استنجد الوزير الفاطمى شاور بنور الدين ليساعده ضد منافسه في الوزارة الفاطمية وهو ضرغام ، الذى استنجد بدوره بالصلبيين . وانتهى التسابق بين جيوش نور الدين ومملكة بيت المقدس الى فوز القوات الثورية بالبقاء في مصر وغدت مصر محور الارتكاز ، الذى يوشك ان تدور عليه أحداث المراحل المستقبلية من الجهاد ضد الصليبيين ، ولا سيما بعد ان زالت الخلافة الفاطمية من مسرح التاريخ .

صلاح الدين الايوبي

الدور الثاني من الجهاد الاسلامي

توحيد الجبهة الاسلامية :

ترتب على ازالة الخلافة الفاطمية ان عادت مصر الى المذهب السني والتبعية الرسمية للخلافة العباسية في بغداد ، وكل ذلك نتيجة جهود شيركوه وصلاح الدين باسم السلطان نور الدين .

غير أن نور الدين لم يلبث ان تشكك في مطامع صلاح الدين ونواياه ، وصمم على القيام بنفسه على رأس حملة لخلعه من مصر .

ثم توفي نور الدين سنة ١١٧٤ م قبل أن تتحرك هذه الحملة ، فترك سياسة توحيد القوى الاسلامية التي بدأها لصلاح الدين ، واستطاع صلاح الدين أن ينهض بهذه السياسة على أتم وجه ، فأعلن استقلاله بمصر أولا غداة وفاة نور الدين ، واعترفت له الخلافة العباسية بذلك ، ثم اتخذ مصر قاعدة لضم صفوف المسلمين .

وبدأ صلاح الدين خطواته لتوحيد القوى الاسلامية بازالة الشخصيات التي اعترضت سبيله في الشام ، وساعده الاختلافات التي تلت وفاة نور الدين على تحقيق مهمته ، اذ استعان به الدمشقيون أملا في أن تصبح دمشق عاصمة للدولة النورية بدلا من حلب ، وجاء صلاح الدين الى دمشق ، ودخلها ١١٧٤ م باسم الطفل اسماعيل بن نور الدين ، المقيم وقتذاك في حلب . غير أن

الامير غازي الزنكي صاحب الموصل، وهو من سلالة عماد الدين زنكي فقد على صلاح الدين أن يصبح حامى البيت الزنكى فى دمشق ، فحاربه صلاح الدين وانتصر عليه سنة ١١٧٥ م .
وغدا صلاح الدين بعد ذلك سيد مصر والشام ، والشخصية الكبرى فى العالم الاسلامى والشرق الادنى . ف ضرب النقود باسمه فى مصر والاسكندرية وحماه ، بعد أن كانت العملة تضرب من قبل باسم نور الدين . وبذا اعتبر صلاح الدين نفسه السلطان الاوحد ، ولا سيما بعد ان أخضع الموصل لسلطانه ، وجعل من أمراء العراق حكاما تابعين له .

وحقق صلاح الدين بذلك حلم نور الدين فى تطويق الفرنجة ، وجعلهم بين شقى الرحى ، بين الشام ومصر . وأصبح الجو ممهدا أمام صلاح الدين للجهاد ضد الصليبيين .

وقعة حطين :

اشتبك صلاح الدين مع الصليبيين قبل سنة ١١٨٥ م فى معارك صغيرة ، بسبب حركات صليبية ضده ، وأهمها حركات ارناط ، امير حصن الكرك ، التابع لمملكة بيت المقدس . ذلك أن هذا الامير الصليبي تحكم بحصنه فى طرق القوافل بين مصر والشام ، ولم يهتم بالمهادنات التى مقدها صلاح الدين مع مملكة بيت المقدس . وعزم ارناط على الاستيلاء على مكة والمدينة والاثار النبوية بهما ، فأعد سنة ١١٨٣ م سفنا ، حمل أخشابها وقلاعها الى خليج العقبة ، حيث جهز منها أسطولا ، نقل جنود الصليبيين فى البحر الاحمر الى شاطئ الحجاز . وكان صلاح

الدين غائبا في العراق وقتذاك ، فأسرع نائبه في مصر ، وهو أخوه العادل ، ولحق بالصلبيين عند مرفأ الحوراء شمالي ينبع ، واستطاع العادل القضاء على الصليبيين قبل تحقيق أهدافهم ، وحمل كثيرا منهم أسرى الى مصر .

ثم عاد أرناط الى خرق الهدنة بين الصليبيين والمسلمين برغم فشله السابق ، وتصدى في ربيع سنة ١١٨٦ م لاحدى القوافل الاسلامية المارة بحصنه ، واستولى على جميع متاعها ، وأسر كل افرادها . فاعد صلاح الدين حملة ضد مملكة بيت المقدس ، التى لم تستطع ان توقف اعتداءات أرناط التابع لسلطانها . وعسكر صلاح الدين بقواته عند مكان يسمى قصر السلامة ، قرب بصرى في مايو سنة ١١٨٧ م ، وقام هناك بغزو البلاد القريبة من حصن الكرك متحديا أرناط . غير ان هذا الامير الصليبي خاف الخروج لمواجهة القوات الاسلامية ، فتقدم صلاح الدين بعد ذلك على رأس قواته في شهر يونيو واستولى على طبرية ، ثم زحف منها حتى بلغ مكانا يسمى حطين .

ورأى الصليبيون وقتذاك ، تحت تأثير أرناط أن يخرجوا للاقاة صلاح الدين ، فوصلت قواتهم حطين في أول يوليو سنة ١١٨٧ م . وفي اليوم الرابع من يوليو ، اى وسط الصيف ، وقعت الواقعة ، ونزل بالصلبيين من الوان الهزائم مالم يعهده قبالا ، وزاد هذه الهزيمة أن النار اشتعلت في الحشائش الجافة حول معسكر الصليبيين ، فلم تبق على أحد تقريبا . ثم أمر صلاح الدين بأحضار الأسرى الى مخيمه ، ومن بينهم أرناط أمير الكرك ،

وجاء لوزنجان ملك بيت المقدس . فقتل صلاح الدين بنفسه
ارناط ، وبر بيمين سبق أن أقسمه بأن يقتله اذا وقع في يده ، لان
هذا الامير الصليبي لم يعرف للمعاهدات حرمة أو تقديرًا . على
أن صلاح الدين عامل الملك الصليبي معاملة ممتازة ، بل انه أطلق
سراحه بعد أن وعد بالآي يقدم على حرب ضد المسلمين .

بعد حطين :

جاءت وقعة حطين معركة فاصلة ، حتى وصفها بعض
المعاصرين من مؤرخي الحروب الصليبية الأوروبية بأنها بداية
النهاية في تاريخ الحروب الصليبية . ولم يكن في هذا القول شيء
من المبالغة ، إذ حشد الصليبيون زهرة جندهم في حطين ، ولم
يبق لديهم قوات لمواجهة الخطة الخاطفة التي رسمها صلاح الدين
لنفسه بعد حطين حتى سلمت له مدينة بيت المقدس في أكتوبر
سنة ١١٨٧ م ، بعد حصار دام أسبوعا واحدا . ثم استمر صلاح
الدين في هجومه على مدن الصليبيين في الشام وفلسطين ، فبلغ
مدينة اللاذقية شمالا ، وحسن الكرك جنوبا ، ولم تأت سنة
١١٨٩م حتى سقطت معظم المدن الصليبية التي هددت المسلمين ؛
وبدا كأن الصليبيين سيخرجون جميعا من الشام ، لانه لم يبق
في حيازتهم سوى أنطاكية وطرابلس وصور ، وبعض المدن الساحلية
الصغيرة ، وأهمها صور .

حصار عكا :

أفزع سقوط مدينة بيت المقدس ملوك أوروبا وأمرائها ، فأعدوا

الامبراطورية البيزنطية وأهلها الذين لم يروا خيرا لهم في الحملات الصليبية ، بل عقدوا محالفات مع صلاح الدين . وأدى فزع أوروبا الى تجهيز الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة التى تجزمها أكبر ملوك أوروبا وقتذاك ، وهم فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا ، ورتشارد قلب الاسد ملك إنجلترا ، وفيليب أجطس ملك فرنسا . وتسمية الحروب الصليبية بألقاب عديدة لا يعدو ان يكون تسمية اصطلاحية ، باعتبارها فصولا ، يبدأ كل منها بحادثة كبرى فى تاريخ الحروب الصليبية . على أن الحملات الصليبية تزيد عن العدد المعروف لها ، وبعضها لم يكن له علاقة بأحداث الحروب ضد المسلمين .

وامتلأت هذه الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة بالاخبار والقصص عن صلاح الدين ورتشارد قلب الاسد ، لأن الامبراطور فردريك بربروسا مات فى الطريق قبل ان يصل الى الشام ، ولأن فيليب أجطس ملك فرنسا لم يتصل كثيرا بصلاح الدين . أما رتشارد فأبحر الى قبرص ، واستولى عليها فى طريقه ، ليجعل منها قاعدة حرية يستمد منها المعونة فى حملته بفلسطين . ثم وجد رتشارد أن الصليبيين بالشام يحاصرون ميناء عكا ، بقيادة جاي لوزجنان ملك بيت المقدس الذى أطلق صلاح الدين سراحه بعد ان أقسم له ألا يقوم بعمل عدائى ضده مدة حياته . ولذا انضمت السفن والجيوش الانجليزية والفرنسية الى القوات الصليبية حول عكا سنة ١١٨٩ م ، وشددوا عليها الحصار حتى

سقطت في أيديهم بعد سنتين من حصارها ، وجعلوا منها قاعدة رمزية لمملكة بيت المقدس ، بعد أن ذهبت مدينة بيت المقدس نفسها إلى المسلمين .

رحل ملك فرنسا بعد سقوط عكا ، على حين بقي ريتشارد ملك إنجلترا سنة كاملة في الشام . فحارب ريتشارد صلاح الدين مرة أخرى ، وهزم جيوش المسلمين في أرسوف ، وامتلك يافا وحصنها . غير أن أعمال ملك إنجلترا لم تغير مجرى الحوادث ، لأن ما أحدثه صلاح الدين بالصلبيين تطلب مجهودا لا تستطيع حملة أوروبية واحدة أن تمحوه في بضعة سنين . والدليل على ذلك أن ملك إنجلترا عيّد إلى فكرة المفاوضات والمصالحة ، ليصل إلى تسوية مرضية تكفل بقاء الدولة الصليبية بالشام إلى جانب دولة صلاح الدين . وتخلل المفاوضات اقتراح قدمه ملك إنجلترا خلاصته أن يتزوج العادل أخو صلاح الدين من الأميرة جوانا اخت ريتشارد ، مقابل أن يكون لملك إنجلترا بيت المقدس والثغور البحرية المجاورة له . غير أن هذا الاقتراح لم يلق قبولا ، وانتهت المفاوضات الجارية بعقد صلح الرملة في ديسمبر سنة ١١٩٢ م ، انفق فيه الطرفان على أن تبقى البلاد الداخلية للمسلمين ، وأن تبقى المدن الساحلية للصلبيين ، على أن يسمح لفئات صغيرة من الصليبيين بزيارة بيت المقدس من قاعدتهم الكبرى في عكا . وتوفي صلاح الدين بدمشق بعد ذلك بقليل سنة ١١٩٣ م ، وهو في الخامسة والخمسين من عمره ، وقبره على مقربة من الجامع الأموي بالعاصمة السورية .

الصلبيون ومصر بعد صلاح الدين :

توفي صلاح الدين دون أن يضع نظاما خاصا لولاية العهد ، ونجم عن ذلك قيام النزاع بين أولاده واحفاده وأخوته وأقاربه . ثم استطاع العادل أخو صلاح الدين أن يضم إليه الشطر الأكبر من الدولة الأيوبية بسبب استمالته للجيش ، وغدا سلطانا بمفرده على مصر ومعظم أجزاء الشام سنة ١٢٠٠ م . واحتفظ العادل مدة حكمه بالعلاقات الودية مع الصليبيين ، وعمد الى ترويع التجارة مع الامارات اللاتينية بالشام ، والمدن الإيطالية ذوات التجارة الواسعة في الشرق ، مثل البندقية وجنوا وبيزا .

وأدى هذا الانقلاب في السياسة العامة الى تعديل الخطط التي وضعها صلاح الدين ، إذ فضل السلطان العادل وخلفاؤه من بعده ، مسألة الصليبيين بأى ثمن ، حفظا لمصر من الهجمات الصليبية . على أن هذه السياسة أدت الى عكس المطلوب ، إذ أدرك الصليبيون منذ أيام انتصارات صلاح الدين أن سر هذه الانتصارات يرجع الى امداد الجيوش الايوبية بالسلاح والمال من مصر ، ولذا ينبغي أن يكون الهدف الحقيقي لمجهوداتهم مصر لا الشام .

الاستيلاء على دمياط :

وشجعت المدن البحرية الإيطالية على تنفيذ هذه السياسة



الإمارات الإقينية بعد انتصارات صلاح الدين

الصليبية الجديدة . ودفعتها اطماعها التجارية على فتح مصر
لتستطيع السفن الإيطالية أن تصل الى البحر الاحمر ومراكز
التجارة الشرقية مباشرة . وانفق هذا الانقلاب في خطط
الصليبيين مع دعوة البابا انوسنت الثالث سنة ١١١٦ م لاعداد
حملة صليبية ، هي المعروفة بالخامسة في التقسيمات الصليبية .
دخلت هذه الحملة فرع النيل الشرقى وحاصرت دمياط سنة
١٢١٨ م . وأسرع السلطان العادل من شمال الشام الى مصر
لدفع هذه الحملة ، ولكنه توفي في الطريق بالقرب من دمشق .
وأعقب وفاة العادل تقسيم الدولة الايوبية مرة أخرى ، فخص
اتباءه الاجزاء الكبرى ، وتولى مصر مثل ابنه محمد الملقب بالملك
الكمال ، ووقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية ، وتنفيذ
السياسة التي اتبعها ابوه العادل . واستطاع الصليبيون الاستيلاء
على دمياط في هذه الحملة . ومع هذا اظهر الملك الكامل روح
المسألة التي اتبعها ابوه العادل اذ اقترح عليهم تسليم بيت
المقدس ، وارجاع المملكة الصليبية الى معظم مساحتها الاولى قبل
فتوح صلاح الدين ، ما عدا بضعة بلاد صغيرة ، مقابل الجلاء
عن دمياط والشواطئ المصرية . ورفض الصليبيون هذا
العرض السخى لاعتقادهم في سهولة الاستيلاء على البلاد
المصرية . ثم اخذ الصليبيون في الزحف جنوبا في الدلتا ،
والقيضان بالغ اقصاه اذ ذاك . ولم يدركوا صعوبة السير في
الأراضي المصرية وقتذاك ، لجهلهم بالجغرافيا واحوال النيل

وكثرة الترع . ثم ان المسلمين فتحوا الجسور والسدود واغرقوا الاراضى ، ولم يلبث الصليبيون ان وجدوا المياه تعزلهم عن قاعدتهم الحربية بدمياط ، فلم يستطيعوا التقهقر ولقوا هزيمة فادحة على يد المسلمين . عند ذلك رضى الصليبيون بالجللاء التام عن الاراضى المصرية سنة ١٢٢١ م بلا قيد ولا شرط .

السلطان الكامل والصليبيون بعد هزيمتهم في دمياط :

وسخر ملوك أوروبا لما حدث ، بسبب تفضيل الصليبيين مدينة دمياط على مدينة بيت المقدس ، ولا سيما فردريك الثانى امبراطور الدولة الغربية الالمانية . وراى هذا الامبراطور تحقيق الفكرة التى ثارت فى راس رتشارد ملك انجلترا وصلاح الدين قبلا ، وهى فكرة التسوية السلمية بين الصليبيين والمسلمين، ودارت بينه وبين السلطان الكامل من اجل ذلك مباحثات، وجاء فردريك الى الشام على راس حملة قليلة العدد والعدة سنة ١٢٢٩ م وعقد مع نواب السلطان معاهدة ، بدت فى زمنها من اعجب المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والصليبيين والمسيحيين عامة فى العصور الوسطى . ذلك ان شروط المعاهدة نصت على تسليم السلطان الكامل بيت المقدس للامبراطور فردريك باعتباره ملك الدولة الصليبية ، وان يسلم له كذلك بيت لحم والناصره ، وطريق الحج من بيت المقدس الى يافا وعكا ، على ان يبقى للمسلمين منطقة المسجد الاقصى ، فضلا عن بعض المدن . وتعهد الامبراطور مقابل ذلك بان يكون

حليفا للسلطان ضد جميع أعدائه ، وإن يعمل على منع الامداد الصليبية عن الامارات اللاتينية بانطاكية وطرابلس وغيرها ، وإن يخبر السلطان الكامل بكل ما يصل الى علمه من حركات صليبية في أوروبا .

واغضبت هذه المعاهدة المسلمين والمسيحيين . فقال المسلمون انها جاءت بالهوان والاستسلام ، على حين قال المسيحيون ان الامبراطور فردريك نزل الى درجة المفاوضة مع المسلمين بدلا من حربهم لتخليص الاراضى المقدسة من ايديهم .

حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر :

ثم حدث أثناء سلطنة الصالح ايوب بن الملك الكامل ان استولت طائفة من الخوارزمية المسلمين على بيت المقدس من الصليبيين سنة ١٢٤٤ م ، فانهدم بذلك الشرط الاول من شروط المعاهدة الكاملية الفردريكية . وفزعت أوروبا ، وثار اشهر ملوكها وقتذاك لويس التاسع ملك فرنسا ، المعروف في التاريخ الفرنسى بالقديس لويس . وأعد هذا الملك حملة صليبية معظمها من الفرنسيين ، وأبحر بها سنة ١٢٤٨ م الى قبرص لقضاء فصل الشتاء هناك . ثم اتجهت الحملة من قبرص الى مصر ، مما يبرهن على أن الفكرة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادى تاكدت من وجوب الاستيلاء على هذه البلاد ، لأنها غدت منبع المقاومة ضد جميع المشاريع الصليبية .

ونزلت الحملة الصليبية على مقربة من دمياط ، ثم استولت

عليها دون مقاومة في يونيو سنة ١٢٤٩ م . واسرع السلطان الصالح أيوب من دمشق الى مصر حين بلغه نبأ استيلاء الصليبيين على دمياط ، ولكنه توفي دون ان يقوم بعمل دفاعى لصلى الصليبيين . وبسبب هذه الوفاة الفجائية في ساعة الحرج والصليبيون على دمياط ؛ اخفت شجر الدر نبأ وفاة زوجها السلطان الصالح أيوب ، حتى يحضر الوريث الشرعى للبلاد ، وهو توران شاه . وتمت على يد السلطان الجديد هزيمة الصليبيين ، لأن القديس لويس وقع في نفس الفلطة التى تورطت فيها الحملة الصليبية السابقة على دمياط ، بتأجيل الزحف حتى أشهر الفيضان وامتلاء القنوات والترع بمياه النيل . ولذا تعثرت جيوش الحملة في طريقها حتى تجمع الجيش الايوبى ومعظمه من الممالك البحرية عند المنصورة الحالية ، وهناك حاقت الهزيمة بالصليبيين كما حاقت بهم مرة اخرى عند فارسكور وهم يحاولون العودة الى قاعدتهم الحربية فى دمياط . ووقع القديس لويس اسيرا فى ايدى القوات المصرية ، ولم يطلق سراحه الا سنة ١٢٥٠ م بعد ان دفع فدية كبيرة قامت زوجته بجمع نصفها بسرعة ، وتعهد هو بتأدية النصف الثانى بعد مدة قصيرة من اطلاق سراحه .

المماليك والصليبيون

الدور الاخير من أدوار الكفاح ضد الصليبيين

يرجع الفضل في انتصار المنصورة وجلاء الصليبيين عن دمياط الى البسالة الحربية التي أبداهها الجند المملوكي في القتال . وذاق المماليك طعم السلطة والحكم في المدة الواقعة بين وفاة الصالح أيوب وحضور ابنه السلطان توران شاه . ثم أحس هذا السلطان الجديد بأن أولئك المماليك وعلى رأسهم شجر الدر زوجة أبيه التي تولت شؤون الدولة سوف يستأثرون بالحكم ويخلعونهم من السلطنة . فأخذ يآتمر بهم ، كما أخذوا هم يآتمرون به ، وأقرت شجر الدر أخيرا أمراء المماليك بالتخلص من توران شاه سنة ١٢٥٠ م ، وانتهى بذلك حكم الأيوبيين وقامت السلطنة المملوكية .

السلطان بيبرس والصليبيون :

وتحولت السلطنة المملوكية الى حرب الصليبيين زمن السلطان الظاهر بيبرس ، الذي امتدت سلطنته من سنة ١٢٦٠ الى ١٢٧٧ م . وتجلت مواهب بيبرس الحربية سابقا في انتصارات المنصورة وعين جالوت . وقام ضد الصليبيين بجهود مكملة لأعمال السلطان صلاح الدين . وتحرك بيبرس أولا لحرب إمارة انطاكية الصليبية ، بعد أن جاءته الاخبار بأن هذه الإمارة تعمل على محالفة المغول الذين غدوا أصحاب دولة في فارس والعراق ، عاصمتها بغداد .

ثم انه حلا للسلطان بيبرس أن يقوم بدور صلاح الدين ، وأن يصبغ جميع أعماله ضد الصليبيين بصبغة الجهاد . وعمل بيبرس منذ أوائل عهده على محاربة بعض الدول الاوربية لابعادها من المعترك الصليبي ، كما عمل على إيقاع الفرقة بين القوى الصليبية نفسها بالشام ، فضلا عن محاربة الدولة المغولية المعروفة باسم القبيلة الذهبية ، وهى الدولة التى اعتنقت الاسلام حديثا ، وجعلت من عاصمتها سراى بركة على نهر الفلجا مركزا لبسط سلطانها على أجزاء كبيرة من روسيا الحالية .

ولذا استولى بيبرس على حصن الكرك سنة ١٢٦٣ م ، وقيسارية سنة ١٢٦٥ ، وكذلك أرسوف وصفد التابعتين للفرسان الداوية فى نفس السنة . ثم سقطت يافا فى يده سنة ١٢٦٧ م . واستطاع بيبرس أخيرا أن يستولى سنة ١٢٦٨ م على انطاكية ، وساق كثيرا من الأسرى الصليبيين الى مصر . واختتم بيبرس هذه الأعمال الحربية الكبيرة بالاستيلاء سنة ١٢٧١ م على حصن الأكراد التابع للاستتارية ، ومهد للاستيلاء على بلدتى انطرسوس والمرقب ، أملا فى الاستيلاء نهائيا على طرابلس ، وهى المدينة الكبيرة التى بقيت حتى وقتذاك فى أيدي الصليبيين . وفى أثناء هذه الأعمال الحربية الكثيرة ، استطاع بيبرس أن يصد الجيوش المغولية الزاحفة من ايلخانية فارس والعراق عن اطراف الدولة المملوكية عند نهر الفرات . ويرجع السر فى هذه الانتصارات الى قيام بيبرس بتنظيم الجيوش المملوكية والادارة المصرية .

السلطان قلاوون والصليبيون :

وقام السلطان قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) بعد بيبرس بمواصلة الحرب ضد الصليبيين ، وسار على طريقة سلفه من مخالفة بعض الدول الأوروبية ، وإيقاع الفرقة بين الصليبيين ، واثبت قلاوون في ساحة الحرب أنه جدير بلقب « السلطان المنصور » ، الذي اقترن باسمه دائما ، فاستولى على حصن المرقب التابع للاستتارية سنة ١٢٨٥ م . ثم زحف نحو مدينة طرابلس ودمرها تدميرا موحشا سنة ١٢٨٩ م ، وشهد المؤرخ أبو الفدا هذه الواقعة ، وسجل تفصيلاتها في كتابه الذي عنوانه « المختصر في تاريخ البشر » .

الاستيلاء على عكا :

لم يبق من بلاد الصليبيين الهامة بالشام بعد ذلك غير عكا ، وبدأ السلطان قلاوون يستعد للاستيلاء عليها لولا وفاته ، وبدأ ترك لابنه السلطان خليل (١٢٩٠ - ١٢٩٣ م) جميع ما اعد لذلك من قوة وجند . وحاصر خليل عكا حصارا استمر أكثر من شهر ، وهدم معاقلها بمجانيقه ، ثم استولى عليها سنة ١٢٩١ م وهرب كثير من الصليبيين الى جزيرة قبرص ، التي أصبحت منذئذ مجمع بقايا الصليبيين بالشرق .

وادى سقوط عكا الى تسليم المدن الصليبية الباقية في الشام ومنها صور وبيروت . وبدأ انسداد الستار على أهم فصول

الصراع بين الصليبيين والمسلمين بالشرق ، ما عدا جزيرة قبرص ، التى غدت مركز المملكة الصليبية وملوكها من اسرة لوزجنان ، وجزيرة رودس التى تركزت فيها بقية الفرسان الاسبتارية ، ومملكة أرمينيا الصغرى فى قليقيا بأقصى الطرف الشرقى من الساحل الشامى .

أثر الحروب الصليبية فى الحضارة الاوربية :

لم تقتصر الحروب الصليبية على المعارك الدامية ، والعداوات المتصلة ، بل شهد رجالها من المسلمين والمسيحيين اتصالات حضارية بعيدة المدى فى التجارة والصناعة والثقافة . ومن المعروف أن الشرق الاسلامى سبق أوروبا المسيحية فى هذه النواحي جميعا فى تلك العصور . فأخذت أوروبا تتطور بفضل ما جاءت به الحروب الصليبية من الشرق الاسلامى . مثال ذلك أن معرفة الصليبيين بزراعات الشرق أدت الى انتشار كثير من النباتات والحيوانات الشرقية فى أوروبا ، ومنها السمسم والخروب والذرة والارز والليمون والشمش والثوم . وقامت فى أوروبا صناعات جديدة على نسق السلع الشرقية ، مثل صناعة العقاقير والبسط والاقمشة . وشاعت فى ملابس الاوربيين رسوم اقمشة الموصل ودمشق والفسطاط ودمياط وديق ، ولا تزال أسماء هذه الاقمشة مستعملة فى اللغات الاوربية . وانتشرت فى أوروبا كذلك أدوات الزينة الشرقية

من الدهون والاشنان والمساحيق والملابس الخاصة بالسيدات ، ولا تزال الأسماء العربية لادوات الزينة وغيرها مبعثرة في اللغات الأوروبية الحديثة .

وعرفت أوربا علوم الشرق الاسلامى وفلسفته عندما استقر الصليبيون في ممالكهم بالشام ، فاقبل رجال العلم الاوريون على حضارة مدن الشام ومصر ، ونقل الكتب المفيدة منها الى بلادهم وترجمت الى اللاتينية منذ ايام الحروب الصليبية كثير من المؤلفات العربية في الفلك والهندسة والجبر ، وبعض مؤلفات أرسطو التى سبق للعرب أن ترجموها الى العربية .

ثم ان وفاة كثير من زعماء الصليبيين بالشرق أثناء الحملات الصليبية ، أدى بدوره الى ضعف البيوت الاقطاعية الأوروبية التى جاءوا منها ، وأفسح المجال لتكوين الطبقة الوسطى المشغلة بالتجارة ، وهى الطبقة التى اعتمد عليها الملوك بمختلف الدول الأوروبية لتحل في وظائف الدولة محل أبناء البيوت الاقطاعية ، وساعد ذلك كله على ظهور الدولة الحديثة في أوروبا .

أثر الحروب الصليبية في الشرق الاسلامى :

وتأثر المسلمون بالحروب الصليبية ، اذ أحسوا لأول مرة بالخطر الأوروبي المشترك ، وعملوا على تكوين جبهة اسلامية متحدة مثلما حدث أيام صلاح الدين . وغذى هذا الاحساس طائفة

من الشعراء والفقهاء والعلماء ، فظهرت القصائد والخطب
والمواعظ التى تحض على القتال فى سبيل الوطن الاسلامى .
وظهرت كذلك الكتب التى تناولت الجهاد والفروسية والسير
التاريخية التى تشجع المسلمين على التفانى فى الدفاع عن البلاد
والدين .

على أن المسلمين تأثروا ببعض المظاهر المادية ، فعمروا
استخدام القلاع فى الدفاع عن المدن ، وتحصين المواقع الحربية
ذات المراكز الاستراتيجية . وانتقلت بعض المصطلحات الخاصة
والنظام الاقطاعى الاوروبى الى الاقطاع الاسلامى . ودخلت بعض
المفردات اللغوية الاوروبية الى اللغة العربية العامية مثل كلمة
(برنس) أى أمير ، (امبرور) أى امبراطور . واخيرا تأثرت
البلاد الاسلامية بالمظاهر التى تصطبغ بالحروب عادة من حيث
التطورات التى تصيب النظم الاجتماعية ، اذ كثر الاشخاص
الذين أصابوا حظا وافرا من المال بالتجارة بالسلع التى تروج
ضمن الحروب ، وغدوا طبقة اجتماعية جديدة اشبه بما يعرف
اليوم باسم أثرياء الحرب .

اغارات المغول

موطن المغول :

عاش المغول في الهضبة الآسيوية الشاسعة ، التى تمتد من اطراف الصين الى اواسط آسيا . وتشمل جغرافيتها عددا من خطوط الطول والعرض ، ولذا تختلف فيها البيئة وانواع المناخ والتضاريس ، وتغلب عليها الصفة السهوبية ذات المراعى المتغيرة . ومن ثم احترف المغول الرعى ، والانتقال فى سرعة هائلة على ظهور الخيل ، حتى تبدو حركاتهم وراء الرزق زحفا حريبا سريعا . ولم تحترم قبائل المغول الاستقرار أو تبنى المدن الكبيرة وغير ذلك من مظاهر الحضارة المستقرة ، بل أخذت هذه الجموع تضرب فى الأرض بين أطراف الصين ومنشوريا الى بحيرة بيكال القريبة من تركستان الاسلامية .

جنكيزخان :

ثم استطاع أحد زعماء المغول واسمه جنكيزخان ، ومعناه حاكم الحكام ، أن يجعل من الكتل المغولية وقبائلها دولة مغولية واحدة رهيبة ، لها عاصمة فى مدينة قره قورم . ووضع جنكيزخان دستورا عاما لهذه الدولة واسمه (اليساق) . وفى الاجتماع المغولى السنوى العام ، وهو المعروف فى اللغة المغولية بلفظ (قورتيلاي) أعلن جنكيزخان هذا الدستور الذى نص فيه على ضرورة الخضوع التام لإدارته ، والانضواء الى رأيه ،

والذهاب معه في جميع حروبه ، والعقوبة الشديدة لكل مخالفة
قردية أو قبلية . واستطاع جنكيزخان أن ينظم بذلك اداة حربية
ضخمة ، أساسها الطاعة العمياء ، والاحترام لقرارات الخان
الاعظم .

فتوحات المغول شرقا وغربا :

فتح الصين :

أخذ جنكيزخان بعد تتويجه امبراطورا على المغول سنة
١٢٠٦ م ، يعمل على فتح الاقاليم المجاورة له من امبراطورية
الصين ، وحكم الصين وقتذاك ملوك أسرة (كين) وعاصمتها
مدينة بكين . وفي سنة ١٢١١ م ، استهل جنكيزخان حروبه ،
فظن امبراطور الصين ان باستطاعته ايقاف السيل المغولي الداهم
بترضية شخصية ، فأرسل الى جنكيزخان زوجة صينية ،
وهدايا نفيسة من تحف الصين . غير ان حركات الجيوش
المغولية ما لبثت أن اضطرت امبراطور الصين الى الرحيل من
عاصمته . وترتب على ذلك اضطراب داخلي ، استغله جنكيزخان
في الاستيلاء على معظم أجزاء الامبراطورية الصينية المتداعية
سنة ١٢١٥ م . وتابع جنكيزخان حروبه المخربة حتى بلغت
جيوشه نهو هو انجهو . واكتفى جنكيزخان بهذا القدر من الفتوحات
في الصين ، وعاد الى عاصمته قره قورم ، بعد أن خلف في
الصين نائبا عنه .

هجوم المغول على الدولة الإسلامية :

تحول جنكيزخان بعد ذلك الى اخضاع القبائل المغولية التي فرت من قبضته ابان عملية الاخضاع التي قام بها سابقا لتوحيد دولة المغول ، وتعقب هذه القبائل الى بلاد الدولة الخوارزمية في تركستان ، والى الاطراف الشرقية من ايران ، وحكم الدولة الخوارزمية وقتذاك السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه

واتبع جنكيزخان وسائل وحشية مغولية في حروبه في بلاد خوارزم . فتولى بنفسه تدمير بلاد ماوراء النهر ، على حين انفذ قرقا اخرى من جيشه للاستيلاء على اقاليم الخوارزميين في خراسان والعراق الفارسي . ولذا لقيت معظم المدن الاسلامية الزاهرة التي وقعت في طريق المغول تخريبا تقشعر له الابدان وتحولت قصورها وشوارعها وفنادقها الى مراعى مترامية لخيول جنكيزخان والقبائل المغولية . وجرى سيل من الدماء في هذا التدمير ، وسرى الرعب في القريب والبعيد من الناس . فلم يبق من اهالى هرات البالغ عددهم ١٠٠.٠٠٠ غير ٤.٠٠٠ نسمة ، بعد سبعة ايام حسوما من القتل .

ولقيت بخارى من التدمير مثلما لقي غيرها من المراكز الاسلامية في بلاد ما وراء النهر ، اذ اتخذ المغول من مساجدها اسطبلات لخيولهم ، ووصف جنكيزخان نفسه بعد استيلائه على هذه المدينة بأنه عذاب من الله ارسله الى الناس عقابا لهم على خطاياهم وترددت في مهاوى المصير سمرقند وبلخ وغيرهما من امهات مدن

أسيا الوسطى . وفر علاء الدين خوارزم شاه الى إحدى حزر
بختر قزوین ، وتوفي سنة ١٢٢٠ م كمدا ، لما حل ببلاد
المسلمين من كوارث فادحة .

وعاد جنكيزخان الى بلاده بعد ما انزل ببلاد المسلمين وغير
المسلمين انواع الدمار ، من تركستان وخراسان وأفغانستان في
الجنوب ، وأذربيجان وجورجيا وروسيا في الشمال . وروى
المؤرخ ابن الأثير حادثة دالة على مبلغ ما نزل بالناس من الرعب
والانهيار أمام الجيوش المغولية ، وهي أن المغولي يدخل القرية
من القرى وبها جمع كثير من الناس ، فلا يزال يقتلهم واحدا
بعد واحد ، لا يتجاسر احد أن يمد يده الى ذلك الفارس . « وأن
انسانا منهم أخذ رجلا ، ولم يكن مع التتري ما يقتله به ، فقال
له ضع راسك على الأرض ولا تبرح . فوضع راسه على الأرض
ومضى التتري فاحضر سيفا وقتله به » . ومات جنكيزخان
سنة ١٢٢٧ م ، وهو في سن الرابعة والستين .

سقوط بغداد :

ونزحف المغول نحو إيران بعد اجتياحهم خوارزم ، وذلك
في عهدمانجوخان ، حفيدجنكيزخان ، وهو الذي صار الخان العظيم
(الخاقان) للمغول ، سنة ١٢٥١ م . وجهز مانجوخان لهذه
العملية المغولية الثانية ضد المسلمين أخاه هولاكو ، وذلك لاتمام
فتح إيران والاستيلاء على بغداد . فاوغل هولاكو في إيران ،

حيث قضى أولا على قلاع طائفة الاسماعيليه ومدنهم ، مثل قلعة الموت . ولم يكن بايران سوى مقاومة اولئك الاسماعيليه ، وبدا تفرغ هولاء للزحف على بغداد .

وارسل هولاء سنة ١٢٥٧ م الى الخليفة العباسي المستعصم يدعوهم الى التسليم قبل فوات الاوان ، كما ارسل الى وزيره ابن العلقمي ليجعل منه طابورا خامسا . واعقب هولاء تهديده بحصار بغداد ، واعتمد على ما احده ابن العلقمي من اهمال الاستعداد اللازم ، ونشر الفزع واشاعة القول بأن المغول قوم لا يهزمون ، وأن المصلحة في الخضوع لهم . وظلت مجانيق المغول تقذف قلاع بغداد وحصونها مدة أربعين يوما ، حتى اجذبت فجوة في أسوارها . وعندئذ أذن الخليفة ، وخرج لمقابلة هولاء ومعه أقاربه ، وسلمه مدينة بغداد .

واضمر هولاء الغدر للخليفة ومدينته ، فأمر باخراج الجند الخلفى خارج بغداد بحجة احصاء عددهم ، ثم أنزل بهم القتل جميعا . وفي صباح اليوم التالى أباح هولاء بغداد لجنوده ، فانتشر المغول في أحيائها يقتلون الرجال ، ويأسرون الاطفال ، ويستحيون النساء وظلت هذه الوحشية أربعة أيام بلياليها ، حتى امتلأت خيام المغول بالاسلاب والأنهاب والمغانم من الذهب والفضة والنساء ، فضلا عن رؤوس القتلى التى عمد الجند الى اللهب بها على شواطئ دجلة . وأخيرا أمر هولاء بقتل الخليفة المستعصم ،

وزالت الخلافة العباسية بذلك ، لكن الى حين ، ودخلت العراق
الاسلامية في التبعية المغول سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) .

جهود مصر في صد المغول - وقعة عين جالوت :

حزم هولوكو امره بعد ذلك على السير نحو الشام ، فزحف
شمالا ، وأعمل السيف في سكان الموصل وحران الرها . والقصة
التي رواها ابن الاثير عن مبلغ الفرع والرعب الذي استولى على
الناس ، خاصة بهولوكو وجنوده قرب الموصل . ثم ارسل
هولوكو الى ملوك الايوبيين بالشام يتوعدهم ويهددهم بالفناء التام ،
اذا هم لم يمهّدوا لرحفه ، بالاسراع الى طاعته . وانتشر الذعر
بالبلاد الشامية والمصرية كذلك . وجاءه هولوكو فاستولى على
حلب ثم دمشق وغيرهما من البلاد الشامية الواقعة بينهما وبعث
الى السلطان قطز سفارة ، تحمل الوعيد والتهديد ، وتطلب الطاعة
المطلقة . وأجاب قطز ، الخوارزمي الاصل ، اجابة جريئة غير منتظرة ،
لذ قتل السفراء المغول ، انتقاما يائسا لما احدثه جنكيز خان بالدولة
الخوارزمية .

غير ان هولوكو لم يستطع ان يظل بالشام لاتمام ما حزم امره عليه ،
اذ توفي أخوه الخاقان مانجوخان ، وتطلب ذلك رحيله من الشام
للاشتراك في اقامة الخاقان الجديد . وتولى أبغا قيادة السيوش
المغولية المحتلة بلاد الشام . اما السلطان قطز فلم يهمل استعداداته
الحربية ، بل ارسل طلائعه من القاهرة بقيادة الأمير بيبرس

البندقدارى على أن يزحف هو بالجيش الرئيسى ، واستطاع
بيبرس أن يصد طلائع مغولية قرب غزة ، معا
يدل على أن الخطر المغولى أضحى قريبا جدا من مصر .
ثم لحق قطز بالطلائع المملوكية ، وأخذ فى مفاوضة الصليبيين
ليسمحوا له باختراق اراضيهم الساحلية ، حتى يستطيع بذلك ان
يبلغت المغول من ناحية غير منتظرة . ونجحت المفاوضات برغم
تفضيل بعض الصليبيين محالفة المغول ضد سلطنة المماليك ،
وبذا استطاع قطز أن يصل الى مدينة بيسان فى سهولة وسرعة ،
وأن يأخذ المغول عند عين جالوت على حين غرة سنة ١٢٦٠ م ،
وانتصر قطز انتصارا كبيرا على أبغا بعد أن كادت الكثرة
المغولية تغلب حيلة المماليك . وفى أثناء هذه الواقعة الدامية سقط
أبغا قتيلا ، وتقهقر المغول الى دمشق وحلب فتعقبتهم الفرق
المملوكية حتى أخرجتهم من الاراضى الشامية .

وانتصار المماليك على المغول فى عين جالوت وقعة فاصلة فى
التاريخ كله ، سواء من ناحية تاريخ مصر فى العصور الوسطى أو
تاريخ العصور الوسطى الأوروبية . إذ جاء الانتصار بعد أن عجزت
الدولة الخوارزمية والدولة العباسية عن مقاومة المغول أو مدافعتهم ،
وبعد أن انهارت القوى المسيحية أمام الزحف المغولى على اجزاء
من روسيا وبولندا والمجر الحالية . ثم ان وقعة عين جالوت اول
صدمة فى الشرق لجيوش المغول وخاناتهم الذين ظن المعاصرون
أنهم قوم لا يهزمون . فجاءت هذه الصدمة بمثابة المعجزة الدالة

على أنه في الامكان الهزيمة بالمغول . ومما جعل وقعة عين جالوت من الواقع الحاسمة في التاريخ الاوروبى ان خطر المغول لم يكن مجرد خطر على الشرق فحسب ، وانما هدد المغول أوروبا، واستولت جيوشهم على « كيف » وغيرها من البلاد الاوروبية . ومما لاشك فيه ان المغول لو تقدموا في اوربا ، واستقروا فيها بمدينتهم السهوية القلقة لكان تأثيرهم سيئا بوجه عام . ولذا حلت وقعة عين جالوت العقدة التى سادت الناس جميعا عن خطورة المغول ، وفتحت عيونهم في كل مكان عن امكان هزيمة الجيوش المغولية مهما كانت أعدادها . وكسبت سلطنة المفايك مركز الصدارة بين سلاطين المسلمين ، كما استقامت لمصر زعامة جديدة في العالم الاسلامى .

الدول المغولية :

امتد سلطان المغول على عهد الخاقان قوبلاى خان (١٢٥٩ - ١٢٩٥ م) ، اخو هولاكو ، من النهر الاصفر بالصين الى نهر دانيوب بأوروبا ، وبلغت قوتهم أوجها في الشرق والغرب . فحكم المغول من مدينة بكين شمال الصين وكوريا ومنغوليا ومنشوريا والتبت، وحكم فرع منهم تركستان وافغانستان ، واستقر الفرع المغولى المعروف بالقبيلة الذهبية في القفجاق شمالى بحر قزوين ، وبسط نفوذه على جزء كبير من روسيا الحالية . أما الفرع المغولى الذى هبط به هولاكو وجنوده على ايران والعراق ، فاستقر بها ، الى

جانب أرمينيا وجزء من آسيا الصغرى ، بعد أن جعل عاصمته
بغداد .

وبعد وفاة قوبيلاي خان، انتشر الخلاف بين خانات المغول حول
الزعامة والسلطان ، فتحولت قروغ امبراطورية المغول الى أربع
دول مستقلة بعضها عن بعض ، وهى الصين ، وتركستان ،
وروسيا ، وايران . وانفرد مغول روسيا بالسبق الى اعتناق
الاسلام على المذهب السنى ثم انتشر الاسلام بعد ذلك بين مغول
ايران على المذهب الشيعى .

واتخذ مغول الصين من مدينة بكين عاصمة لهم
سنة ١٢٦٤ م ، وهى المعروفة باسم ييننج فى العصر الحاضر .
ووفد الرحالة الاوروبيون على البلاط المغولى فى الصين ، وترك
احدهم وهو ماركوبولو ، من اهل البندقية ، وصفا طويلا لهذا
البلاط ، اذ دخل خدمة خاقان الصين وتنقل فى انحاء البلاد ولمس
بنفسه قوة هذه الدولة .

مغول تركستان :

اما مغول تركستان فاستقلوا باواسط آسيا ،
واشتهر خانات هذه الدولة المغولية التركستانية بعدائهم
للالاسلام ، وأولهم جغتاي ثانى أبناء جنكيز خان ، وهو الذى
فرض قوانين صارمة تحرم على المسلمين فى دولته أن يذبحوا
الحيوانات للطعام ، أو أن يقيموا فرائض الوضوء وشعائر الصلاة .

ثم اخذ الاسلام ينتشر في هذه الدولة المغولية بآسيا الوسطى تدريجا على يد الخانات الذين أسلموا ، مثل براق خان وطفلق خان في القرن الرابع عشر الميلادى .

ايلخانية فارس :

وسارت دولة المغول في فارس ، التى أسسها هولاكو بعد عودته من الشام سنة ١٢٥٩م على نهج دولة مغول تركستان . فظل هولاكو وبعض خلفائه أعداء للمسلمين ، ولم تغب عن ذاكرتهم الهزيمة التى أنزلها بهم المماليك في عين جالوت . ولذلك دأبت ايلخانية فارس المغولية على مخالفة القوى الصليبية بالشام ضد الدولة المملوكية بمصر ، وراسل اباقا خان ابن هولاكو القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، وأرسل اليه سفارة مغولية حضرت أحد المجامع المسيحية في مدينة ليون بفرنسا سنة ١٢٧٤م . لكن الخان تكودار اعتنق الاسلام عندما تولى عرش ايلخانية فارس سنة ١٢٨٢م ، وصار اسمه احمد تكودار . وبعث الخان الجديد نبيا اسلامه الى السلطان قلاوون في مصر ، وأصبح الاسلام الدين الرسمى ، على مذهب الشيعة : لهذه الدولة المغولية التى ظلت متماسكة حتى عصر الايلخان ابو سعيد .

المغول القفجاق :

يرجع استقرار هذا الفرع المغولى المعروف باسم القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق شمال بحر قزوين الى باطو حفيد جنكيزخان . ثم اعتنق بركة خان الاسلام سنة

١٢٥٦ م ، وهو حفيد آخر من أحفاد جنكيز خان ، وحالف
الظاهر بيبرس سلطان مصر ضد هولاكو مؤسس ايلخانيّة
المغول في فارس . واتخذ مغول القفجاق مدينة سراى عاصمة
لهم ، وهى على نهر الفلجا ، وموقعها قرب ستالنجراد الحالية .
وبدا أصبح الاسلام أخيرا دين فروع مغولية كثيرة بعد ان أنزلت
جيوشهم بالدولة الاسلامية أشد الوان الدمار والخراب .

الفصل الخامس

الدولة العثمانية

الأتراك والاسلام

الترك ومواطنهم الاولى :

يرجع اتصال الأتراك بالدولة الإسلامية الى أيام الخلافة الأموية ، حين دخل القائد الأموي ، قتيبة بن مسلم بلاد ماوراء نهر جيحون سنة ٧٠٥ م . وفي تلك البلاد قامت منذ القرن السادس الميلادي دويلات قبلية ، أسسها الأتراك ، الذين هاجروا من مواطنهم الأصلية بأواسط آسيا . فاستولى قتيبة على طخارستان الجنوبية وعاصمتها بلخ ، وفتح بخارى في إقليم الصغد ، وماجاورها من البلاد فيما بين سنتي ٧٠٦ ، ٧٠٩ م ، واخضع سمرقند وخوارزم سنة . ثم عبر قتيبة نهر سيحون ، وفتح فرغانة ، أعظم بلاد الترك ، الواقعة شرقي هذا النهر . وعاد قتيبة بعد ذلك الى مرو عاصمة خراسان ، التي غدت منذئذ عاصمة هذه الاقاليم التركية الداخلة في الدولة الإسلامية .

واخذ الاسلام ينتشر في بطن بين الأتراك في بلاد ما وراء النهر ، ويحل تدريجيا محل ديانتهم الشامانية الوثنية المستندة الى مظاهر الطبيعة وعبادة الاصنام . ثم حدث في عهد الخليفة الأموي

هشام بن عبد الملك أن تولى نصر بن سيار ولاية بلاد ما وراء النهر . وأمن هذا الحاكم الأموي في نشر الاسلام بين الأتراك ، واتسعت ولايته بذلك في أقصى أواسط آسيا حتى بلغت إقليم الشاس (تاشقند الحالية) الى الشمال الشرقي من سمرقند . وبذا تقدم الاسلام خطوة أخرى بين الأتراك .

مجىء الأتراك الى بلاد الدولة الإسلامية :

ولما صار المعتصم العباسي خليفة سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م ، بدأ مجىء الأتراك في كثرة من بلادهم الأصلية الى العراق ، لان ام هذا الخليفة تركية . ومال الخليفة المعتصم الى الأتراك ، وعمد الى تكوين حرسه الخاص منهم ، لاجبائه بجمال منظرهم وشجاعتهم ، ودأب على شراء المماليك الأتراك من سمرقند وفرغانة ، وجلبهم الى بغداد . وفي العاصمة تلقن أولئك المماليك الأتراك اللغة العربية وآدابها . ودخل الفرد منهم بعد اتمام تعليمه الديني في حرس الخليفة الخاص . ثم صار هذا الحرس التركي منبعاً للاضطراب في بغداد ، وساءت علاقات أفرادها بالبغداديين من العرب والفرس ، فاضطر الخليفة الى الانتقال بحرسه وبحكومته كذلك الى سامرا .

وادی هذا التطور في أحوال الأتراك في الخلافة العباسية الى انتشار الاسلام بينهم في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، اذ اعتنق الدين الاسلامي شيوخ القبائل التركية ، وتبعهم سائر

أفراد القبائل بأعدادهم الكبيرة . وحمل خانات القبائل وشيوخها تعاليم دينهم الجديد الى مضارب الأتراك الوثنيين الذين لم يصلهم الإسلام . ففي سنة ٣٤٩هـ (٩٦٠ م) اسلم كثير من شيوخ القبائل التركية على يد والى كشغر ، وبلغ عدد الأتراك الذين أسلموا في تلك السنة نحو مائتى ألف خيمة ، اى مائتى ألف أسرة . ثم صار الأتراك قوة هائلة في بغداد ، ففدت الخلافة العباسية ولاياتها في أيديهم ، حتى حل محلهم البويهيون ، الى أن عادوا الى قوتهم الاولى حين نجح السلاجقة الأتراك في الاستيلاء على بغداد سنة ١٠٥٥م بموافقة الخليفة القائم بأمر الله العباسي .

واجتلب السلاجقة كثيرا من القبائل التركية من بلاد ماوراء النهر نحو العراق وغيرها من البلاد الاسلامية في غرب آسيا .

تأسيس الامارة العثمانية

استقرار الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى :

وفي اثناء الحروب بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى قامت مجموعات قبلية تركية مختلفة بغزوات مستقلة خدمة للدين ، وطلبا للاستقرار في جزء من اجزاء الدولة البيزنطية . ومن هذه المجموعات قبائل صاروخان وحميدو وارطغرل ، وأيدين وقرمان . ثم استقلت دولة السلاجقة بالروم من الدولة السلجوقية الكبرى بعد وفاة السلطان ملكشاه

سنة ١٠٩٢ م ، فعملت هذه المجموعات الضاربة في مختلف الاطراف البيزنطية تحت لوائها . ثم دهمت جيوش اليلخانية المغولية الفارسية هذه الدولة السلجوقية الفرعية بآسيا الصغرى ، وجعلتها بذلك تابعة للمغول . غير أن القبائل التركية المتقدمة لم تخضع لهذه التبعية ، بل استقل زعمائها بما تحت أيديهم من الاقاليم ، وبدا تفككت هذه الدولة السلجوقية واستحالت أجزاء ، واستقر بجزء منها أرطغرل ، وهو أبو عثمان مؤسس الإمارة العثمانية . وهذا الجزء هو الاقليم المعروف باسم سكود بالجنوب الغربى من آسيا الصغرى قرب اقليم بيثينيا التابع للبيزنطيين ، وقال ارطغرل بك اقليم اسكود سابقا مكافاة له على خدماته للسلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد الثانى ضد البيزنطيين ، كما نال اقليم اسكى شهر مكافاة له على دفاعه ضد هجمات المغول المتكررة .

امارة سلطمونى :

واطلق السلطان السلجوقى على البلاد التى استقر بها أرطغرل اسم امارة سلطمونى أو مقدمة السلطان . وظل ارطغرل حاكما لهذا الاقليم حتى توفى سنة ١٢٨٨ م ، ودفن بالقرب من سكود.

الإمارة العثمانية :

وخلف أرطغرل سنة ١٢٨٨ م ابنه عثمان ، الذى بلغت سنه وقتذاك أربعة وعشرين عاما ، وهو الذى انتسبت اليه الدولة العثمانية ، لانه اول حاكم مستقل لامارة سلطمونى ، ولانه

كذلك صاحب الفضل في توسيع مساحتها حتى شملت الاقليم المعروف باسم فريجيا في التاريخ القديم . ثم توفى السلطان السلجوقي علاء الدين كيقياد الثالث سنة ١٣٠٧ م ، فأعلن عثمان استقلاله التام بامارته ، وبدأ يوطد سلطانه في الجهات المجاورة لها . واستهل عثمان حركاته التوسعية بالاغارة على مقاطعة بيثينيا البيزنطية ، اذ اغرته اطرافها الخالية من وسائل الدفاع بالتوغل في هذه المقاطعة حتى استولى على جزء كبير منها . وتطلع عثمان بعد ذلك الى الاستيلاء على مدن البيزنطيين الهامة بآسيا الصغرى ، فأنفذ الجيوش بقيادة ابنه أورخان لذلك الغرض ، وتوفى عثمان سنة ١٣٢٦ م ، في الوقت الذي بلغت فيه قوات ابنه أورخان مدينة بورصة . وسقطت هذه المدينة في أيدي أورخان ، ودفن بها عثمان . ومن ثم غدت بورصة ، كما غدت سكود من قبل مزارا للعثمانيين ، وأصبحت بورصة العاصمة الجديدة للمملكة التي آلت الى أورخان .

اتساع الامارة العثمانية وفتوحها في أوروبا

فتوح أورخان وتنظيم الامارة العثمانية :

اتم أورخان مابداه ابوه من الاستيلاء على بيثينيا، وطرده البيزنطيين منها . فاستولى على نيقية (اسنك الحالية) سنة ١٣٢٩ م ، ونيقوميديا (أنزمت الحالية) سنة ١٣٣٧ م ، بعد حرب لينة ضد جيوش الامبراطورية البيزنطية ، التي نخرت في شجاعتها السنون .

ويستطيع الزائر لحدى هاتين المدينتين أن يرى القسطنطينية ، عاصمة البيزنطيين رأى العين . وأدرك أورخان أن باستطاعته أن يمد سلطانه على أرض الدولة البيزنطية في أوروبا بالتدخل في شئون هذه الامبراطورية بمختلف الوسائل ، غير أن أورخان لم يكن قائدا عسكريا فحسب ، بل رجلا اداريا من الطراز الاول . فرأى أن يصرف السنوات التى أعقبت استيلاءه على نيقية ونيقوميديا في تنظيم دولته الاسيوية . وقضى في تنظيمها عشرين سنة ، هى أعظم مرحلة في تاريخ الدولة العثمانية .

وانصرفت همه أورخان الى بناء المساجد والمدارس ، والمشافي للمرضى ، والفنادق للتجار . وضرب النقود باسمه ، على أحد وجهيها شهادة أن لا اله الا الله ، وعلى وجهها الآخر اسم أورخان ، واختار أورخان كذلك الزى القومى للرأس ، وهى طاقية من جوخ ابيض . على أن أهم أعمال أورخان تنظيم الجيش ، وانشاء الفياق العسكرية ، التى جعلت الاتراك العثمانيين مصدر الرعب في العالم لعدة قرون ، وهذه الفياق هى فياق الايكنجية ، أى فرق المناوشة الخفيفة ، وفياق الفرسان الاقطاعيين ، وفياق الحرس السلطانى ، وفياق المشاة ذات الشهرة الهائلة ، وهى الينى شرية ، التى دأبت الكتب على تسميتها باسم الانكشارية .

الينى شرية :

ومعنى الينى شرية الجنود الجدد ، وهم جميعا أطفال مسيحيون رجمعهم العثمانيون جزية من مختلف البلاد المسيحية التى خضعت

لحكمهم ، ثم علموهم الاسلام تعليما كفيلا بنسيانهم المسيحية .
 وخصص العثمانيون بعض الينى شرية لوظائف الغلمان بالقصر
 السلطاني ، على حين عينت الدولة بعضا اخر منهم لوظائف الحكم
 والادارة المدنية . اما الجزء الاكبر من الينى شرية فاضحى فيالق
 المشاة ، التي اشتهرت بالاستماتة في القتال . ومرجع ذلك الى
 صرامة النظام الذي نشأ فيه الفرد منهم . ذلك أن الجندي من
 الينى شرية تعلم أن ينسى أباه وأمه وأخوته وأقاربه ، وأن يعيش
 دون امل في زوج وبنات وبنين ، فالتكنة العسكرية مأواه ، والحرب
 مهنته ، والقرآن عقيدته ، وما عليه الا أن يمضى في قتال أعداء
 السلطان بروح ملؤها حماسة متأججة .

ويرجع الاقتراح بتكوين الينى شرية على هذا النحو الى هاييل
 الاسود ، وزير أورخان . أما تسميتهم فمرجعها الى الحاج بكتاش
 مؤسس طائفة الدراويش البكتاشية التي ظلت قائمة في الدولة
 العثمانية حتى أوائل القرن العشرين . ذلك أن أورخان سار
 بالدفة الاولى من جنوده الى هذا الدراويش ، وطلب منه أن يباركهم
 ويطلق عليهم اسما ، فغطى بكتاش رأس فرد من الجنود بكفه وقال
 ليكن اسم الجندي ينى شرية — الجندي الجدد — ، وليكن طالهم في
 الحرب ميمونا ، ونهاية قتالهم النصر على الأعداء .

انتقال الأتراك العثمانيين الى أوروبا :

ورحب أورخان بالخلاف الناشب في القسطنطينية بين المتنافسين
 على العرش البيزنطي ، وعبرت جنود تركية عثمانية وغير عثمانية

اقليم تراقيا ، على الشاطئ الاوربي ، بناء على طلب هذا اوداك من المتنافسين لمساعدته ضد غريمه . و اخيرا بعث اورخان سنة ١٣٥٦ م ابنه الاكبر واسمه سليمان للاستيلاء على تراقيا . وعبر سليمان مضيق الدردنيل في ليلة مقمرة من ليالى الخريف ، ونزل شبه جزيرة جاليبولي ، و اقام هناك اول جالية تركية عثمانية عدتها ثلاثون الفا من العثمانيين . ثم تبعه اخوه مراد بجيوش عثمانية استولت على بضعة مدن بيزنطية ، ومنها ادرنة سنة ١٣٥٧ م . وذات يوم ، بعد ذلك بقليل ، خرج سليمان ليلهو بصقورة في مرج قريب من بلدة بولير ، فكبا به فرسه كبوة اودته صريعا ، ودفن حيث لقي حتفه ، ويعتبر سليمان المؤسس الثاني للامبراطورية العثمانية ، فهو واضع الحجر الاساسي في بناء امبراطورية العثمانيين بأوروبا ، والامير العثماني الاول الذي ضمت وفاته ارض اوروبية ١٠

وقعة قوصوه الاولى :

والت السلطنة بسبب وفاة سليمان الى اخيه مراد الاول بعد وفاة ابيهما اورخان سنة ١٣٥٩ م . ولم تلبث أوروبا أن أدركت ضخامة القوة العثمانية التي تأسست على عهد اورخان ، لأن مراد جعل غايته تكميل فتوحه في أوروبا ، فتدخل في النزاع المستمر بين الإباطرة البيزنطيين ، واستولى على سالونيك و غاليبولي ، ودخل ادرنة للمرة الثانية . ودل مراد على بصيرة وجرأة ، كابيه اورخان ، فاخذ في تدعيم فتوحه الجديدة

وتنظيمها ، وجعل من ادرنة البيزنطية عاصمة عثمانية اسلامية .
وبدا نقل محور القوة العثمانية الى أوروبا .

وبينما يقضى مراد وقته في تدعيم ممتلكاته ، عقد لازارس ملك الدولة الصربية في الشمال الغربى من البلقان حلفا من الدول المسيحية المجاورة سنة ١٣٨٧ م لتحطيم العثمانيين .
وامتلات معسكرات هذا الحلف بجند من الصربيين والبلغاريين والبولنديين والمجريين . ولكن جيشا مرتجلا ، يرطن كل جزء من أجزائه بلسان خاص ، لن يستطيع مهما بلغت شجاعته أن يقف لجيش تركى جعله التنظيم الصارم وحدة عسكرية هائلة .
وفى شهر يونيو سنة ١٣٨٩ م التقى الفريقان في ميدان قوصوه .
وقاد السلطان مراد الاول جيوش العثمانيين بنفسه واشتدت المعركة ، وحق بالمتحاربين خسائر فادحة ، وقتل مراد فى هذه الوقعة غيلة بضربة جندى صربى .

على ان العثمانيين مالبثوا ان أسروا الملك لازارس ، وقطعوا رأسه ، وأتم ولى العهد بايزيد بن مراد هذه الوقعة بهزيمة القوات الصربية ، بعد أن فقدت ملكها . وسار العثمانيون بقيادة بايزيد الاول بعد هذه الوقعة من نصر الى نصر فى البلقان . ونهض سچسموند ، ملك المجر ، لوقف ذلك السيل العثمانى ، واستنجد بملوك أوروبا شرقا وغربا ، واجتمعت لديه جيوش عديدة . لكن السلطان بايزيد الاول هزمها عند

تيقوبوليس سنة ١٣٤٦ م . وغدت أطراف الدولة العثمانية بعد هذه الواقعة واصله من أطراف آسيا الصغرى جنوبا الى أطراف البلقان شمالا .

تيمورلنك والدولة العثمانية :

وبينما يزهو بايزيد بانتصاراته ، وينشر سلطانه على ممتلكاته الواسعة من عاصمته أدرنة ، نزلت بدولته ضربة قاصمة جعلت مجهودات العثمانيين تذهب مع الريح . ومصدر هذه الكارثة هبوط الصاعقة تيمور من موطنه تركستان على رأس جحافل من الخيالة الى غرب آسيا ، واقتربه من تخوم الأراضي العثمانية . وتيمور هو الاشيب الأعرج المعروف لهذا النقص الجسمي باسم تيمورلنك ، وهو الذي استحق لقب الاستاذية في التخريب والقدرة على التدمير مثل جنكزخان دون أن تجمع بينهما صلة من القرابة أو النسب . وبدأ تيمورلنك حروبه عند ما استولى على دولة المغول في تركستان ، واتخذ من سمر قند عاصمة له ، فوسع سلطانه بالحروب والفتوح الدامية حتى دانت له دلهي بالهند وبنغداد بالعراق ودمشق بالشام .

واستجلب بايزيد العثماني على نفسه غضب تيمورلنك عندما أعلن عزمه على الاشتراك مع سلطنة المماليك في مصر وغيرها من الدول في الوقوف في وجه التوسع التيموري في غرب آسيا .

واصطدمت قوات بايزيد بقوات تيمورلنك عند مدينة سيواس في شرق آسيا الصغرى سنة ١٤٠٠م ، فاطاح هذا القائد الاعرج بقوة الاتراك العثمانيين ؛ وقتل ارطغرل اكبر أبناء بايزيد ؛ ثم اعقب ذلك بالتوغل في آسيا الصغرى . وفي سهل انقره (يوليو سنة ١٤٠٢ م) وقع الجيش العثماني ذو الانتصارات الكثيرة في فخ هائل من الخيالة التيمورية الكاسحة ، وذهب معظم الجيش العثماني بين قتيل وجريح وأسير ، ووقع بايزيد نفسه أسيرا في يد تيمورلنك . وأوغلت فرقة من القوات التيمورية في آسيا الصغرى وخربت مدينة بروصة ، وغيرها من ممتلكات العثمانيين حتى سواحل الدردنيل . ثم عاد تيمورلنك ومعه بايزيد محمولاً في قفص من حديد الى سمرقند .

وبات العثمانيون بعد وقعة انقره في حال بالئسة . فضاعت جميع ممتلكاتهم في آسيا ، وغدا سلطانهم أسيرا ، ونشب الخلاف بين أبناء بايزيد من أجل السلطنة . ولكن أدرنة التي أصبحت مدينة اسلامية منذ أيام مراد الاول اشتملت بفضل تنظيمات العثمانيين السابقين على جميع المقومات اللازمة لنهضة الدولة العثمانية مرة أخرى ، اذ استطاع السلطان محمد الاول أن يتغلب على أخوته من أبناء بايزيد ، وأن يصبح حاكما بمفرده (١٤١٣ - ١٤٢١ م) . وبدأ السلطان الجديد يرعى نواة الحكومة العثمانية الجديدة في أدرنة ، دون أن تدهمه أخطار خارجية ، لان الدول الأوروبية لم تستطع الاستفادة من كارثة

العثمانيين ، وضاعت عليهم فرصتهم عندما أمست الدولة العثمانية بغير جيش أو حكومة مستقرة .

ولما توفي محمد الاول سنة ١٤٢١ م خلفه ابنه مراد الثانى ، الذى اتم احياء الامبراطورية العثمانية ، فأعاد مراد الثانى تنظيم الينى شرية ، واعدها لما اعتزمه من حروب توسعية فى البلقان .

حروب مراد الثانى فى البلقان :

خشى المجريون احياء سلطان الاتراك العثمانيين ، لان بلادهم تعرضت لحمولات من جانب مراد الثانى للحصول على ابناء المسيحيين اللازمين للتجنيد ، فدعا المجريون بلاد أوروبا الى تكوين حلف مسيحى جديد يصد هجمات العثمانيين على منطقة ترانسلفانيا المجرية . وظهرت براعة حنا هنيادى القائد المجرى اثناء الإغارات العثمانية الاولى على ترانسلفانيا ، حتى صار هذا القائد بطل الدول الأوروبية ضد العثمانيين . وضم هذا الحلف ، الى جانب بلاد البلقان ، دوقية برجنديا وجنوة والبندقية والبابوية والامبراطورية البيزنطية .

وزحف هنيادى على رأس جيوش الحلفاء ، وعبر نهر دانوب ، وطرده العثمانيين من بلاد الصرب . ثم أوقع بالعثمانيين هزيمتين قادحتين شمالى نهر هايموس وجنوبيه ، حتى اضطروهم لأول مرة فى تاريخهم الى طلب الصلح . وتم ذلك الصلح فى يونيو سنة ١٤٤٤ م ، وهو صلح سيزجدين الذى تعهد فيه مراد الثانى

ولادسلاس ملك المجر وحلفاؤه على أن يكون نهر دانوب حدا فاصلا ، لا تعبره جيوش الفريقين لمدة عشر سنين . واقسم مراد الثانى على القرآن ، كما أقسم لادسلاس على الانجيل لاحترام هذا الشرط ، وتخلّى مراد الثانى بعد ذلك عن السلطنة وتولى ابنه محمد الثانى .

واتاح صلح سيزجدين للعثمانيين فرصة لتنظيم جيوشهم وشئونهم الداخلية على عهد سلطانهم الجديد ، غير أن لادسلاس ملك المجر عزم على نقض الصلح ، وهجمت جيوش مجرية برغم الهدنة على اراضى العثمانيين جنوب نهر دانوب وعند مدينة فارنا لقيت جيوش حنا هنيادى قوات العثمانيين ، التى تولى قيادتها مراد الثانى مرة اخرى ليقترض لنفسه من أصحاب القسم على الانجيل ، وأنزل مراد الثانى بحنا هنيادى هزيمة فادحة اوائل نوفمبر سنة ١٤٤١ م وتخلّى مراد الثانى مرة اخرى عن السلطنة لابنه محمد الثانى .

وقعة قوصوه الثانية :

لم يهدأ حنا هنيادى برغم اندحار جيشه ، ومصرع ملكه لادسلاس فى فارنا ، بل ظهر مرة اخرى فى الميدان على رأس جيش صغير من خيرة جند المجريين ، وظهر مراد الثانى مرة اخرى بناء على طلب ابنه محمد الثانى . وعند قوصوه التقى العثمانيون بجيش هنيادى ، ودارت رحى معركة حامية مدى ثلاثة أيام، انتهت بانهزام المجريين هزيمة شنيعة سنة ١٤٤٨ م .

ومعجزات المجر بعد هذه الواقعة عن القيام بأى مجهود حربي لمدة سنين . اذ فقدت آلافا من زهرة فرسانها ، وشلت أدااتها الحربية . وظل مراد الثانى فى السلطنة حتى توفى سنة ١٤٥١ م .

سقوط القسطنطينية :

تولى السلطان محمد الثانى نهائيا عرش العثمانيين عقب وفاة ابيه . وقبل ذلك بثلاث سنوات ، توج قسطنطين الحادى عشر الامبراطورا فى الدولة البيزنطية ، التى لم تتعد مساحتها اسوار القسطنطينية واقليما صغيرا مجاورا لها . وتطلع العثمانيون الى هذه العاصمة ، وصمموا على الاستيلاء عليها ليأمنوا سلامة المواصلات بين املاكهم فى أوروبا وآسيا ، وليؤسسوا بها عاصمة جديدة لدولتهم ، فضلا عن أنها نهاية الشوط الحربى الذى بدأه عثمان من جوف آسيا الصغرى . واخذ محمد الثانى يعد العدة العسكرية الضخمة علنا فى غير خشية من الامبراطور ، بعد أن حصل من المجر والبوسنة والبندقية على وعد بوقوف كل منها على الحياد التام . ثم أعلن محمد الثانى الحرب على الامبراطور فى خريف ١٤٥٢ م ، واخذ فى حصار القسطنطينية .

اما اهل القسطنطينية فاعتقدوا أن مدينتهم لن تسقط فى يد فاتح مهما اوتى من مهارة وجسارة وبأس ، فكثروا ما طمخ الفاتحون فى الاستيلاء عليها ، وارتدوا جميعا عنها خاسرين . واهتم اهل القسطنطينية بالجدل الدينى حول الاتحاد الذى تم

اواخر تلك السنة بين كنيستهم الارثوذكسية والكنيسة البابوية الكاثوليكية ، أكثر من اهتمامهم باعلان محمد الثانى الحرب . اذ استنجد الامبراطور بالبابا فى روما عندما علم باستعدادات العثمانيين الحربية ، ووقع اتفاقية الاتحاد بين الكنيستين لقاء ارسال المساعدة . ثم انفجرت الثورة فى القسطنطينية والعثمانيون على أبوابها ، وذلك عندما اقام الامبراطور بكنيسة ايا صوفيا صلاة مؤذنة بالاتحاد البغيض بين الارثوذكسية والكاثوليكية ، واعلن احد الزعماء البيزنطيين أنه يفضل ان يرى عمائم العثمانيين من ان يرى قلانس رجال الدين الكاثوليكين بالقسطنطينية .

وتخلت المدن الايطالية صاحبة الامتيازات التجارية فى القسطنطينية عن مساعدة الامبراطور ، بل أسرع راجوزة وجنوة والبنديقة للتقرب من الدولة العثمانية الفتية ، اذ رأت فى فوزها على البيزنطيين فرصة لتدعيم تجارتها الواسعة ، ولذا لم يأت لنجدة العاصمة البيزنطية من عند جيرانها المسيحيين سوى مائتين من الجنود البابوية ، وعدد من السفن الايطالية ، وعجزت قوات الامبراطور عن حماية الاسوار لقلة عددهم ، ولم يستطيعوا المقاومة أكثر من شهرين . وفى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ ، اقتحم العثمانيون الاسوار بعد تخريبها ، ولقى الامبراطور البيزنطى مصرعه فى القتال الذى امتد الى شوارع القسطنطينية . وفى منتصف النهار دخل السلطان محمد الثانى الفاصمة البيزنطية دخول الفاتح ، وأمر جيشه بالكف عن القتال ، ثم دخل كنيسة

أيا صوفيا ، وحولها الى مسجد جامع . وأمر السلطان محمد الفاتح - وهذا هو لقبه في التاريخ - بترميم ما أحدث الحصار بأسوار القسطنطينية من الدمار ، وجعل من المدينة البيزنطية عاصمة له ، وبدا انتهت امبراطورية البيزنطيين .

امتداد الدولة العثمانية الى البلاد العربية

الصفويون في ايران :

بينما تمتد الفتوحات العثمانية في أوروبا من اقليم الى آخر ، في البلقان وأوروبا الوسطى وشمالى نهر دانوب ، اتجهت أبصار العثمانيين كذلك نحو البلاد الاسلامية المتاخمة لهم في آسيا الصغرى ، وأخذوا يحلمون بالسيادة العليا في العالم الاسلامى . وانتشرت في الدولة العثمانية منذ اواخر القرن الخامس عشر الميلادى حماسة دينية ، توجهت اولاً للحرب الصفويين في ايران . واشتد العداء في ذلك الوقت بين الشاه اسماعيل الصفوى والدولة العثمانية ، بعد وفاة السلطان محمد الثانى الفاتح . ذلك أن الشاه انتهز النزاع الذى نشب حول السلطنة بين أبناء البيت العثمانى ، وحرص الشيعة بآسيا الصغرى على الثورة ضد العثمانيين السنيين ، وأغرى أمراء الاطراف المجاورين لدولته بالخروج على السلطنة العثمانية . واحتضن الشاه اسماعيل أبناء البيت العثمانى الذين اضطروا الى الفرار من آسيا الصغرى عندما اعتلى السلطان سليم الاول عرش الدولة العثمانية (١٥١٢ م) . ولذا

بدأ السلطان سليم سلطنته باخماد ثورة الشيعة في آسيا الصغرى ، وانزل باتباع هذا المذهب من رعاياه الاضطهاد . فهاجم الشاه اسماعيل على آسيا الصغرى للدفاع عن الشيعة ، وأصبح العداء سافرا بين الدولتين العثمانية والصفوية . عندئذ أعد السلطان سليم جيشا كبيرا سنة ١٥١٤ م (٩٢٠ هـ) للقضاء على الشيعة ودولتهم في ايران ، وقاد هذا الجيش بنفسه ، فاستولى على ديار بكر وكردستان ، ثم توغل شرقا في ايران حتى التقى بجيش الشاه اسماعيل أخيرا عند تشالديران بالقرب من تبريز في ٢٣ أغسطس من تلك السنة ، ودارت رحى معركة انتهت بهزيمة الشاه اسماعيل . وعاد السلطان سليم الى بلاده ، بعد أن ادخل ديار بكر وكردستان في أملاك دولته .

فتح الشام ومصر

وقعة مرج دابق بالشام :

أدى استيلاء السلطان سليم الأول على أجزاء من ايران الى امتداد أملاك الدولة العثمانية الى منطقة الأطراف التابعة للدولة المملوكية المصرية ، وهى المنطقة الممتدة من وادى طوروس فى الشمال الغربى من الشام الى مدينة ملطية بآسيا الصغرى . وخضعت هذه المنطقة للأمير علاء الدولة دلقادر المشمول بحماية السلطنة المملوكية ، ولذا وقف من الجيش العثمانى المتوجه لحرب الصفويين موقف الحياد المسلح ، فاتهمه السلطان سليم الاول

بالعداء للعثمانيين ، وقتله واستولى على بلاده سنة ١٥١٥ م وبذلك اضحى العثمانيون على مقربة من الاراضى المملوكية من ناحية الشام ، فضلا عن استيلائهم على بلاد الاطراف التى تدين بشىء من التبعية لسلطين المماليك .

واحس السلطان الغورى فى القاهرة بالخطر المهدد لدولة المماليك بعد هذه الاعتداءات . فعمد الى عقد حلف مع الشاه اسماعيل الصفوى فى ايران لوقف التقدم العثمانى . وازداد البغض بين الغورى وسليم الاول ، عندما فر احد اولاد الامير احمد اخى السلطان سليم الى حلب ، فرارا من بطش عمه . ومن ثم اخذ العداء يستحكم بين السلطانين ، ويتربص كل منهما بالآخر الدوائر فقتضوه الغورى يحقد على سليم استخفافه بحماية المماليك على امانة دلفادر وضمها الى املاكه دون مجاملة ، وسليم الاول يسيىء الظن بالمماليك لتحالفهم مع الشاه اسماعيل ، وايقنهم اميرا عثمانيا يهدد العرش العثمانى .

وفى اوائل سنة ١٥١٦ م جاءت الاخبار الى القاهرة باستعداد العثمانيين فى القسطنطينية (استانبول) للحرب . وادرك الغورى ان الدولة المملوكية هى المقصودة بهذا الاستعداد ، واعد جيوشه وخرج بها الى حلب بالشام فى يوليو سنة ١٥١٦ م . ثم بعث رسولا الى سليم الاول يؤكد رغبته فى الصلح وعدم الحرب ، فرفض سليم الحديث فى الصلح وقال للرسول : « قل لاستاذك يلاقينا على مرج دابق » اى داخل الاراضى الشامية المملوكية

وهى عبارة تدل - أن صحت - على عزم السلطان سليم على تسوية حساب قديم مع السلطنة المملوكية التى هزمت جيوش العثمانيين داخل الاراضى العثمانية زمن السلطان قايتباى .

وسار القورى من حلب شمالا الى عينتاب وشهد قوات العثمانيين تقترب من الاراضى المملوكية ، والتقى الجيشان فى معركة حامية عند مرج دابق (٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦ م) . فعند اول اصطدام بين الفريقين فر الامير خاير بك المملوكى نائب حلب ، وكان يتولى الجناح الايسر فى جيش القورى وانضم الى العثمانيين ، واستحق بذلك لقب الخائن . ثم تلا ذلك سقوط السلطان القورى عن ظهر جواده ، وموته لساعته . وأسفرت واقعة مرج دابق أخيرا عن فوز ساحق للعثمانيين بفضل أسلحتهم من المدافع والبنادق ، وتبين للمماليك أن تمسكهم بالشجاعة والمهارة فى الرمي بالقوس والنشاب والمزراق لا يجدى شيئا . ففررت الجنود المملوكية من الميدان ، ودخل سليم الاول مدينة حلب ، وقوبل بالترحاب من أهلها . وفى شهر أكتوبر من نفس السنة زحف سليم على دمشق واستولى عليها ، وبذا خضع اقليم الشام لسيطرة العثمانيين .

فتح مصر :

هزت أخبار انتصارات سليم الاول القاهرة ، حيث أقام طومانباى نائبا عن السلطان قنصوة القورى . ورمى طومانباى بعد سلطنته أن يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين بجنوب الشام ،

قبل ان يصلوا الى الأطراف المصرية ، فارسل حملة على رأسها الأمير جان بردى الغزالى فى ديسمبر سنة ١٥١٦م للوقوف فى وجه العثمانيين شمالى غزة ، وهو أحد الامراء الذين فروا من مرج دابق . وخان هذا الأمير ، على نحو ما فعل خاير بك ، فعرض جنده للهزيمة دون أن يقاتل العثمانيين قتالا جديا ، وبذا وصلت جنود العثمانيين الى غزة فى طريقها الى مصر .

وأعد طومانباى جيشه على عجل ، وخرج الى الريدانية وهى الأطراف الممتدة من العباسية الى مصر الجديدة الحالية ، وعزم على السير من الريدانية الى الصالحية بمديرية الشرقية الحالية ليلتقى بالعثمانيين بعيدا عن القاهرة . غير أن أمراء جيشه أشاروا عليه بالوقوف عند الريدانية ، والترنص هناك للعثمانيين ، وغلبوه على أمره . وفى ١٦ يناير سنة ١٥١٧م جاء الخبر الى الريدانية بان العثمانيين وصلوا الى العريش ، واستولوا عليها ، وهى أول البلاد المصرية . وتتابع الانباء بزحفهم دون مقاومة حتى وصلوا الى الصالحية . عند ذلك قرر طومانباى السير الى الصالحية أملا فى مفاجأة العثمانيين قبل أن يذهب عنهم تعب الزحف عبر الصحراء . لكن أمراء الممالك تغلبوا على طومانباى مرة ثانية ، وآثروا البقاء فى الريدانية .

وفى ٢٢ يناير سنة ١٥١٧م نشبت المعركة بين طومانباى والسلطان سليم ، وحمل القتال حتى ثار الغبار وعميت الإبصار ، فبر أن المعركة انتهت باندحار الممالك ، وفر طومانباى بعد أن

بقى في ميدان القتال حتى النهاية . ولم يكن ثمة مناص من هزيمة المماليك عند الريدانية بسبب الخونة ، وافشاء الخطة الملوكية الى العثمانيين .

وفي ٢٥ يناير نقل سليم معسكره من شمال الريدانية الى جهة بولاق ، وجعل مقر قيادته الموضع الذى تقوم عليه المطبعة الاميرية فى الوقت الحاضر . ثم تدخل سليم القاهرة فى اليوم التالى من باب النصر . غير أن طومانباى بغت المعسكر العثمانى ذات ليلة مظلمة ، تمهيدا لمعركة أعد لها ما استطاع أن يجد من بقايا المقاومة الملوكية . لكن سليما أفسد عليه خطته ، وأنزل به هزيمة ، فر بعدها طومانباى الى الصعيد ، ثم اختفى عند أحد شيوخ البدو بمديرية البحيرة الحالية ، وخاف هذا الشيخ مغبة اخفاء طومانباى وسلمه للعثمانيين . وفى ٢٣ ابريل سنة ١٥١٧ . أعدم العثمانيون طومانباى ، وعلقت جثته على باب زويلة .

وغدت مصر بعد الشام ولاية عثمانية ، وانتقلت بذلك سيادة سلاطين المماليك على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة الى التبعية للسلطان العثمانى ، وأصبح الخطباء فى المساجد يدعون للسلطان سليم باعتباره « مالك البرين ، وخاقان البحرين » وقاهر الجيشين وملك العراقين وخادم الحرمين » . وللمؤرخ المعاصر ابن اياس الذى شهد هذه الحوادث عبارة تبين مدى الانقلاب الذى أصاب مصر ، وأنها صارت ولاية تابعة ، بعد أن

كان سلطانها على قوله « أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة ،
لانه خادم الحرمين الشريفين ، و حامى ملك مصر الذى افتخر به
فرعون » .

بعض نتائج الفتح العثمانى لمصر

انتقال الخلافة الى القسطنطينية :

ادى سقوط مصر فى ايدى السلطان سليم الى انتقال الخلافة
العباسية من القاهرة الى القسطنطينية ، عاصمة الدولة
العثمانية . ذلك أن آخر الخلفاء العباسيين فى القاهرة ، وهو
المتوكل ، انضم الى جانب السلطان سليم عقب انتصاره فى وقعة
مرج دابق ، وموت السلطان المملوكى قنصوه القورى . ورحب
السلطان سليم اول الامر بالخليفة ، واصطحبه معه فى هجومه
على مصر ، ليستفيد من مكانته فى اكتساب المصريين . على ان
الغرور داخل الخليفة ، واستعمل السلطات التى نالها من
السلطان العثمانى اسوأ استعمال ، فأرسله السلطان سليم منفيا
الى القسطنطينية فى يونيو ١٥١٧ م .

والتواتر أن الخليفة العباسى تنازل عن منصبه للسلطان سليم ،
واعطاه شارات الخلافة ، وهى البردة النبوية التى لبسها الخلفاء
العباسيون فى بغداد ، وبضع شعرات من لحية النبى ، وسيف
الخليفة عمر بن الخطاب . على ان اقتران كلمة خليفة باسم
السلطان العثمانى لم تظهر رسميا فى المكاتبات الرسمية للدولة

الا في القرن الثامن عشر الميلادى . واستغل السلطان عبد الحميد الاول لقب الخلافة وماله من اجلال في العالم الاسلامى ، ليقوى مركز دولته أمام القوى المسيحية الاوروبية الطامعة في الممتلكات العثمانية .

وفى معاهدة كجق كينارجى التى أبرمت بين كترين الثانية ملكة روسيا والسلطان عبد الحميد الاول سنة ١٧٧٤ م ، اقترن اسم هذا السلطان بكلمة خليفة ، ونال حق الاشراف على شئون المسلمين فى شبه جزيرة القرم .

ثم أصبح لقب خليفة ركنا اساسيا فى الدستور العثمانى على عهد السلطان عبد الحميد الثانى فى القرن التاسع عشر الميلادى . فجاء فى الفقرة الثالثة من دستور مدحت باشا الصادر فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٦ م ، أن السلطنة العثمانية هى وريثة الخلافة الاسلامية ، وانها تؤول وراثيا الى اكبر ابناء البيت المالك . ونصت الفقرة الرابعة من هذا الدستور أيضا على أن الباب العالى هو حامى حمى الدين ، باعتباره خليفة المسلمين .

سيطرة العثمانيين على الحجاز واليمن :

ومن النتائج الهامة التى ترتبت على فتح مصر أيضا اقتران اسم السلطان العثمانى بلقب « خادم الحرمين » ، وهو اللقب الذى حمله من قبل سلاطين المماليك فى مصر . واعتز سلاطين الدولة العثمانية بهذا اللقب الجديد ، واعتبروه متمما للخلافة واركانها .

ومن ثم اهتم العثمانيون بالحجاز لانها موطن الاماكن المقدسة في مكة والمدينة ، وعمدوا الى بسط سلطانهم عليها . ومهدت انتصارات العثمانيين السبيل لتحقيق امانهم في الاستيلاء على الحجاز . اذ ارسل شريف مكة الى السلطان سليم عقب انتصاره في مصر يعلن تبعية له ، وسلمه مفاتيح الحرم المقدس . وصار الحجاز كذلك ولاية تابعة للسلطان العثماني . على أن الشريف أمير مكة ظل محتفظا بمكانته الدينية ، وتمتع بحق تكوين قوات محلية من البدو وتخضع لأمره .

وتابع العثمانيون بسط سيادتهم على سائر شبه جزيرة العرب، اذ خشوا ما تعرضت له السواحل العربية من اغارات البرتغاليين الاوروبيين بعد أن هددت السفن البرتغالية بلاد اليمن وسواحل البحرين ، وبعث مشايخ العرب يرسلهم الى القسطنطينية يطلبون النجدة لوقف هذه الاغارات البحرية .

وبعث السلطان سليمان سنة ١٥٣٨ م حملة بحرية ، خرجت من موانئ مصر في البحر الاحمر ، واستولى العثمانيون على عدن ومسقط ، وحاصروا كثيرا من الجزر والموانئ التي احتلها البرتغاليون بسواحل بلاد العرب . على أن مجهودات العثمانيين البحرية عجزت عن صد البرتغاليين تماما ، ولقى أسطولهم هزيمة بحرية سنة ١٥٣٨ م . وبلا قصر العثمانيون جهودهم على اتمام فتح اليمن ، التي صارت منذئذ ولاية عثمانية .

سيادة العثمانيين على بلاد المغرب

اسرة برباروسا :

وبعد أن تم للسلطان سليم فتح مصر امتد نفوذ العثمانيين الى تونس والجزائر بفضل اخوين من اسرة بحريه مشهورة يونانية الاصل . ونشأ عروج بن يعقوب مؤسس هذه الاسرة في جزيرة لسبوس اليونانية ، والتحق بالبحرية العثمانية . ولم يلبث ان تركها ، واحترف القرصنة الشائعة وقتذاك في البحر الابيض المتوسط ، واشتهر باسم برباروسا ، اى صاحب اللحية الحمراء ، واشترك مع برباروسا في اغاراته البحرية على السفن اخوه خير الدين ، الذى اشتهر فيما بعد باسم برباروسا الثانى .

وامتد نشاط هذين الاخوين الى تونس والجزائر لان سلطان تونس محمد السادس الحفصى استدعى برباروسا الاول ، وعهد اليه بحكم جزيرة جربة ليجعل منها قاعدة بحرية تمنع اغارات السفن الاسبانية على السواحل التونسية ، بعد ان تكررت هذه الاغارات في جرة متزايدة . واستنجدت بلاد الجزائر ببرباروسا كذلك ، ليدفع عنها اذى الاسبانيين الذين استولوا على احدى الجزر الجبلية الواقعة امام مدينة الجزائر نفسها ، دون ان تتحرك الدولة المراكشية صاحبة السيادة على البلاد . فاستطاع برباروسا ان يمنع اغارات الاسبانيين على الشواطىء الجزائرية ويسط نفوذه على بلاد الجزائر .

دخول اسرة برباروسا في خدمة السلطان العثماني :

وفي سنة ١٥١٨ م عين برباروسا الأول أخاه خير الدين على الجزائر ، ثم خرج هو ليمد نفوذه على منطقة تلمسان ، التي عمل الاسبانيون على احتلالها ، ولكنه قتل في احدى المعارك ، فتولى خير الدين البلاد التي خضعت لأخيه ، وعمل على اتمام رسالته في بلاد المغرب . غير أن نواب الدولة المراكشية ببلاد الجزائر ثاروا عليه ، وهددوه من كل ناحية ، فاستنجد بالسلطان سليم الذي انهى وقتذاك من فتح مصر . واستجاب السلطان سليم لهذا النداء ، وادخل خير الدين في خدمته ، ومنحه لقب بكربك ، أى امير الامراء ، ثم أمده بالفى جندى تركى مع مدفيعتهم ، واربعة الاف من الجند المتطوعة . وفي سنة ١٥١٩ م وطد خير الدين سلطانه في الجزائر ، وطرد الاسبانيين من معاقلهم القريبة من هذه البلاد . وفي سنة ١٥٣٤ م احتل تونس نفسها كذلك ، وادخل بلاد المغرب في التبعية للدولة العثمانية .

فتح العراق

وفي الوقت الذى عاد فيه السلطان سليم الى بلاده بعد اتمام فتح مصر وادخال بلاد المغرب في نفوذه ، عمد الشاه اسماعيل الصفوى الى الهجوم على العراق متحديا بذلك امتداد سلطان العثمانيين الى الاطراف العراقية من ناحية الشام . فاستولى اسماعيل على بغداد ، وزار مشهد الحسين في كربلاء ، ثم عين

حاكما فارسيا اسمه ابراهيم خان على بغداد ، وعاد الى بلاده ،
وعلا شأن الايرانيين ونفوذهم في العراق ، اذ لقوا تعضيدا من
الشيعة اصحاب الكلمة العليا بين القبائل العراقية الجنوبية ،
وجاء التجار الايرانيون الى بغداد ، مما جعل الرخاء يسود
العراق . على ان العثمانيين خشوا ازدياد نفوذ الايرانيين
الشيعة في العراق ، واستنكروا الاضطهاد الذي نزل باهل
السنة من سكان بغداد . ومن ثم اخذ السلطان سليمان العثماني
(١٥٢٠ م - ١٥٦٦ م) يعد العدة للقضاء على الصفويين
الشيعة ، ويزيل خطرهم نهائيا من العراق ويؤمن اطراف
دولته هناك .

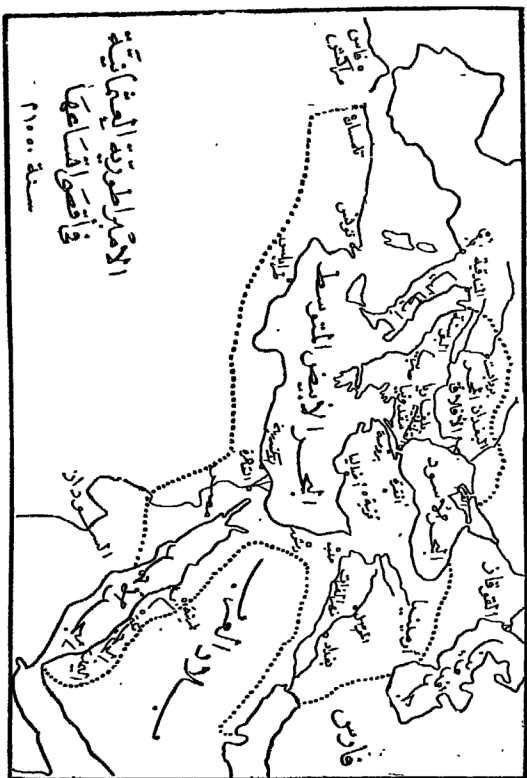
وجمع السلطان سليمان قواته في شمال ايران واعدها
للزحف على العراق . ثم سار جنوبا عبر كردستان ليلحق
بوزيره ابراهيم باشا الذي سبق السلطان في الاغارة على منطقة
الموصل . ولقى السلطان سليمان متاعب جمة في زحفه بسبب
شتاء نوفمبر القارس ، ونال التعب والانهاك من جنده . وبعد
مشقة استطاع السلطان سليمان أن يدخل سهول العراق ،
ومعه فرق المدفعية العثمانية ذات الشهرة الفائقة في القرن
السادس عشر الميلادي . ودخل سليمان بغداد دون أن يلقي
عليها حصارا أو يلقي مقاومة من أهلها . واتبع السلطان سياسة
حكيمة ليعيد الهدوء والطمأنينة الى بغداد . فشجع كبار
رجال المدينة على الاجتماع به ، وزار اماكن الشيعة المقدسة

في حى الكاظمية ، ومسجد الشيخ عبد القادر الجيلانى ، وأعاد بناء مسجد الامام أبى حنيفة الذى سبق للايرانيين ان خربوه ، وزخرفه بالحلى ، وأصلح الجسور والقنوات لتحسين الزراعة والتجارة . ثم عاد السلطان سليمان الى القسطنطينية بعد أن ترك في بغداد حكومة عثمانية ، وغدت العراق ولاية عثمانية خاضعة للسلطة المركزية في القسطنطينية ، عدا سنوات قليلة عاد الصفويون فيها الى مدينة بغداد . ذلك ان الشاه عباس انتهز اضطراب الادارة العثمانية في بغداد ، وانتشار المجاعات في المدينة بسبب الجفاف وسوء المحاصيل واستولى عليها دون عناء سنة ١٦٢١ م ، وتجد بذلك النزاع مرة أخرى بين الايرانيين والعثمانيين حول العراق .

ولم يستطع ولاية العثمانيين في شمال العراق استعادة بغداد ، فاضطر السلطان العثماني مراد الرابع ان يتولى بنفسه قيادة حملة الى العراق سنة ١٦٣٨ م ، وسار الى حلب على حين بعث المدافع على ظهور السفن في نهر دجلة . وفي طريقه عبر السلطان مراد نهر الزاب الاكبر ونهر الزاب الاصغر وهما من فروع دجلة ثم اجتاز كركوك ، وعسكر اخيرا امام بغداد وحاصرها حصارا شديدا وانزلت المدفعية العثمانية بأسوار بغداد تخريبا موحشا ، ودخلت القوات العثمانية المدينة ، حتى لا يستطيع الايرانيون الاستيلاء عليها مرة أخرى ، السلطان مراد الرابع بناء مزارات السنة ، وحصن أسوار

المدينة حتى لا يستطيع الإيرانيون الاستيلاء عليها مرة أخرى .
وأصلح السلطان كذلك أسواق المدينة وحدائقها ، ونظم
موارد تغذية أهلها .

وعين السلطان مراد الرابع على حكومة العراق حسن باشا
أحد ضباط البنى شرية ، وترك معه فرقة من الجيش . وبعد
جولة في مدينة بغداد عاد السلطان الى القسطنطينية ، وظل
العراق منذئذ ولاية خاضعة للسلطة العثمانية المركزية ، يديرها
سلسلة من الباشوات الاتراك حتى أيام الحرب العالمية الاولى .



نظم الحكم في الدولة العثمانية

السلطة المركزية

السلطان :

هيمن السلطان على ممتلكاته الشاسعة وفق النظم التى اتبعها سائر حكام الدول الاسلامية ، فهو مقيّد في سلطاته بحدود القرآن والشرع الاسلامى والاجماع ، وفيما عدا ذلك فهو مصدر السلطات جميعها . وله الحق في اصدار القوانين في غير ما نص عليه القرآن والشرع ، واشتهرت مجموعة القوانين العثمانية السلطانية باسم القانونامه . واردة السلطان هى المحرك الاساسى لسائر أعمال الحكومة ، فالوزراء ورجال المالية وقادة الجيش وولاة الاقاليم يتولون مناصبهم بتفويض منه ، ويذهبون عنها - مهما عظمت مكانتهم - بكلمة واحدة منه .

وفاقت اختصاصات السلطان العثمانى حدود الخلفاء المسلمين من قبل ، اذ اعتبر السلطان الدولة العثمانية ملكا له ، وهو الذى يتولى شئون رعيته . ولم يكن لموظفى السلطان مهمة غير تنفيذ أوامره دون اعتراض ، فلم يعد الواحد سوى كلار ، ومعناها الخادم في اللغة التركية .

الحكم والادارة :

واختار السلطان وزرائه وسائر الموظفين الذين تولوا مرافق الدولة وفق نظام دقيق اُملت به طبيعة العثمانيين الحرية ، فلم يعرف آل عثمان من المؤهلات لوظائف الدولة سوى المقدرة

الشخصية والقوة الجسمية والطلعة الحسنة . ودأب العثمانيون على جميع أبناء المسيحيين من رعاياهم كل أربع سنوات ، وبعثوا الموظفين المكلفين بذلك ، وهم المعروفون باسم دوشرمة ، الى بلاد البلقان والمجروسواحل آسيا الصغرى الغربية وسواحل البحر الاسود الجنوبية والشرقية ، فيجمع أولئك الموظفون اقرباء الأطفال واحسنهم طلعة ، فيما بين العاشرة والعشرين . ثم يقسم أولئك الصغار الى قسمين ، فيدخل واحد من كل عشرة تقريبا في القسم الاول ، المعروف باسم غلمان الخاصة « اتشى اوغلان » ، بعد اختبار في الجسم والذكاء والطلعة ، وتدخل البقية في المجموعة المعروفة باسم الغلمان الأجانب ، « آجم اوغلان » ، وهم الذين يصبحون فرقة الينى شرية من الجيش العثمانى

ويذهب افراد القسم الاول الى قصور السلطان أو بيوت الحكام الكبار ، حيث يتعلمون الدين الاسلامى واللغة التركية وفنون الفروسية واللغة العربية كذلك . وفى سن الخامسة والعشرين يتلقى أولئك الشبان التدريب العسكرى ، ويلحقون بعد ذلك بالوظائف المختلفة . وبسبب عدم الفصل بين السلطات المدنية والحربية تدرج أولئك الشبان بين مراتب الادارة والجيش لا فرق فى ذلك بين صغارهم وكبارهم . وهكذا وجد السلطان أداة مدربة ، معدة لتنفيذ أوامره فى الشؤون المدنية والحربية على يد هذه الطائفة المختارة .

الوزراء :

واستعان السلطان العثمانى فى تصريف شئون الدولة

بمجموعة من الوزراء . اذ تولى اولئك الوزراء تزويد السلطان بالارشادات والآراء زمن الحرب والسلام ، فضلا عن الادارة وشئون الحكم . وانعم السلطان على كل من الوزراء بلقب باشا ، وزاد عليهم رئيس الوزراء بلقب الصدر الاعظم . وتحمل رئيس الوزراء اعباء الدولة نيابة عن السلطان ، فهو يمثل السلطان في ادارة الشئون الحربية والمدنية ، وفي الفصل في المنازعات ، وهو الذى يعين كبار الموظفين في الدولة كذلك .

وحمل الصدر الاعظم خاتم الدولة ، وأشرف على العاصمة العثمانية وأسواقها ، وامتاز عن سائر الوزراء بالخروج في موكب من حرس السلطان الخاص عند ذهابه الى الديوان . على أن منصب الصدر الاعظم رغم علو شأنه لم يعط صاحبه حقوقا تجعله بئامن من العزل ، فللسلطان الحق في عزله في أى وقت ، وذلك باسترداد خاتم الدولة منه . ثم لم يلبث هذا المنصب أن ازداد قوة وخطورة ، بسبب ضعف السلاطين ، فاتخذ الصدر الاعظم مقرا خاصا به ، بعد أن جرى العرف مدة على ذهابه الى قصر السلطان لسماع الأوامر السلطانية . واستقر ذلك التطور سنة ١٦٥٤ م حين أصدر السلطان محمد الرابع أمرا سلطانيا باطلاق اسم باب الباشا على مقر الصدر الاعظم . ولم يكن هذا المقر العظيم سكنا خاصا فحسب ، بل أصبح دارا يأتى اليها موظفو الدولة لتصرف أعمالهم .

وجرى المصطلح في الدولة العثمانية على تسمية الوزراء باسم

وزراء القبة نسبة الى طوب قبو سراى ، وهو أحد قصور الباب العالى ، لانهم عقدوا اجتماعاتهم فى غرفة ذات قبة بذلك القصر . واختلف عدد الوزراء كثرة وقلة حسب مهام الدولة ، وتولى أولئك الوزراء أحيانا الحملات الحربية ، وأطلق على من تولى منهم حملة صغيرة اسم سردار . وعندما خرج الصدر الأعظم فى حملة حربية أو غاب عن البلاد ، حل أحد أولئك الوزراء محله ، ويعرف باسم قائم مقام . ثم لم يلبث اسم قائم مقام للصدر الأعظم أن أصبح منصبا دائما فى الدولة زمن السلم والحرب على السواء .

رئيس الكتاب والدفتردار :

وساعد الصدر الأعظم والوزراء فى الإدارة فئة من الموظفين الإداريين على رأسهم رئيس الكتاب ، وفئة من الموظفين الماليين على رأسهم الدفتردار . وتولى رئيس الكتاب تنظيم علاقة الدولة بجيرانها من الدول الأخرى ، وإعداد التقارير التى يرفعها الصدر الأعظم للسلطان . وإصدار الأوامر والقرارات الى الولايات العثمانية . وفى هذه دلالة على أن رئيس الكتاب قام بما تقوم به وزارتا الخارجية والداخلية فى الدولة الحديثة .

وتولى الدفتردار الاشراف على مالية الدولة ، وهو يلى الصدر الأعظم فى الرتبة ، ويقف من رئيس الكتاب على قدم المساواة . وله الحق فى مقابلة السلطان مباشرة لعرض المسائل الخاصة بالميزانية . واشتملت الدفترخانة على خمس وعشرين قسما أو قلما منها :

١ - قلم بويوق روزمانه ، وهو قلم الادارة المركزية التى تأتى اليها التقارير من الأقلام الأخرى ، وعليه اعداد ميزانية الدولة سنويا أو كل سنتين .

٢ - قلم الباشمخاسب ، وهو رئيس الادارة التى تعد التقارير الخاصة بالضرائب المطلوبة من الولايات ، ويتولى القلم تسجيل العقود التى تخص الصالح العام للدولة .

الديوان :

واشتمل هذا الديوان على جميع وزراء القبة وغيرهم من كبار موظفى الدولة ، عند طلب المشورة فى شئون البلاد العامة . ومنذ عهد السلطان محمد الثانى (سنة ١٤٥١ م) تولى الصدر الاعظم رئاسة جلسات الديوان . وحضر هذه الجلسات الدفتردار وقاضى العسكر وأغا البنى شرية وأمير البحر .

وعقد الديوان اجتماعاته أربع مرات فى الاسبوع ، أيام السبت والاحد والاثنين والثلاثاء . واعتادت هذه الجلسات أن تنعقد فى الصباح ولا تنتهى الا فى ساعة متأخرة من الليل . وعند انتهاء الاجتماعات الاسبوعية يستقبل السلطان الأعضاء ليعرف آراءهم وما اتخذوه من قرارات .

الجيش :

بدأت الدولة العثمانية دولة عسكرية هدفها الأول التوسيع والفتح ، ولا هم للسلطة المركزية الا تأمين البلاد داخليا ليتفرغ الجيش للقتال . واستمدت الدولة أهم فرقها الحربية من المنبع الذى استمدت منه حكام الادارات والولايات .

فبعد تقسيم الاطفال المسيحيين واختيار احسنهم بنية ،
يبدأ الباقون المعروفون باسم « آجم أوغلان » أو الغلمان الاجانب
التدريب الخاص باعدادهم لتكوين فرق الجيش ، وهى الفرق
الحربية التى أطلق عليها اسم الينى شرية .

ولقى هذا النظام الحربى عناية فائقة من السلطة المركزية منذ عهد
السلطان أورخان ، المؤسس الاول للينى شرية . وبدأت قوة هذه الفرق
تعلو منذ عهد السلطان سليم الاول ، وتدخل فى تولى الوزراء وعزلهم
وحوالى نهاية القرن السادس عشر سمحت الدولة لافراد الينى
شرية بالزواج ، فكثر اعدادهم ؛ وبدأ الوهن يمتد الى صفوفهم ؛
حتى أصبح الابناء يرثون مراكز آباءهم وامتيازاتهم دون القيام
بالخدمات المطلوبة .

السباهى :

وتأتى فرق الخيالة المعروفة باسم السباهى فى المرتبة التالية
؛ للينى شرية ، ونظم العثمانيون هذه الفرق على أسس اقطاعية .
فمنحوا الجنود الممتازين من العثمانيين وغيرهم اقطاعات من
الارض مقابل تأديتهم الخدمات الحربية . والتعهد بامداد الجيش
كذلك بعدد من الفرسان بكامل عتادهم . وتفاوتت الاقطاعات
والتزاماتها ، فالقطاع الصغير يطلق عليه اسم « تيمار » والكبير
يعرف باسم « زعامت » . واستطاعت الدولة العثمانية أن تستمد
من هذه الاقطاعات فرقا كبيرة من الجيش . فجاء من اقطاعات
العثمانيين فى أوروبا على عهد سليمان الاول ثمانين الف فارس ،
ومن آسيا خمسين ألفا .

وتولى قادة فرق السباهى بعض ادارات الدولة وولاياتها .
ونظم السلطان سليمان القانونى شئون هذه الاقطاعات بعد
أن تفشت بين أصحابها روح التهرب من أداء الالتزامات الحربية
والاستقلال بأمورهم . فحرم على أصحاب الاقطاعات التصرف
فى أراضيهم أو السماح لابنائهم بأن يرثوا الاقطاعات دون موافقة
السلطان ، وجعل الوفاء بالالتزامات الحربية الشرط الاساسى
لاحتفاظ الملاك بأراضيهم .

الأسطول :

واهتم العثمانيون بإنشاء أسطول يؤازر حركات جيوشهم ،
فأكثر السلطان سليم من بناء السفن حتى أضحت للدولة العثمانية
أسطول حربي كبير . واستمد العثمانيون الاخشاب اللازمة
لبناء السفن من أراضي الغابات الواقعة حول شواطئ البحر
الأسود ، على حين زودت مناجم البغدان والافلاق وآسيا
الصغرى مصانع الدولة بما احتاجته من المعادن اللازمة لبناء
السفن .

وملأت الدولة العثمانية أساطيلها فى بادىء الامر بالجند
المرتزقة من الايطاليين واليونانيين ، الذين دخلوا فى خدمتها جريا
وراء المغام ، وعملوا أحيانا على استمرار هذه الحروب طمعا فى
بقاء خدمتهم . ثم قسم العثمانيون دولتهم إلى مناطق . لكل
منها نصيب معين فى تزويد السفن بالبحارة . لكن لم يبلغ
الأسطول العثماني درجة القوة التى بلغها الجيش ، إذ سرعان

ماترك الناس خدمة الاسطول ، وفضلوا نظام « البدل » ودفع المال ليحصلوا على الاعفاء من الخدمة البحرية ، لان الدولة ظلت برية لا بحرية . على أن قائد الاسطول تمتع بسلطات واسعة في الادارة المركزية ، فاشترك في جلسات الديوان ، وفي توجيه سياسة الدولة .

القضاء ورجال الدين :

وساعد السلطان في شئون الحكم والادارة بالعاصمة العثمانية شيخ الاسلام ، الذي يعينه السلطان من طبقة العلماء . وحرص السلاطين على كسب تأييد شيخ الاسلام في جميع الاعمال المدنية والحرية ، فمهمة شيخ الاسلام مراعاة اتفاق أعمال الحكومة ومشروعاتها مع نصوص القرآن واحكامه ، ولم تقتض الحكومة في أى عمل من الأعمال الكبرى ، أو تبرم معاهدة أو تعلن حربا الا بعد الحصول على موافقة شيخ الاسلام . وخضعت الهيئات القضائية كذلك لاشراف شيخ الاسلام . وقضاة العاصمة والاقاليم يتلقون منه الفتاوى والتعليمات ، فيما ليس منصوصا عليه في القرآن والسنة واجماع الفقهاء . ولا يجرؤ قاض مهما علت منزلته في مراتب القضاء على أن يعصى أوامر شيخ الاسلام .

الحكم العثماني في الولايات

نظام تقسيم الدولة العثمانية :

قسم العثمانيون دولتهم الواسعة الى مناطق ادارية ليسهل الاشراف عليها وحكمها ، وتطور هذا التقسيم مع نمو الدولة

وفتوحاتها . فانقسمت ممتلكات العثمانيين أول الامر الى مناطق اطلق عليها اسم صنجقيات أو لواءات للتمييز بين عمالها وعمال الحكومة المركزية ، فتولى كل منطقة حاكم يعرف باسم صنجق بيك ، أو أمير لواء . وأشرف على بكوات هذه الصناجق حاكمان يعرف كل منهما باسم « بكربك » ، أحدهما لمقاطعات الاناضول ، والآخر لمقاطعات أوروبا ، وذلك قبل أن يمتد حكم العثمانيين الى الشرق الأوسط العربى . وحمل كل من هذين الحاكمين كذلك لقب باشا ، الذى يبدو أنه مشتق من كلمة بادشاه الفارسية ، ومعناها خادم السلطان .

غير أن اتساع الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر الميلادى أدى الى ضم بعض الصناجق ، وخلق ولايات جديدة يتولى ادارتها باشوات من وزراء السلطان غالبا . وسارت ادارة هذه الولايات وفق نظم الحكومة المركزية ، لكل هيئة منها اختصاصها وسلطانها . وغدت الادارة المحلية على النحو الآتى :

الباشا :

وهو نائب السلطان ، ورأس الادارة العثمانية المحلية ، ووظيفته تطبيق قواعد الحكم العثمانى ، فيتلقى أوامر السلطان ، ويرسل الى الخزانة المال السنوى المفروض على الولاية ، دون تدخل الحكومة المركزية فى طرق جبايتها . ويتولى الباشا كذلك رئاسة ديوان الولاية ، الذى يساعده فى الحكم . وهو يعين

الصناجق ويعزلهم بعد أخذ رأى الديوان وموافقة السلطان .
ويساعد الباشا وكيل يعرف باسم « الكتخدا » ، يتغير مع
تغير الباشا . ومهمة الكتخدا التوقيع نيابة عن الباشا أثناء
غيابه ، وتصريف بعض شئون الولاية . وتراوحت مدة حكم
الباشا بين سنة وثلاث سنوات . ورمى السلطان الى عدم اطالة
بقاء الولاة ، للقضاء على الحركات الانفصالية ، التى يحتمل ان تجيش
بنفوس الولاة ، والعمل على الاستقلال بالبلاد التى يتولون ادارتها .

ديوان الباشا :

· وحكم الباشا فى ولايته عن طريق مجلس يعرف بالديوان .
ويضم هذا الديوان كبار موظفى الولاية من مدنيين وعسكريين
وكذلك القاضى والصناجق ، وهم حكام الاقاليم ، اى أن
هذا الديوان اشبه ما يكون بالديوان العام فى
القسطنطينية . ويدعو الباشا هذا الديوان الى الاجتماع اربع
مرات فى الاسبوع غالبا ، ومهمته النظر فى الشئون المالية للولاية ،
مثل فرض الضرائب ، وبحث الشكاوى القضائية او الادارية ،
ولم يستطع الباشا تنفيذ أى عمل من الاعمال الهامة دون
استشارة الديوان والحصول على موافقته .

الصناجق والكشاف :

وتولى اقسام الولاية - اى الصنجقيات - حكام برتبة
بك أو مير لواء . وجاء بعض هؤلاء الحكام من اهل الولاية ،
وذلك لتسهيل الادارة ومراقبة الباشا أيضا حتى لا يستغل

بشئون البلاد . وساعد الصناجق في أعمالهم طلبة الكشاف ، ومهمتهم ادارة المقاطعات في غياب الصناجق ، والمحافظة على الامن فيها وجمع الاموال الاميرية .

الحامية العثمانية :

واستقرت في كل ولاية حامية من الجيش العثماني ، مهمتها مساعدة الباشا والصناجق في توطيد الحكم العثماني . واسهم قادة الحاميات العثمانية في مساعدة الباشا في تنفيذ الاوامر الصادرة اليه من القسطنطينية ، وفي جمع الاموال الاميرية . واشتملت الحامية غالبا على فرق اسمها الاوجاقات ، لكل منها اختصاصها الحربي في الدفاع عن البلاد ، والمساعدة في تصريف الشئون المدنية كذلك .

ديوان الدفتردار في الولايات العثمانية :

وتولى الدفتردار الادارة المالية في الولاية . وتمتع باختصاصات واسعة ، منها جمع المال المطلوب من الولاية ، وارساله الى القسطنطينية ، ومراقبة الاقطاعات التي تمنح للجند ، ومحاسبة الباشا في آخر مدة ولايته . وساعد الدفتردار في اعماله ديوان الروزنامة الخاص بتسجيل الحسابات في الدفاتر الرسمية . وانقسم ديوان الروزنامة في الولاية الى عدة أقلام ، يرأس كل منها موظف يحمل لقب أفندي . فتولى واحد منها تسجيل الغلال المطلوبة من البلاد ، وتولى قلم آخر تدوين المقررات اللازمة للجند من

الاغذية والمربيات الى غير ذلك من النواحي التي تطلبها المسائل المالية .

القضاء:

وتولى قاضى العسكر فى الولاية تنفيذ القانون ، ومراقبة العمال كذلك . وترجع هذه التسمية الى اتخاذ السلطان قاض معه فى حروبه ليفصل فى المنازعات التى تنشأ بين الجند . ثم دأبت السلطات المركزية على تعيين قاض فى كل ولاية ، للاشراف على المسائل القضائية الخاصة بالجند . ولكن سلطة قاضى العسكر لم تلبث ان تناولت المسائل الجنائية والمدنية لاهالى الولاية أنفسهم ، فاصبح قاضى العسكر يعين القضاء فى سائر الولاية ، وينظر فى المسائل التى تستعصى عليهم . واشترك قاضى العسكر كذلك فى حضور جلسات ديوان الباشا ، ومراقبة العمال فى الولاية ومدى التزامهم لاحكام الشريعة فى اعمالهم .

وانطبقت هذه النظم عموما على مصر وغيرها من الولايات التزامهم لاحكام الشريعة فى اعمالهم .

الحركات القومية قبل القرن التاسع عشر

انحلال الادارة الحكومية فى الدولة العثمانية :

احتفظت الدولة العثمانية بممتلكاتها الواسعة فى البلقان والاناضول ومصر والشام والعراق ، وظلت سيادتها ماثلة واضحة فى شبه جزيرة العرب وشمال افريقيا ، حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادى . لكن الحكومة المركزية فى استانبول بدأت تهمل

ادارة هذه البلاد الشاسعة ، بسبب الضعف الذى طرأ على سلسلة من السلاطين الذين تولوا عرش الدولة ، وانتشار الفساد بين فرق البنى شرية والسباهية من الجيش . ذلك ان العرش العثمانى اعتراه عدد من السلاطين لم يكن لهم عمل غير الانغماس فى حياة القصور من الحريم والجوارى والدسائس ، مما ادى الى ترك شئون الدولة للوزراء فى العاصمة ، وللولاة فى الاقاليم . ثم ان جند البنى شرية أخذوا يتخلون عن تقاليدهم الحربية بانصرافهم الى الزواج ، وجمع المال ، وغدت فرقهم فى الولايات نموذجا سيئا للجشع والتدهور الخلقى .

لذا اصبح القرن الثامن عشر فى تاريخ الدولة العثمانية نقطة التحول . اذ توقفت عمليات الفتح والتوسع ، وتحولت الدولة من حالة الهجوم المتصل فى مختلف الجهات الى الدفاع عن كيانها واملاكها . ومن طلائع ذلك ما قامت به روسيا التى ادعت لنفسها مركز الصدارة فى عالم المسيحية بشرق اوربا ، منذ استيلاء العثمانيين المسلمين على القسطنطينية ، التى عرفها التاريخ احيانا باسم روما الثانية . فاعتبرت روسيا نفسها وريثة مجد القسطنطينية ، واطلقت على عاصمتها موسكو اسم روما الثالثة . ثم عمدت الى تقليد اظافر العثمانيين فى ولاياتهم البلقانية ، واثارة القلاقل والفتن فى مختلف ممتلكاتها الاخرى .

ثم تطلعت بعض الدول الاوروبية التى اصابها حفا وافرا من التقدم العلمى والاقتصادى الى حماية مصالحها فى بلاد الدولة

العثمانية . فأخذت تتنافس في الحصول على امتيازات اقتصادية وسياسية في هذه البلاد ، كما أخذت تفكر في تكوين امبراطوريات لها على حساب العثمانيين ، وغيرهم من أمم الشرق الاوسط والاقصى . وعمدت هذه الدول ، وهي البرتغال وهولندة وانجلترا وفرنسا ، الى اثارة الفتن بين اهالى الولايات ، وبث السخط على الحكومة العثمانية المركزية بينهم ، لنيل مطالبهم في سهولة ويسر دون قيد من السلطان وحكومته في العاصمة . واجتمعت هذه العوامل مع ازدياد شعور اهالى الولايات بسوء الادارة العثمانية ، فقامت حركات قومية عديدة ، اهمها حركة على بك الكبير في مصر ، والشيخ ضاهر العمر في الشام ، والثورة الوهابية في بلاد العرب ، وعلى باشا في البانيا ، وحركة اليونانيين في البلقان .

استقلال على بك الكبير بمصر :

وضح اضطراب الادارة العثمانية في مصر في القرن الثامن عشر الميلادى باختلال التوازن بين مصادر السلطة والحكم والادارة والنفوذ في الولاية . ذلك أن الدولة العثمانية قسمت السلطة في مصر بين والى العثمانى ، والحامية العثمانية ، والمماليك أصحاب البلاد قبل الفتح العثمانى لمصر ، اذ رأت السلطات العثمانية المركزية هدم القضاء نهائيا على قوة المماليك الحربية ، واستخدمت المماليك في حكم مصر والدفاع عنها ، وجعلتهم عنصر موازنة بين والى ورجال الحامية العثمانية . فتولى أمراء المماليك ادارة مقاطعات مصر المعروفة باسم الصناجق ، واشتهر زعيم أولئك المماليك باسم

شيخ البلد ، ومقره القاهرة ، وبعد ثانی شخصية في مصر بعد
الوالی او الباشا العثماني . وقام شيخ البلد بمهام الباشا عند
خلعه وتصريف شئون البلاد حتى يأتي الباشا الجديد .

واستطاع أحد أولئك الزعماء المماليك ، وهو علی بك الكبير ،
أن يقوم بالحركة الأولى الانفصالية في الدولة العثمانية . وهو
مسيحي الأصل من جورجيا القريبة من روسيا ، اذ خطف من
أهله ، وبيع في سوق الرقيق بالقسطنطينية . ثم جاء إلى مصر
حيث اشتراه إبراهيم كتحدا أحد أمراء المماليك في مصر (١٧٤٤ -
١٧٥٤ م) . وامتاز علی بك بقوة الشخصية ، واشتهر بالطموح
الواسع . فتطلع إلى إعادة مجد سلاطين المماليك ، والاستقلال
بمصر ، واستطاع أن يتغلب علی منافسيه من أمراء المماليك ،
وأن يتولى مشيخة البلد سنة ١٧٦٣ م .

وبدأت الفرصة سانحة أمام علی بك للاستقلال بمصر عندما
اشتبكت الدولة العثمانية في حرب مع روسيا سنة ١٧٦٩ م ،
اذ أرسل السلطان العثماني إلى علی بك يطلب منه أعداد بعض
الفرق الحربية للاشتراك في الحرب . غير أن أعداء علی بك اتهموه
لدى السلطان بعدم الاخلاص ، وأنه يعد القوة الحربية للخروج عن
طاعة الدولة ، فأصدر السلطان فرمانا بعزله عن مشيخة البلد ،
وهي وظيفته الرسمية . ولم يقبل علی بك الخضوع لقرار
السلطان ، وأعلن استقلاله بمصر .

وتوجهت همهة علی بك بعد ذلك نحو الفتوحات في

الخارج لينشئ الدولة المستقلة التى تطلع الى تحقيقها ، ويعيد مجد السلطنة المملوكية بالقاهرة . وسنحتله الفرصة سنة ١٧٦٩ ، للاتجاه الى الحجاز عند ما وفد اليه الشريف عبد الله أمير مكة يطلب منه النجدة ضد بعض منافسيه من رؤساء العرب المحليين . وفى سنة ١٧٧٠ م اعد على بك حملة كبيرة ، عهد بقيادتها الى محمد بك أبى الذهب . وأبحرت الحملة من القلزم (السويس) ، ونزلت فى ينبع بالحجاز . وانتصرت قوات محمد أبى الذهب ، واستولت على مكة ، وغدا الحجاز تابعا لمصر .

. وتطلع على بك بعد ذلك الى الشام ، ودخل فى مفاوضات مع الشيخ « ضاهر العمر » حاكم عكا ، وأرسل الى روسيا المشتبكة اذ ذاك فى حرب مع الدولة العثمانية - للحصول على مساعدتها فى هجومه على الشام . وتلدرع على بك فى تدبير هجومه على الشام بأن عثمان باشا والى دمشق أوى بعض المصريين الفارين عنده ، وامتنع عن تسليمهم له . وفى سنة ١٧٧١ م أرسل على بك قائده محمد أبى الذهب على رأس جيش الى الشام ، واستطاع أبى الذهب ان يستولى على دمشق واسط هذه السنة ، وتحقق حلم على بك الكبير .

على ان السلطان العثمانى عمدا الى الدس والخديعة ، فاستمال اليه أبى الذهب وأغراه بمحاربة على بك الكبير . فعاد أبى الذهب الى مصر ومعه معظم الجيش ، وهزم قوات على بك واستولى على مصر . وفر على بك الى الشام والتجأ

الى صديقه ضاهر العمر في ابريل سنة ١٧٧٢ م . ثم أعيد
على بك حملة عاد بها الى مصر لمحاربة أبى الذهب . لكنه هزم
عند الصالحية وأخذ أسرا الى القاهرة ، حيث مات متأثرا
بجراحه في مايو سنة ١٧٧٣ م . وبذلك عادت مصر الى سيادة
العثمانيين ، حتى انتزعها الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت
سنة ١٧٩٨ م من مراد بك وإبراهيم بك زعيمى المماليك
في مصر وقتذاك .

استقلال الشيخ ضاهر العمر بالشام :

عاصر حركة على بك الكبير واستقلاله بمصر خروج ضاهر
العمر شيخ قبائل صفد بالشام على الدولة العثمانية . اذ ساءت
مقاسد العثمانيين وولاتهم في الشام ، فاستولى على عكا وجعلها
قاعدة لمشروع الاستقلال لتلك البلاد . وبدأ ضاهر العمر
بتحصين عكا ، ثم أصلح قلعتى طبرية وصفد ، واستمال اليه
شيوخ قبائل العرب الشاميين في المناطق المجاورة له بفضل
سيرته الحسنة .

وانتهز ضاهر العمر كذلك نشوب الحرب بين العثمانيين
وروسيا ، وساعد على بك الكبير في التخلص من حاكم دمشق
العثمانى . وعند ما انقلب أبو الذهب الى خدمة السلطنة
العثمانية وتوجه الى مصر لحرب على بك ، أصبح الشيخ
ضاهر وحده في اقليم الشام . فحاول السلطان اثارة حكام
صيدا وبيروت على الشيخ ضاهر ، لكنه استنجد بروسيا

التي بعثت بعض سفنها الحربية فضربت صيدا وبيروت
يقابل مدافعها البحرية . وبذلك توطد مركز الشيخ ضاهر ،
وامتد سلطانته حتى اشتمل على أكثر أقاليم فلسطين وجزء
من لبنان ، ودخلت في حوزته صيدا وعكا وحيفا ونابلس وصفد
ويافا والرملة ، كما استولى على كثير من القلاع والأماكن
الخصيبة في شمال الشام .

لكن الدولة العثمانية لم تلبث أن استعانت بمحمد أبى الذهب
للقضاء على الشيخ ضاهر ، وأغرته بتنصيبه كذلك واليا على
الشام ، بعد ان صار واليا على مصر بعد على بك الكبير . وفي
سنة ١٧٧٥ م سار أبو الذهب على رأس حملة كبيرة الى الشام ،
فاستولى على يافا ، وأنزل بأهلها مذبحه ، زحف على عكا ،
ودخلها بعد أن ارتكب بها كثيرا من الفظائع . ثم توفي أبو الذهب ،
وتولت الدولة العثمانية القضاء على البقية الباقية
من قوة هذا الرجل العنيد ، الذي احتل عكا مرة ثانية .
فأرسلت القبطان حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٧٥ م لحصار
عكا ، وظلت مراكب الأسطول العثماني تضرب المدينة أربعة
أيام ، حتى هرب منها الشيخ ضاهر ، واغتاله أحد جنده وهو
في طريق الهرب . وهكذا انتهت حياة هذا الرجل الذي ظل
يتحدى الدولة العثمانية سبع سنوات متتالية .

الحركة الوهابية في بلاد العرب :

وظهرت اثناء هذه الحركات القومية في مصر والشام دعوة

دينية في شبه جزيرة العرب ، تهدف الى الاستقلال بالبلاد واصلاح شئونها ، وعرفت هذه الدعوة باسم الحركة الوهابية ، نسبة الى زعيمها المصلح محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩١ م) . ونشأ هذا المصلح في بلدة الغيينة في نجد ، ودرس الفقه على مذهب الحنابلة ، ثم سافر الى المدينة بالحجاز ليوصل دراسته ، وطوف في كثير من بلاد العالم الاسلامي ، فأقام نحو أربع سنوات في البصرة ، وخمس سنين في بغداد ، وسنة في كردستان ، وسنتين في همذان . ثم رحل محمد ابن عبد الوهاب الى أصفهان ، ودرس هناك فلسفة الاشراق والتصوف ، وعاد الى بلده اخيرا ، حيث اعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ، وخرج عليهم بدعوته الإصلاحية .

وجاءت دعوته الإصلاحية الجديدة نتيجة لاحتياسه بخطر الفساد والبدع التي تفشت بين المسلمين في مختلف البلاد التي زارها ، فدعا الى ازالة البدع والتوجه بالعبادة والدعاء الى الله وحده ، لا الى المشايخ والأولياء والأضرحة . وتأثر محمد بن عبد الوهاب في آرائه بمذهب الفقيه ابن تيمية ، اذ درس مؤلفاته ، وأعجب بما فيها من حرية الفكر في حدود الكتاب والسنة ، وما تنطوي عليه من دعوة الى مهاجمة المتصوفة وعدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها .

وحول محمد بن عبد الوهاب مبادئ ابن تيمية الى برنامج سياسي ، لانه أدرك أن لا نجاح لآرائه مادام سكان بلاد العرب

خاضعين للدولة العثمانية ، التى أمست تعد كل اصلاح خطرا على كيانها . وعرف محمد بن عبد الوهاب كذلك انه لا بد من سند سياسى يعزز دعوته الإصلاحية الدينية ، لأن النظريات لا تنتصر بقوتها الروحية فحسب ، بل بما يؤيدها من قوة عسكرية سياسية كذلك .

وبدت بلاد العرب ، عندما نادى محمد بن عبد الوهاب بدعوته ، أشبه شيء بحالتها زمن الجاهلية ، تتنازع القبائل فيما بينها وتُسود البغضاء بين شيوخها وأمرائها . واضطهد أمير العبيثة محمد بن عبد الوهاب ، فانتقل الى الدرعية حيث عرض مذهبه على أميرها محمد بن سعود ، فقبل هذا الأمير الدعوة الوهابية وتعاهد مع زعيمها على العمل لنصرة الدين الحق . وأوفى ابن سعود بعهده ، حتى اذا توفى سنة ١٧٦٦ م تولى ابنه عبد العزيز متابعة العمل فى سبيل الدعوة الوهابية ، فضم عبد العزيز الى نفوذه أولا اقليم نجد . وهو الموطن الاصلى للدعوة الوهابية ، وأصبحت الدولة السعودية الوهابية سنة ١٧٩٠ م أقوى دولة فى قلب بلاد العرب . وفى سنة ١٧٩٣ م تطلع عبد العزيز الى التوسع ، فاستولى على الاحساء واخذ يغير على اطراف العراق والشام .

وخاف أمير مكة التابع للدولة العثمانية من قوة الوهابيين الجديدة فى بلاد العرب ، ولا سيما ان الدولة العثمانية عجزت عن مواجهتها ، اذ أنصرف العثمانيون وقتلالتالى حروبهم ضد روسيا التى انزلت بجيوشهم هزائم متتالية . فاشتد إيمان الوهابيين

بأنفسهم حين ترامت إليهم أنباء هزيمة الدولة العثمانية أمام القوى الروسية المسيحية ، ورضاء الباب العالي بالخضوع لمطالب هذه الدولة . ونسب الوهابيون هزائم العثمانيين إلى تهاونهم في شئون الدين ، وانصرافهم إلى ملذاتهم وشهواتهم الخاصة .

وجهدت الدولة العثمانية عبثاً في القرن الثامن عشر الميلادي في القضاء على الوهابيين ، بتأليب الشريف العربي وإلى مكة والباشا العثماني حاكم بغداد على عبد العزيز آل سعود . فسار غالب شريف مكة سنة ١٧٩٧م على رأس حملة لحرب الوهابيين ، فانهمز هزيمة فادحة ، اضطر بعدها إلى التقهقر ، وسمح وإلى مكة للوهابيين بالحج إلى الكعبة .

وفي العام التالي ، أي سنة ١٧٩٨م ، أعد سليمان باشا وإلى بغداد حملة كبيرة أرسلها بقيادة وكيله ، الكخيا على باشا ، لحرب عبد العزيز آل سعود ، فلقيت الحملة أهوالاً جسيمة في الصحراء ، من العواصف والظما والجوع وغارات البدو المفاجئة ، واضطر جيش العراق إلى العودة إلى بغداد سنة ١٧٩٩م .

وبلغت قوة الوهابيين أقصاها ، وتلاشت سلطة العثمانيين في شبه جزيرة العرب . وبدأ الوهابيون في مطالع القرن التاسع عشر ينشرون دعوتهم خارج بلاد العرب نفسها . لكن الدولة العثمانية عمدت إلى استرداد نفوذها في الحجاز ، لأن بقاء هذه البلاد في يد السلطان ضروري لتدعيم اللقب الذي يحمله وهو

« حامى الحرمين » واتخاذَه لنفسه لقب خليفة المسلمين .
ووجد السلطان العثماني في محمد على والى مصر عضدا في
استرداد الحجاز ، فاصطدمت مبادئ الدعوة الوهابية بالاطماع
السياسية التى نشأت في نفس محمد على ، ورغبته في تأسيس
دولة اسلامية خاضعة له .

وبعث محمد على حملة بقيادة ابنه طوسون نزلت في ينبع
سنة ١٨١٢ م ، وانتصرت على الوهابيين . ثم بعث محمد على
امدادا الى ابنه طوسون ، استطاع أن يستولى بها على جدة ومكة
والطائف . واخيرا ارسل محمد على ابنه ابراهيم كذلك الى
الحجاز ، واستطاع ابراهيم أن يستولى على الدرعية في ابريل
سنة ١٨١٨ م ، ويأسر عبد الله قائد الوهابيين . ثم بعث به الى
القاهرة حيث نقل منها الى القسطنطينية . وهناك أعاد
العثمانيون عبد الله ، وبسطوا سلطانهم مرة أخرى على بلاد
العرب . غير أن الدولة السعودية الوهابية نهضت مرة أخرى
في القرن العشرين ، بفضل جهود الملك عبد العزيز بن سعود
الذى اشتهر باسم طويل العمر ، وهو أبو سعود ملك الوهابيين
في الوقت الحاضر .

الحركات القومية في البلقان :

انفقت بلاد البلقان مع البلاد العربية في سخطها على الحكم
العثماني ، وانتعشت الحركات القومية بين شعوب البلقان منذ

أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، بسبب نهضة الاداب اليونانية ، وقيام الثورة الفرنسية التي ترددت أصداؤها لا في اليونان فحسب ، بل في سائر بلاد البلقان . على أن أول قادة الحركات في البلقان هو الكاتب اليوناني ريجاس (١٧٥٣ - ١٧٩٨ م) ، وهو من أهل الأفلاق (رومانيا الحالية) ، تعلم في باريس ، ووضع أغاني شعبية حملت طلائع الثورة القومية في اليونان . ثم أسس ريجاس جمعية سرية ساعدت على تنمية الشعور القومي ضد العثمانيين في كثير من البلاد البلقانية . وفي أثناء اقامته ببلاد المجر وقع ريجاس في يد البوليس بسبب وشاية بعض أعدائه ، وسلمته الحكومة المجرية الى السلطات العثمانية ، وأعدم في بلغراد سنة ١٧٩٨ م ١٠

وفي أيام الثورة الفرنسية تكونت جمعيات سرية أشهرها « جماعة الاصدقاء » اليونانيين ، التي أسسها أربعة من التجار في باريس . واتسع نشاط هذه الجمعية حتى أصبحت تضم عددا كبيرا من الأعضاء وجعلت هدفها الأول طرد الاتراك من أوروبا وإعادة مجد الامة اليونانية القديمة ١٠

وجاءت الفرصة المواتية لنشوب حركة الاستقلال اليوناني عندما نجح على باشا ، والي يانينة في الانفصال عن الدولة العثمانية ، اذ انتهز هذا الوالي أحوال الفوضى التي سادت ممتلكات العثمانيين في أوروبا ، من جراء حروب نابليون ، وعدم استقرار الامور على شواطئ البحر الادرياتي ، واقتطع لنفسه

امارة واسعة على شواطئ البانيا ، واستقل بها عن الحكومة العثمانية في استانبول . وخضعت لهذا الوالى قبائل البانيا وشمال اليونان ، واصبح قوة خطيرة في مطلع القرن التاسع عشر الميلادى . على ان الدولة العثمانية استطاعت ان تقضى على هذه الحركة القومية الباكرة سنة ١٨٢٢ م . اذ بعث السلطان محمود حملة قضت على مقاومة على باشا وقبضت عليه في يانينا ، ثم اعدمته في نفس السنة .

وعاصرت ثورة على باشا حركة قومية في بلاد الصرب ، وهى كذلك وليدة فساد الحكم العثمانى ، اذ خضعت ادارة بلاد الصرب لجند البنى شرية المقيمين في بلغراد . ولم يكن لاولئك الجند من عمل سوى ابتزاز الأموال وجمع الضرائب . فاشتد حنق الاهالى في الصرب ، ولا سيما الفلاحين ، وانتشرت بينهم الاغانى الشعبية التى تذكرهم بمجدهم القديم . ووطد اولئك الفلاحون فرصة للتدريب الحربى اثناء الحروب التى نشبت احيانا في بلادهم بين العثمانيين والنمسا وروسيا .

ثم جاءت اخبار الثورة الفرنسية ومبادئها حافزة لاهل الصرب على القيام بثورة ضد البنى شرية والادارة العثمانية ، والعمل على استرداد حريتهم . ووجدت حركة الصرب القومية زعيما لها في شخصية جورج بتروفتش ، وهو المعروف باسم قره جورج ، اى جورج الاسود . وهو ممن اشترك في حروب النمسا ضد العثمانيين سنة ١٧٨٨ - ١٧٩١ م ، وادرك حقيقة

مطالب أهل الصرب ، وميولهم القومية .

وبلغت ثورة الصرب أشدها في مطلع القرن التاسع عشر ،
اذ استطاع جيش الصرب بقيادة قره جورج أن يهزم البنى
شرية ، ويفصل الصرب من التبعية للدولة العثمانية . غير أن
العثمانيين استطاعوا سنة ١٨١٣ م استعادة هذه البلاد . لكن
الحركات القومية اندلعت مرة أخرى في بلاد البلقان في القرن
التاسع عشر الميلادي ، ونالت هذه البلاد استقلالها التام
الواحدة بعد الأخرى بفضل المساعدات التي لقيتها من معظم
الدول الأوروبية .

الفصل السادس

انتشار الاسلام فى السودان والشرق لاقصى

أثر التبادل التجارى والطرق الصوفية

فى دخول الاسلام الى السودان

التجارة بين العول الاسلامية والسودان :

المقصود ببلاد السودان هنا جميع الاقاليم النهرية والصحراوية الواقعة جنوبى مصر والصجاء الكبرى . واهتم عمرو بن العاص بعد سنة واحدة من فتح مصر بالعلاقات الكائنة بين البلاد المصرية والسودانية منذ العصور القديمة ، ثم عقد خلفه عبد الله بن أبى سرح مع أهل البلاد الواقعة جنوبى الأطراف المصرية معاهدة اسمها البقط ، وهى كلمة لاتينية مأخوذة من أصل مصرى قديم ، ومعناها الاتفاقية . وحافظت الدول الاسلامية التى تأسست فى مصر - مثل الطولونيين والاختشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك - على مختلف العلاقات القديمة بين مصر والسودان . كما نشأت علاقات تجارية أخرى بين السودان وشمال أفريقيا منذ أصبحت تونس وغيرها من البلاد الافريقية جزءا من الدولة الاسلامية . ودأب التجار المسلمون من مختلف الاقاليم على ارتياد بلاد السودان الغربى والوسط والشرقى بمنتجات مصر وشمال أفريقيا من المنسوجات والمصنوعات

الجلدية وأدوات الزينة ، والعودة من السودان بمنتجاته من الذهب والملح والعاج وريش النعام والصمغ .

وعرف التجار المسلمون أيسر السبل والمسالك الى بلاد السودان ، ووسائل اجتيازها . واشتهرت ثلاثة طرق رئيسية سارت فيها القوافل التجارية من شمال افريقيا ومصر الى السودان ، منذ العصور الوسطى حتى بداية العصور الحديثة ، فالطريق الاول ممتد من تلمسان بمراكش الى تمبوكتو على نهر النيجر في السودان الغربي ، حيث قامت دولة الكانم ودولة البورنو وغيرهما من الدول الافريقية . والطريق الثانى يبدأ من تونس ويتجه الى كانو بالسودان الاوسط مارا بواحة غدامس .

واستغرقت الرحلة عبر هذين الطريقين نحو ثمانية أسابيع ، وسارت القوافل خلال معظم هذه الأسابيع في الصحراء الكبرى . ومن ثم حمل التجار كميات وافرة من الماء تساعدهم على اجتياز المساحات الشاسعة الخالية من الآبار ، واجتناب الهلاك عطشا في الطريق . أما الطريق الثالث فامتد من مصر الى السودان الشرقى ، ولم يكن نهر النيل صالحا للملاحة في جميع شهور السنة ، أو في كل أجزائه . بسبب الجنادل التى تعترض مجراه . ولذا قام منذالقديم البعيد طريق هام للقوافل يبدأ من اسيوط وينتهى عند الفاشر وهو المعروف باسم درب الأربعين اشارة الى المدة التى تستغرقها القافلة في السفر على

هذا الطريق . والواضح من تاريخ الفتح الاسلامى ان الاسلام وصل الى الاطراف الشمالية السودانية ، اى النوبة ، من هذا الطريق الثالث ، وهو الطريق المصرى ، بدليل استمرار العلاقات التجارية والحربية بين هذه الاطراف الشمالية والدول التى تعاقبت فى مصر منذ ايام عمرو بن العاص الى ايام السلطان قانصوه الغورى .

انتشار الاسلام فى الصحراء الكبرى :

وفى الاسلام الى بلاد السودان عبر الطرق التجارية الاخرى بعد استقرار المسلمين بشمال افريقيا ، اذ وجد من سكان الصحراء الكبرى قوة ساعدته على الانتشار . ومن الامثلة على ذلك قبائل الطوارق الذين اعتنقوا الدين الاسلامى وتعمقوا فى فهم شرائعه ، واستولت عليهم دوافع الحماسة لنشر هذا الدين بين جيرانهم من القبائل ، ومن الامثلة كذلك ما قام به احد شيوخ قبيلة لتونة فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، اذ حج الى مكة ، وبحث فى المراكز الدينية بشمال افريقيا عن عالم يستطيع ان يقوم معه على نشر الاسلام بين بعض القبائل الصحراوية الباقية على الوثنية ، ووجد ضالته فى فقيه اسمه عبد الله بن ياسين :

ولقى هذا الفقيه متاعب فى تعليم اهل تلك القبائل مبادئ الدين ، وحثهم على التخلص من عباداتهم الوثنية القديمة ، واستخدم العنف والشدة دون جدوى ، ولم يتبعه سوى افراد قلائل . ومن ثم تحول عبد الله بن ياسين الى بلاد السودان

الغربي ، وكرس جهوده ونشاطه لنشر الاسلام بين السودانيين
الغربيين ، فرحل مع جماعة من أتباعه الى جزيرة في نهر السنغال
وبنى فيها رباطا انقطع فيه للعبادة ، حيث جاءت جماعات من اهل
البلاد المجاورة واعتنقوا الاسلام على يده .

وازداد اتباع عبد الله بن ياسين يوما بعد يوم في السنغال ،
حتى بلغوا نحو الف رجل . وفي سنة ١٠٤٢ م وجد عبد الله أن
الوقت حان للخروج على رأس أولئك الاتباع لنشر الاسلام بين
قبائل الصحراء الكبرى مرة أخرى ، فرحل الى مساكن هذه
القبائل برجاله الذين اشتهروا باسم المرابطين ، نسبة الى الرباط
الذي اتخذته هذا الزعيم في الجزيرة الواقعة في نهر السنغال ،
ونجحت جهود أولئك المرابطين في تحويل كثير من قبائل الصحراء
الكبرى الى الاسلام . وتوفي عبد الله بن ياسين سنة ١٠٥٤ م ،
بعد أن بلغت دعوته الى كثير من البلاد ، وأسس أتباعه فيما بعد
دولة المرابطين في مراكش .

ومن مراكش امتد الاسلام امتدادا جديدا الى السودان الغربي
على عهد يوسف بن تاشفين (١٠٦٢ م) ، وهو ثاني أمراء دولة
المرابطين بمراكش . ويرجع الفضل في ذلك الى مساعدة بعض
القبائل ومنها لمتونة بالصحراء الكبرى ، اذ امتد نفوذ هذه القبيلة
بالذات الى أطراف السودان ، واشتهر زعمائها بالحماسة الدينية
والتفاني في نشر الاسلام . ففي سنة ١٠٠٩ م (٤٠٠ هـ) أسلم
ساقس ملك سونرهاي في الجنوب الشرقي من تمبكتو ،

وأصبحت الممالك القائمة على النيجر الأعلى مركزا اسلاميا واسعا .

واتسعت مدينة تمبكتو الواقعة على طريق التجارة بين شمال أفريقيا والسودان ، بعد أن أصبحت مركزا للدراسات الاسلامية سنة ١٠٧٧ م ، اذ وفد اليها الطلاب في أعداد كبيرة ، واجتذبتهم شهرة المدينة بحسن استقبال الوافدين اليها في طلب التفقه في الدين . وزار ابن بطوطة ، هذه المدينة في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، ووصف حماسة أهلها لتعلم القرآن ، ومواظبتهم على حضور صلاة الجمعة ، حتى ان المرء لا يجد له مكانا في المسجد اذا لم يكر في الحضور .

وتكونت في السودان الغربي كذلك مملكة مالي ، وهي المملكة التي أسستها قبائل المندنجو التي اشتهرت بحماستها لنشر الاسلام بين جيرانها من قبائل التكرور . وبلغت مملكة مالي ذروتها التجارية في ذلك الوقت ، وجاءها التجار في أعداد كبيرة من المغرب الأقصى وتونس ومصر . وزار احد ملوكها وهو منسى موسى (١٣٠٧ - ١٣٣٢ م) كثيرا من البلاد الاسلامية في طريقه الى الحج في مكة ، وأجزل العطاء والبذل في الطريق حتى صارت هداياه مضرب الامثال .

وانتشر الاسلام في السودان الاوسط منذ نشأت دولة المرابطين في مراكش ، اذ أسلم سلطان بلاد البورتو الواقعة على الشاطئ الغربي لبحيرة شاد ، وكذلك سلطان بلاد الكانم ،

المتدة على طول الشاطئ الشمالى لهذه البحيرة . واشتهرت بلاد الكانم بنشاطها التجارى فى السودان كله ، فازدادت شهرتها بعد اعتناقها الاسلام ، وانتشر نفوذها بين كثير من القبائل فى السودان الشرقى حتى اطراف مصر والنوبة .

وهكذا التقت أهم تيارات التوسع الدينى الاسلامى فى السودان ، واستقر الاسلام فى قلب افريقيا ، واصبح فى مفرق يساعد على الانتشار فى اتجاهات عديدة . ذلك ان التيار الاسلامى ، الواصل الى الاطراف الشمالية السودانية من مصر عن طريق درب الأربعين ، امتد الى جوف السودان منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، بسبب هجرة بعض القبائل العربية من مصر الى السودان ، بعد زوال الدولة الفاطمية ، فضلا عن الحملات المتكررة التى أنفذها سلاطين الايوبيين والمماليك لتسوية علاقاتهم بمملكة دنقلة المسيحية . وتجار كردفان فى السودان الشرقى فى العصر الحاضر يفتخرون بانتسابهم الى سلالات هذه القبائل العربية . وفى بلاد كردفان وما جاورها التقى هذا التيار المصرى الاصل بالتيار المراكشى الواصل الى السودان الغربى عبر الصحراء الكبرى . وفى القرن الرابع عشر الميلادى جاءت قبائل عربية اخرى من تونس الى دارفور عن طريق بلاد الوادى والبورنو ، واعتنق ملك دارفور الدين الاسلامى على يد احد مشايخ هذه القبائل العربية ، واسمه احمد .

أسس احمد أسرة اسلامية فى دارفور ، اذ تزوج بابنة ملك

هذه البلاد ، ثم خلفه في الحكم ، وحكمها بعده سلالاته . على أن سكان دارفور لم يتحولوا الى الاسلام الا سنة ١٥٤٦ م على عهد احد ملوكها المتأخرين واسمه سليمان . وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر من الميلاد ، انتشر الاسلام في البلاد الواقعة بين كردفان وبحيرة شاد ، مثل وادي وباجرمى ، وغدت مملكة وادي أكبر الممالك الاسلامية في هذه الجهات من بلاد السودان ، منذ أسسها عبد الكريم سنة ١٦١٢ . ثم امتد الاسلام الى قبائل الحوصة ، وغدا لذلك منتشر في جهات واسعة من اراضي السودان .

الطرق الصوفية وأثرها في انتشار الاسلام في السودان : القادرية :

وساعد طوائف الطرق الصوفية في نشر الاسلام في السودان . وأولها طائفة الطريقة القادرية التي تنتسب الى مؤسسها وشيخها عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى ببغداد سنة ١١٦٦ م . وانتشرت هذه الطريقة في العراق والشام ومصر واليمن وتركيا والهند ومراكش والجزائر ، ووصلت الى السودان في القرن الخامس عشر الميلادي عن طريق الصحراء الكبرى على يد بعض المهاجرين من واحة توات ، وهي إحدى الواحات في القسم الغربي من الصحراء الكبرى . واتخذ أولئك المهاجرون وأتباعهم من بلدة والانا مركزا للدعوة ، ثم انتقلوا الى مدينة تمبكتو . وفي أوائل القرن التاسع عشر نشطت جماعة

القادرية في كل من الصحراء الكبرى والسودان ، وانتشر أتباعها ،
يدعون الى الاسلام بين القبائل الوثنية ، ونجحوا في اجتذاب
اعداد كبيرة الى الاسلام . ودأب القادرية على ارسال النابهين
من الداخلين في الاسلام من أبناء هذه القبائل الى مراكز طريقهم ،
بالقاهرة والقيروان وفاس ، ليتفقهوا في الدين ، ويدرسوا الطريقة
القادرية على شيوخها في هذه المراكز ، وليصبحوا انفسهم
شيوخا للقادرية بين قبائلهم ، ودعاة الاسلام بين القبائل المجاورة .

واتبع أهل الطريقة القادرية وسائل سلمية في نشر الاسلام ،
وظلوا أوفياء لمبادئ المؤسس الأول للطريقة ، وهو عبد القادر
الجيلاني ، اذ اشتهر هذا الرجل بحب الجار والتسامح الديني
والإبتعاد عن الاضطهاد في معاملة غير المسلمين ، على عكس
صاحب الطريقة التيجانية .

التيجانية :

ظهرت هذه الطريقة الصوفية الى جانب القادرية في مراكز ،
وتنسب الى مؤسسها أحمد بن محمد المختار التيجاني (ولد
سنة ١٧٣٧ م) . واستقر التيجاني في فاس ، وعاش بها حتى
وفاته سنة ١٨١٥ م . ورأى أتباع هذه الطائفة أن الجهاد واجب
لنشر الاسلام ، وأن تسامح القادرية لم يثمر في بعض الجهات
الصحراوية والسودانية التي دعوا فيها الى الاسلام . ورسم
الحاج عمر ، رئيس التيجانية في السودان الغربي ، الخطوط
الرئيسية لاتباعه ، فعمل أولا على تعليمهم بعض فنون الحرب ،

وأمدهم بالأسلحة ، ثم بدأ سنة ١٨٣٣ م سلسلة من الحملات لنشر الاسلام بين القبائل التى ظلت على الوثنية حول النيجر الأعلى والسنگال ، ولم يلبث أن صار قوة سياسية دينية ذات سلطان كبير .

وامتد نشاط الحاج عمر الى السودان الأوسط ، فأخضع لسلطانه عددا من القبائل ، وتوفى سنة ١٨٦٥ م فى إحدى غزواته . وتولى ابنه أحمد شيخو شئون البلاد التى استولى عليها أبوه ، وظلت طائفة التيجانية صاحبة النفوذ الأعلى فى السودان الغربى حتى استولت فرنسا على هذه البلاد فاقترص نشاطها على السودان الأوسط .

الميرغانية :

أما طائفة الميرغانية فانتشرت فى السودان الشرقى ، ولقيت نجاحا كبيرا فى نشر الاسلام بين كثير من القبائل الوثنية هناك ، وترجع تعاليم هذه الطريقة الى السيد أحمد بن ادريس ، وهو أحد فقهاء مكة . وعاش السيد أحمد بن ادريس معظم حياته فى المدينة ، وتولى التدريس بها حتى سنة ١٨٣٨ م ، فضلا عن تأسيسه الطريقة الصوفية المعروفة باسم القدرية . وأرسل السيد أحمد بن ادريس سنة ١٨٣٥ م أحد أتباعه المشهورين بالتقوى ، وهو محمد عثمان الميرغانى من أهل الطائف للدعوة الى الاسلام فى افريقية ، فعبّر البحر الأحمر الى القصير واتخذ طريقه الى اسوان ومنها الى دنقلة ، ولقيت

جهوده نجاحا باهرا بين الدناقلة ، اذ اجتلبتهم امائته في تسوية الخلافات بين الناس . ومن دتقلة انتقل محمد عثمان الميرغاني الى كردفان ، حيث بدأ دعوته الى الاسلام بين الوثنيين ، واستجاب له الكثيرون منهم ، ولذا امتد مقامه هناك ببلدة بارا ، وتزوج وأنجب ابنه عثمان وغيره من الاتباء ، وصار زعيما دينيا شهيرا . ثم انتقل هذا الزعيم الى اقليم كسلا ، حيث أسس بلدة الختمية ، كما أسس الطريقة الميرغانية . وعاد أخيرا الى الحجاز وتوفى بمكة . وخلفه في مشيخة الطريقة الميرغانية ابنه السيد محمد سر الخاتم ، وقام أبناؤه الآخرون بالدعوة الى هذه الطريقة بأنحاء السودان ، وتغلب أتباعها في الاقاليم الشمالية والشرقية من السودان في العصر الحاضر .

السنوسية :

أسس هذه الطريقة فقيه جزائري سنة ١٨٣٧ م ، وهو سيدي محمد بن علي السنوسي ، الذي نادى باصلاح شأن الاسلام ، ونشر العقيدة الاسلامية الصحيحة . واستطاع السنوسي أن يؤسس له دولة دينية ، يعتمد افرادها على القرآن والسنة ، وتجنب التضرع للاولياء وزيارة القبور مع الامتناع من شرب القهوة والتدخين ، وجعل مقر هذه الدولة واحة جقوب في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس . وفي هذه الواحة تلقى دعاة السنوسية تعاليم مؤسسها ، ثم انتشروا بين قبائل الصحراء الكبرى ، ولا سيما جنوبي فزان وتيبستي ، ولم يلبثوا

ان وصلوا الى مدن السودان . واشتهر السنوسيون في وادئ
بشراء العبيد ، وارسالهم الى جفبوب لتعليمهم الدين الاسلامى
واهداف السنوسية ، ثم ارسالهم الى اوطانهم مرة أخرى لنشر
الاسلام بين اقوامهم . وتجلى نشاط السنوسيين كذلك في
تحويل جماعات وثنية من قبيلة يلى الى الاسلام ، ومن السودان
امتد نشاط السنوسية حتى بلغ الحبشة .

انتشار الاسلام فى الحبشة

على أن امتداد الاسلام الى الحبشة يرجع الى عهد الرسول
الكريم ، اذ المعروف ان المسلمين الاولين انتقلوا الى هذه البلاد
عملا بنصيحته عندما اشتد اضطهاد قريش لاتباعه . ثم امتدت
الدولة الاسلامية امتدادها المعروف فى مصر ، وقامت بين مصر
والنوبة منذ ايام الفتح الاسلامى لمصر المعاهدة المعروفة بأسم
البقط . وربما امتد الاسلام الى الحبشة عن طريق النوبة
على ان الأرجح هو ان الاسلام وصل الى الحبشة عن
طريق الجاليات العربية التى عرفت البحر الاحمر ومعابره ،
واستقرت على ساحل الحبشة المقابل لساحل شبه جزيرة العرب .
وفى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى كثر عدد الجاليات العربية فى
المدن الساحلية للحبشة ، واستطاعت هذه الجاليات ان تصبح
جماعة تجارية ، وأسست دولة اسلامية منفصلة عن المملكة
الحبشية المسيحية فى داخل البلاد . وادى ذلك الى تشجيع
الدعاة المسلمين على التوغل داخل الحبشة نفسها لنشر الاسلام ،

فقام احدهم ، واسمه ابو عبدالله محمد في منطقة أمجرة، واجتمع حوله أتباع عديدون سنة ١٣٠٠ م .

وعلا شأن المسلمين في بلاد الحبشة وكثر عددهم حتى اضطر بعض الحكام الأحباش الى معاملتهم بالحسنى ، وسمحوا لهم بالخدمة في أقاليمهم . على أن معظم المسلمين بالحبشة استقروا في المنطقة الممتدة من الاطراف الشمالية حتى سنار . ثم اعتنق بعض الحكام الأحباش الدين الاسلامي ، مثل جراني أمير عدل ، واتخذ هذا الامير لنفسه اسم أحمد ، وعمل على نشر الاسلام في امارته ، بل بلغت به الحماسة الى السير بجيش للهجوم على أماره من الامارات الحبشية التي لم يصلها الاسلام ، واستطاع تحويل كثير من زعماء هذه الامارات مع اتباعهم الى الاسلام .

على أن حركة انتشار الاسلام في الحبشة اصطدمت بأطماع الأوروبيين التي أخذت طلائعها تصل الى البحر الاحمر، بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح . اذ تدخل البرتغاليون في شئون الحبشة ، وساعدوا الأحباش على التخلص من سيادة المسلمين . واغلب البرتغاليون على أماره احمد جراني سنة ١٥٤٣ م ، وأنزلوا به هزيمة لقي فيها مصرعه . غير أن أهل الحبشة لم يلبثوا ان اقلبوا على البرتغاليين ، حتى أخرجوهم من البلاد سنة ١٦٣٢ م . واسترد المسلمون مكانتهم في بلاد الحبشة بعد ذهاب البرتغاليين، وغدت الوظائف الحكومية التي تطلب أمانة وحذقا تعهد الى أفراد

من المسلمين . ولم يلبث المسلمون ان ملكوا ناحية التجارة في القرن التاسع عشر الميلادى ، ونعموا بأملاك واسعة ، واشراف كامل على المدن الكبيرة وأسواقها ، وظفروا بنفوذ واسع في سائر البلاد ، واستطاع المسلمون من اهل الحبشة ان ينالوا ثقة اخوانهم من المسيحيين ، وظلوا يعيشون في سلام وهدوء رغم الأحداث السياسية التي مرت بها بلاد الحبشة في العصر الحاضر .

انتشار الاسلام في الشرق الاقصى

تجارة المسلمين في الشرق الاقصى :

مهدت التجارة كذلك الى انتشار الاسلام في الشرق الاقصى . اذ امتدت تجارة المسلمين الى شواطئ الهند والهند الصينية والصين منذ توغلت الدولة الاسلامية في جوف آسيا ، واشتملت على اجزاء من بلاد الهند والمناطق الاسيوية المتاخمة لاطراف الصين ، وهيمنت على الطرق التجارية الرئيسية في آسيا . ووصل التجار المسلمون منذ القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) الى الصين ، وجزر الهند الشرقية ، وغيرهما من بلاد الشرق الاقصى ، للحصول على مواردها الطبيعية من الحرير والكافور والقرنفل وخشب العود والصندل وجوز الطيب وجوز الهند والورق ، وحمل التجار معهم الى هذه البلاد مقابل هذه السلع بعض منتجات الدولة الاسلامية مثل السكر والزمرد والقطن والاقمشة والعاج وغيرها من صناعات مصر والعراق والشام .

وجاء ذكر متاجر الشرق الاقصى منذ القرن التاسع الميلادى

(الثالث الهجرى) فى رحلة سليمان التاجر . ويتضح مما رواه سليمان أن المسلمين اهتموا بالحصول على حريير الصين، وسلكوا من أجل ذلك الطريق البرى المعروف بأسم طريق الحرير، المار وقتذاك عبر سمرقند وتركستان الصينية، كما ركبوا من رأس الخليج الفارسى بالعراق الى الصين كذلك من أجل الحرير . وزاد نشاط المسلمين عبر الطريق البحرى حتى أن الرحالة ابن خرداذبة كتب سنة ٨٤٦ م دليلا للتجار المسلمين لارشاد المسافرين على هذا الطريق البحرى، الذى بدأ من الأبله عند مصب نهر دجلة الى الهند والصين، ووصف فيه أهم المحطات التجارية الواقعة على هذا الطريق .

وسارت السفن الاسلاميه وقتذاك فى محاذاة الشاطئ الفارسى وساحل الهند حتى ملبار فى الهند، ثم طافت حول ساحل كروماندل الى الصين، واستغرقت هذه الرحلة ثلاثة أشهر وأحيانا شهرين .

ولقى التجار المسلمون عبر الطريق البحرى السالف كل مساعدة من الجاليات الاسلاميه فى موانئ الهند، وحصلوا على امتيازات عديدة من السلطات المحليه للمتاجرة فى طمانينة وسلام، وتأدية شعائر الاسلام فى غير مضايقة . ولم يلبث نشاط التجار المسلمين فى الصين أن أدى كذلك الى قيام جاليات اسلامية فى الموانئ الصينية، فاستقرت جماعات من التجار المسلمين فى ميناء خانفو، جنوبى شنغهاى الحالية، ومدينة كانتون كذلك منذ القرن التاسع الميلادى .

وادی نمو الجالیات الاسلامیة الى امتداد التجارة الى جزر الهند الشرقیة . وغدت الرحلة من مدینة سیراف علی الخلیج الفارسی الى شبه جزیرة ملقا (الملايو) وجزیرة جاوة سهلة ميسورة . واشتهرت مدینة سیراف منذ القرن العاشر الميلادی بأنها المركز الذی تلتقی فیہ جماعات تجار الشرق الاقصى بتجار فارس والعراق وبلاد العرب والحبشة ومصر % وبلغ من حب اهلای سیراف للتجارة والسفر فی بحار الشرق الاقصى ان ظل عدد كبير منهم یحیا حیاته علی ظهر السفن % وروی تاجر من اهل سیراف انه قضی أربعین عاما من عمره علی ظهر سفینته لا یغادرها .

انتشار الاسلام فی جزر الهند الشرقیة :

وادی نشاط التجار واستقرارهم فی موالی الشرق الاقصى الى انتشار الاسلام فی اجهات جدیدة ، ومنها جزر الهند الشرقیة التى وفد الیها الدعاة المسلمون فی سفن التجار الذین أخذوا یتغلغلون بین مجموعة هذه الجزر . وتنقسم هذه المجموعة من الجزر جغرافیا الى جزائر سنده الكبرى التى تضم بورنیو وسومطرة وسلیبیس وجاوة ، ثم سنده الصغری التى تشمل بالی ولبک وسمباوة وملقا .

وداب التجار المسلمون الذین جاءوا الى جزر الهند الشرقیة علی الاندماج مع اهلها والتزوج منهم ، وتبع ذلك غالباً اعتناق الزوجات للاسلام . وكذلك سائر افراد البیت من خدمه

وما استجد عليه من الابناء . واستقر الاسلام بذلك في الاطراف الساحلية لجزر الهند الشرقية ، واكتسب قواعد مكنت الدعاة والحكام المسلمين فيما بعد من نشر الاسلام في الجهات الداخلية ، وتتجلى المراحل التي تم الاسلام فيها الانتشار في جزر الهند الشرقية في جزيرتي سومطرة وجاوة اللتين أصبحتا نموذجا الدعوة الى الاسلام في سائر الجزر الاخرى .

تنتشار الاسلام في جزيرة سومطرة :

وبلغ انتشار الاسلام اقصاه في الركن الشمالي من جزيرة سومطرة في القرن الثالث عشر الميلادي ، وغدت مدينة أتجيه في الركن الشمالي الغربي منها مركزا للدعوة الى الاسلام ، واسلم ملكها ، على أيدي جماعة من التجار والدعاة المسلمين ، وتبعه كثير من السومطريين . وفي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي أرسل شريف مكة دعاة الى جزيرة سومطرة ، ودل الشيخ احمد ، رئيس اولئك الدعاة ، على جدارة شخصية واحساس بمسئوليته . اذ اتجه الى مدينة سمدره على الساحل الغربي من الجزيرة ، حيث حاضرة المملكة التي تولاهها من السومطري ، وظل مقيما بها حتى اقنع الملك مراسيلو باعتناق الاسلام ، واطلق عليه لقب الملك الصالح .

واشتهر ابناء الملك مراسيلو بالتقوى والعمل على نشر الاسلام ، واشاد ابن بطوطة الذي زار سمدره سنة ١٣٤٥ م بالملك الظاهر بن الملك الصالح ، فروى عنه انه مسلم سني ،

غيور على دينه ، مولع بمناظرة الفقهاء ورجال الدين ، وبلاطه مقصد الشعراء ورجال العلم . وبلغت شهرة هذه المملكة شأوا عاليا ، حتى وفد إليها قضاة من فارس والهند .

ومن هذه المملكة الساحلية انتشر الاسلام في سائر سومطرة ، فاعتنقه أهل بلدة لامبرى الذين اشتهروا بالاخلاق الحميدة والتمسك بأداب الدين الاسلامى، ثم الى الجهات الداخلية من جزيرة سومطرة حيث مملكة مناجكباو الواقعة اطرافها حول خط الاستواء . واشتهرت هذه المملكة بأنها معقل من معاقل الهندوكية ، غير ان الاسلام نفذ الى قلوب أهل هذه المملكة ، وأصبحوا أشد الناس إيمانا به .

ثم تحمس السومطريون المسلمون الى نشر الاسلام بين جيرانهم فظلوا يعملون لذلك من تلقاء أنفسهم ، حتى هاجم الهولنديون جزيرتهم ، وكثرت الارساليات المسيحية للتبشير بالديانة المسيحية . على أن انتشار الاسلام وازدياد اعداد المسلمين في سومطرة لم يتأثر بهذه الحركة التبشيرية والاستعمار الأجنبى الذى عملت تحت حمايته ، بل قامت في سومطرة أخيرا نهضة دينية سياسية ، هى نواة الولايات الاندونيسية فى العصر الحاضر .

انتشار الاسلام في جزيرة جاوة :

أشبعت جزيرة جاوة اختها سومطرة في اعتناق الاسلام ، اذا

قامت بها منذ القرن الثالث عشر الميلادي مراكز تجارية هامة استقرت بها جاليات من المسلمين على الشاطئ الشمالي مثل جيرة وثوبان وجرسك . وخضعت معظم اجزاء الجزيرة وقتذاك لمملكة ماجاباهيت الهندوكية ، على حين قامت في الاجزاء الغربية من الجزيرة امارات صغيرة مستقلة خاضعة لمملكة باجاجاران . واشتهرت هذه الامارات بالثراء والقوة ، غير ان التنازع لم يلبث أن دب بين أبناء الاسر الحاكمة فيها ، فمهد لزعماء الجاليات الاسلامية على الساحل أن ينشروا الدين الاسلامي بين ارجاء الجزيرة .

وفي سنة ١٤٧٨ م استطاع المسلمون الجاويون ان يقضوا على مملكة ماجاباهيت ، فهرب حكامها الهندكيون الذين آثروا البقاء على دينهم القديم . واخذ الاسلام يشق طريقه بعد ذلك الى شرق الجزيرة وغربها ، وانتشر الدعاة المسلمون بين الاهالي ، ولقنوهم التعاليم الاسلامية . ودأب بعض اهالي جاوة من الفقهاء على الذهاب الى مكة لدراسة اصول الدين ، ومن أولئك سنن كنج جاتي ، المولود بمدينة باسى بجزيرة جاوة ، اذ وحل هذا الرجل سنة ١٥٢١ الى مكة ، حيث درس فيها علوم الدين ثلاث سنوات . ثم عاد سنن بعد ذلك الى مدينة جاوة الوسطى ، ونال توفيقا باهرا في الدعوة الى الاسلام . وتزوج هذا العالم من أخت الملك دمك بالجزء الغربي من جاوة ، وادخل هذه المملكة في الاسلام بمساعدة نسيبه ، وغدت جاوة

كلها بذلك ، فضلا عن سومطرة مركزا اسلاميا لنشر الاسلام في
جزر الهند الشرقية وشبه جزيرة الملايو .

انتشار الاسلام في الملايو :

ومن هاتين الجزيرتين جاوة وسومطرة ، انتقلت جاليات
اسلامية الى شبه جزيرة الملايو منذ القرن الثالث عشر الميلادي ،
واستقرت اعداد كبيرة من هذه الجاليات في الاطراف الجنوبية
من شبه الجزيرة . واسس احفاد أولئك المسلمين في القرن
الثالث عشر مدينة ملقا ، حيث تقوم ميناء سنغافورة في العصر
الحاضر . وغدت هذه المدينة سوقا تجاريا زاهرا لوقوعه على
الطريق التجارى الهام بين الشرق الاقصى (الصين) والهند
وبلاد العرب . وجاء الى مملكة ملقا الدعاة من بلاد العرب ، وكثير
من القضاة كذلك .

ثم امتد نشاط الدعاة المسلمين الى داخل شبه جزيرة الملايو .
واستطاع الشيخ عبد الله المكي أن يدخل مملكة قويدة سنة
١٥٠١ م ، وهى احدى الولايات الشمالية بشبه جزيرة الملايو ،
حيث نجح في اقناع ملكها بترك الديانة الوثنية واعتناق الاسلام .
وظهرت المساجد بعد ذلك في الجهات الاهلة بالسكان من مملكة
قويدة ، حيث جرت العادة بدق الطبول ايدانا بدعوة الناس
للصلاة ، وظل الشيخ عبد الله يفقه الناس في أمور الدين ،
ويجذبهم اليه بحسن معاشرته .

ووصلت أخبار اسلام مملكة قويدة الى

مدينة أنجية بسومطرة ، فتحمس سلطانها ، واستدعى شيخا من مكة اسمه نور الدين ليعمل مع الشيخ عبد الله على نشر الاسلام . واشتهرت مملكة قويدة بتمسك أهلها بتعاليم الدين الاسلامى ، ورعاية الشعائر الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج واشتغال بعلوم الدين . وأدى انتشار الدين الاسلامى الى بناء الزوايا فى قرى مملكة قويدة ، فضلا عن المساجد فى المدن الكبرى ، والتحق بهذه الزوايا اعداد من الطلاب لدراسة العلوم الدينية على مشايخها .

أما سائر جهات الملايو ، فنالت بدورها حظا من التعاليم الاسلامية بفضل الدعاة الذين انتشروا فى أرجائها ، وتوجد اضرحة كثيرة مبعثرة على مسافات واسعة من ارض الملايو ، مما يدل على نشاط أولئك الدعاة . واشتهر مسلمو الملايو بالتسامح الدينى مع المحافظة الشديدة على تعاليم الدين . ذلك أن اختلاطهم بالهندوس والبوذيين وغيرهم من اهل الديانات الاخرى جعلهم أكثر تسامحا من مسلمى جزر الهند الشرقية . وهىأت لهم هذه الميزة الهامة فرصة لنشر دينهم بالطرق السلمية بين أولئك الجيران .

ومن الملايو وجد الاسلام طريقه الى بلاد سيام والهند الصينية . وقام الاسلام بدور كبير فى نشر الحضارة والثقافة فى تلك الجهات من قارة آسيا ، ويحصدها أهلها ثمار هذه الحضارة فى يقظتهم التى تدوى اصداؤها فى العالم فى العصر الحاضر .

انتشار الاسلام في الصين

العلاقات الاولى بين المسلمين واهل الصين :

ودخل الاسلام بلاد الصين كذلك مع التجار المسلمين الذين سلكوا الطريق البحري المعروف بين بلاد العرب والشرق الاقصى ، واستطاع اولئك التجار أن يحصلوا على تسهيلات كثيرة من اباطرة الصين منذ استقرارهم في الموانئ والمدن الهامة في القرن الثامن الميلادي ، اذ منحتهم امبراطورية تانج حرية العبادة واداء شعائر الدين ، وبنوا لانفسهم مسجدا في كانتون .

على أن علاقات سياسية سابقة نشأت بين الدولة الاسلامية وامبراطورية الصين في القرن السابع الميلادي ، اذ فر يز دجرد ، آخر ملوك الساسانيين في فارس ، من الجيوش الاسلامية الفاتحة ، وعمد الى الاستنجاد بامبراطورية الصين . غير أن الامبراطور آثر الحياد وعدم التدخل في هذا الصراع الذي علت فيه كفة المسلمين ، واكتفى بأن بعث سفيرا الى عثمان بن عفان ليدفع الأذى عن يز دجرد . واستقبل الخليفة عثمان سفير الصين سنة ٦٥١ م ، وبعث معه عند عودته أحد قادة العرب ليرافقه في الطريق .

ثم أدت الفتوحات الاموية في اواسط آسيا الى اتصال بلاد الدولة الاسلامية ببلاد الصين ، فتبادل الطرفان السفارات ، ونشأت جاليات اسلامية بالبلاد الداخلية ،

وأرسلت الدولة العباسية نجدة حربية سنة ٧٥٦ م لمساعدة
امبراطور من الإباطرة الصين في تدعيم مركزه ضد منافسيه على
العرش .

أثر الفتوح المغولية في انتشار الاسلام :

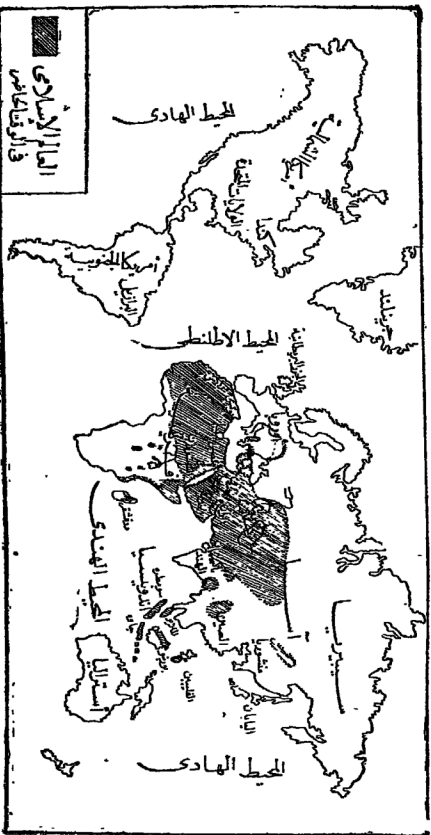
تمخضت حركات المغول في اواسط آسيا في القرن الثالث عشر
الميلادى من حركة هجرة هائلة اندفع فيها المسلمون من اواسط
آسيا على اختلاف قومياتهم من عرب و فرس و أتراك الى
الامبراطورية الصينية . واشتغل كثير من اللاجئين المسلمين
بالتجارة ، على حين احترف بعضهم الجندية ، واشتغل بعض
آخر في وظائف الامبراطورية . ثم لم يلبث ان علا شأن اولئك
المسلمين ، ولا سيما بعد ان لمس خانات المغول الذين سيطروا
على الصين مهارتهم في ادارة البلاد ، ومعرفتهم بشئون
التجارة . فتقلد بعض المسلمين المناصب العالية مثل الشيخ
عبد الرحمن ، الذى تولى سنة ١٢٤٤م ادارة بيت المال ، وأصبح
له حق تقرير الضرائب وتنظيمها في البلاد . وأسند الامبراطور
قوبلاى خان سنة ١٢٥٩م هذه الوظيفة الى الشيخ شمس الدين
عمر ، المشهور بالسيد الاجل ، وأصله من بخارى . ومات
السيد الاجل سنة ١٢٧٠ م وخلف شهرة عالية للمسلمين بين
الصينيين ، بفضل ما اظهره من المهارة والكياسة في الشئون
المالية ، واحترام الديانات الصينية .
ويرجع الفضل الى أسرة السيد الاجل في نشر الدين الاسلامى

ببلاد الصين ، اذ نال حفيد السيد الأجل سنة ١٢٣٥م من امبراطور المغول امتيازات اتاحت للمسلمين أن ينشروا كلمة الدين . وأشاد الرحالة الإيطالي ماركو بولو ، الذى زار الصين على عهد قوبيلاي خان ، بكثرة الجاليات الاسلامية فى مدن الصين وانتشارها فى أقصى بلاد الصين ومدنها الشمالية . وذكر ابن بطوطة عن الجاليات الاسلامية فى مدن الصين ، أنه يوجد فى كل مدينة من المدن التى زارها حى خاص للمسلمين ينفردون بسكناه ولهم فيه مساجدهم الخاصة .

وظل المسلمون يلقون كل عناية وتكريم من أباطرة الصين على اختلاف نزعاتهم ، وبرغم بقائهم على دياناتهم القديمة . فتمتع المسلمون بامتيازاتهم القديمة ، وغدوا أصحاب أراض واقطاعات واسعة . ولم يقم المسلمون بثورة أو عصيان ضد ظلم أو اضطهاد حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، أى حتى قيام أسرة مانشو التتيرية فى حكم الصين . ذلك أن قيام هذه الاسرة التتيرية أدى الى اضطرابات فى بعض ولايات الصين ، ونزل بالمسلمين أثناء هذه الاضطرابات كثير من الاذى مدة قرن من الزمان . ثم أصدر الامبراطور ينج تشن سنة ١٧٣١م اعلاناً بأن المسلمين من رعاياه يتمتعون بكافة الحقوق التى يتمتع بها سائر افراد الشعب ، وأنهم مثل أبنائه تماماً ، وأن عباداتهم ومساجدهم موضع الاحترام . وأظهر المسلمون تقديرهم للسلطات الحاكمة ازاء هذا الاعلان ، ودأبوا على القيام بأعمال

خيرية كثيرة ، ولا سيما أيام المجاعات التي نزلت بالصين في القرن الثامن عشر الميلادى . وتزوج المسلمون من الصينيات وتجنبوا تحدى جيرانهم من أهل الديانات الاخرى ، وحرصوا على ارتداء الزى الوطنى الصينى ، فلم يلبسوا العمامة الا فى المسجد فقط على حين اتخذوا سائر المظاهر الصينية الاخرى مثل وضع الضفائر فى رءوسهم وارتداء الازياء الوطنية .

.. واستطاع المسلمون بذلك كسب احترام جيرانهم من أهل الصين ، كما كسبوا عطف الحكام ، ولذا صارت وظائف الدولة مفتوحة أمامهم ، فبلغوا كراسى القضاء وقيادة الجيش وادارة الولايات بعض الاحيان . وبلغ المسلمون شأوا عاليا فى الصين فى القرن التاسع عشر الميلادى حتى ان كاتباً روسياً زار الصين سنة ١٨٦٧ م قال فى مذكرات زيارته ان الاسلام يكاد يصبح الدين القومى للامبراطورية الصينية .



مذكرات

١- تم التوقيع على الاتفاقية الأولى بين
 فرنسا وروسيا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠
 في موسكو. ٢- تم التوقيع على الاتفاقية الثانية
 بين فرنسا وروسيا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠
 في موسكو. ٣- تم التوقيع على الاتفاقية الثالثة
 بين فرنسا وروسيا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠
 في موسكو. ٤- تم التوقيع على الاتفاقية الرابعة
 بين فرنسا وروسيا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠
 في موسكو. ٥- تم التوقيع على الاتفاقية الخامسة
 بين فرنسا وروسيا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠
 في موسكو. ٦- تم التوقيع على الاتفاقية السادسة
 بين فرنسا وروسيا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠
 في موسكو. ٧- تم التوقيع على الاتفاقية السابعة
 بين فرنسا وروسيا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠
 في موسكو. ٨- تم التوقيع على الاتفاقية الثامنة
 بين فرنسا وروسيا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠
 في موسكو. ٩- تم التوقيع على الاتفاقية التاسعة
 بين فرنسا وروسيا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠
 في موسكو. ١٠- تم التوقيع على الاتفاقية العاشرة
 بين فرنسا وروسيا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠
 في موسكو.

مذکرات

[illegible]

مذكرات

ويطالبونهم بما كان لهم من الحقوق
 ثم يذهبون إلى بلادهم
 فلما كان في شهر ربيع الأول
 وانتهى الحال إلى ما بين الضيق واليسر
 فتمت هذه المدة ثم فتنوا علماء القبل وأسرهم
 ليسوا إلا من أهل القبل وسميتهم في دار
 الجليلية بالعلماء في عشرة قلوب في الكتب
 بعد ذلك ذهبوا إلى القلبيين في دار السلام
 من طائفة العلماء في دار السلام
 وكلما كان في شهر ربيع الأول
 فتمت هذه المدة ثم فتنوا علماء القبل وأسرهم
 ليسوا إلا من أهل القبل وسميتهم في دار
 الجليلية بالعلماء في عشرة قلوب في الكتب
 بعد ذلك ذهبوا إلى القلبيين في دار السلام
 من طائفة العلماء في دار السلام
 وكلما كان في شهر ربيع الأول
 فتمت هذه المدة ثم فتنوا علماء القبل وأسرهم
 ليسوا إلا من أهل القبل وسميتهم في دار
 الجليلية بالعلماء في عشرة قلوب في الكتب

This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There is no handwriting or other markings on the paper.

مذکرات

1. The first step in the process of developing a business plan is to conduct a thorough market research. This involves identifying the target market, understanding their needs and preferences, and analyzing the competitive landscape. Market research can be conducted through various methods, including surveys, interviews, and focus groups. The goal is to gather valuable insights that will inform the business strategy and help in making data-driven decisions.

2. Once the market research is complete, the next step is to define the business goals and objectives. These should be specific, measurable, achievable, relevant, and time-bound (SMART). For example, a business goal could be to increase sales by 10% within the next six months. Objectives are the specific actions that need to be taken to achieve these goals, such as implementing a new marketing campaign or improving customer service.

3. The third step is to develop a marketing strategy. This involves determining the most effective ways to reach the target market and promote the business. A marketing strategy should outline the key messages, the channels to be used (such as social media, email, or direct mail), and the budget for the marketing efforts. It should also include a timeline for when the marketing activities will be implemented.

4. The fourth step is to create a financial plan. This involves estimating the costs of the business and projecting the revenue. A financial plan should include a detailed budget, a cash flow statement, and a break-even analysis. It should also consider potential risks and contingencies. The financial plan is crucial for understanding the financial viability of the business and for securing funding if needed.

5. The final step is to write the business plan. This is a comprehensive document that outlines the business strategy, marketing plan, financial plan, and other key information. It serves as a roadmap for the business and is essential for communicating the business vision to stakeholders, including investors, lenders, and partners. The business plan should be reviewed and updated regularly as the business evolves.

مذكرات

جزوب
معين التاريخ
لاهل التاريخ